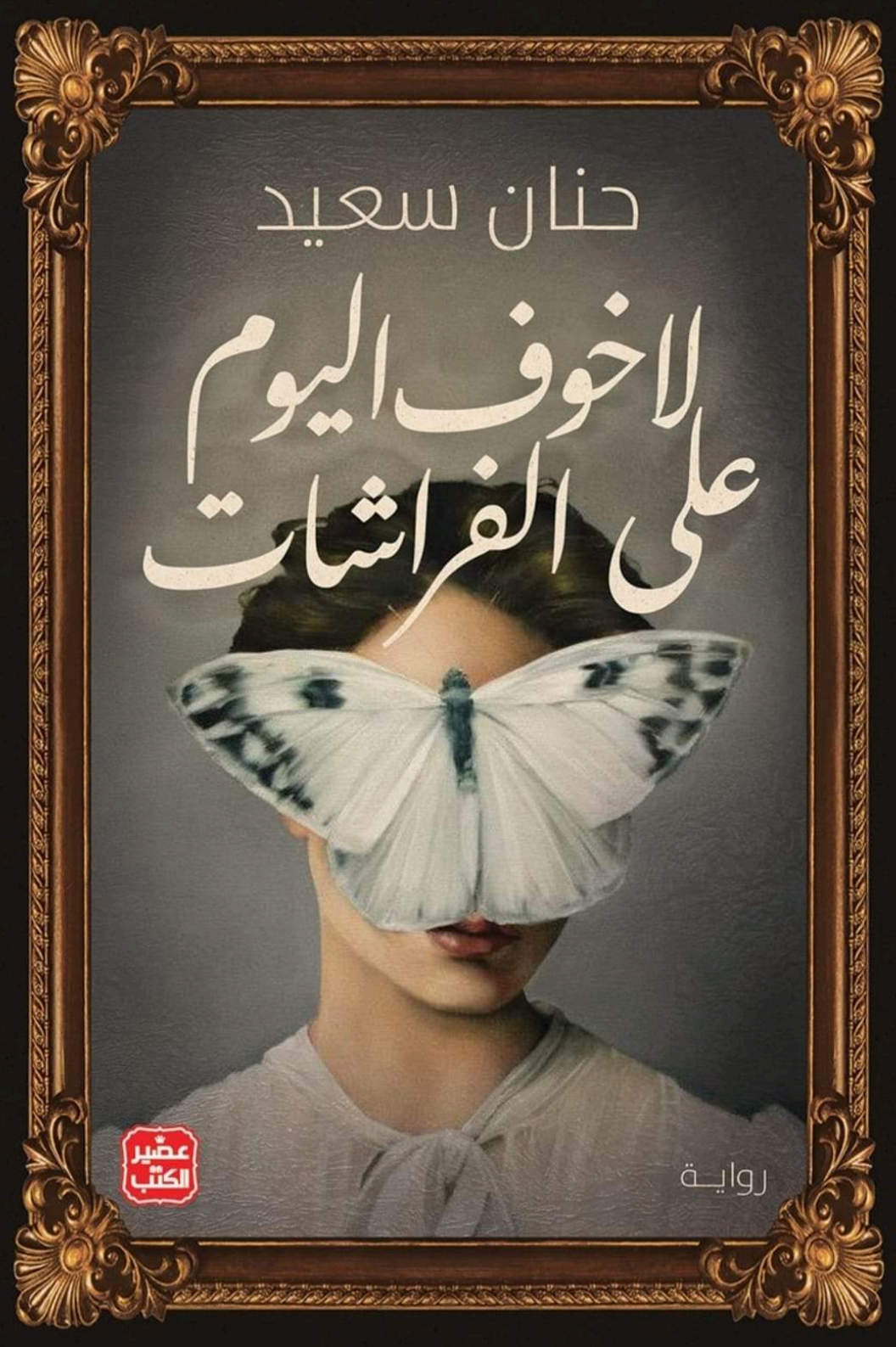

حنان سعيد
لاخوف اليوم
على الفراشات
عصير الكتب
رواية

لا خوف اليوم على الفراشات

عصير الكتب

إدارة التوزيع

00201150636428

لمراسلة الدار:

email:P.bookjuice@yahoo.com

Web-site: www.aseeralkotb.com

- الطبعة الأولى: يناير 2023م
- رقم الإيداع: 2022/25517م
- الترقيم الدولي: 978-977-992-173-0
- مجهز هذه النسخة: أشرف غالب
- المؤلف: حنان سعيد
- تدقيق لغوي: سلسبيل بهاء الدين
- تنسيق داخلي: معتز حسنين علي
- مصدر هذه النسخة: مكتبة ضاد الإلكترونية

الآراء الواردة في هذا الكتاب تُعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تُعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة © لدار «عصير الكتب» للنشر والتوزيع
يحظر طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية
أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي من الناشر فقط.

حنان سعيد

لا خوف اليوم على الفراشات

رواية

عصير الكتب

تم تجهيز هده النسخة بواسطة:

• mohamed •

• أروى •

• أفنان •

جميع الحقوق محفوظة ©

أمسح الكود وانضم لأسرة ضاد
https://t.me/twinkling4

إهداء

إلى أمي التي تواجه العالم بصُنعِ الطعام، تتخذه وسيلة لإرضاء الغاضب والاحتفال بالسعيد والتعبير عن الحب، لطالما كنتِ امرأة كاملة.

إلى دينا، تعريف آخر لجملة «الفتاة ملجأ»، ولكن بطريقة ملموسة.

شاقة هي المهمة،

عندما يولد الإنسان امرأة.

- **مايا أنجيلو.**

يجلس مع الفلاحين حول حسنين أفندي الذي يعمل في مكتب البريد، يستمعون إليه وهو يقرأ من الجرنال ويخبرهم عن تأميم قناة السويس، ورغم أنهم لا يفهمون كل حديثه فإنهم شعروا أنه شيءٌ جيدٌ لمصر.

يقول: «مكتوبٌ بالبنط العريض بعد عنوان تأميم قناة السويس، الرئيس يُعلن باسم الأمة: «أموالنا وحقوقنا رُدَّت إلينا، سنبني السد العالي معتمدين على سواعدنا واتحادنا ودمائنا».

سأل العم خضر: «وما هو التأميم يا حسنين أفندي، ولِمَ سيُغضب الغرب علينا؟»

- التأميم يا عم خِضر هو نقل ملكية قطاع معين إلى ملكية الدولة، والرئيس أمم شركة قناة السويس أي إنه نقل ملكيتها من الحكومة الفرنسية إلى الحكومة المصرية.

رفع الجورنال وأكمل قراءة: «وأعلن قائد الثورة في المؤتمر الشعبي الأكبر بالإسكندرية أخطر قرار تاريخي يرد به على ألاعيب الغرب وأساليبه فيما يتعلق بتمويل مشروع السد العالي.

وضع الجورنال جانبه وارتشف من كوب الشاي قبل أن يبرد حين نبهه لذلك أحد الفلاحين، تحدث كما يتحدث المثقفون: «لكنني أظن أن الرئيس جمال عبد الناصر لم يدرس جوانب هذا القرار جيدًا وأنه وضع الوقود لنيرانٍ سيشنها الغرب علينا، لكنه لن يغير قراره حتى لو حاربتنا إسرائيل، لا

شك أن القرار الذي اتخذه عبد الناصر وطني بحت، لكن مصر ليست مستعدة للحرب».

الأصوات التي كانت تردد: «ينصر دينه»، تمتمت برعب حين سمعت كلمة الحرب.

يكره نفسه في تلك اللحظات، حين لا يفهم ما يُقال ويشعر بألمٍ في صدره لأنه لم يستطع إكمال تعليمه، هو بالكاد يجد ما يأكل هو وجدته العجوز هدى التي ضعف بصرها حتى إنها أصبحت بالكاد ترى، ولولا ما يُرسل إليها من أموال بسيطة شهريًا لماتا جوعًا، أراد أن يتوقف عن الذهاب إلى المدرسة بعد إنهائه الابتدائية بسبب علاماته التي لا تشجع أن يُكمل، لكن جدته كانت تقول: «أمك ماتت وليس على لسانها شيءٌ إلا تعليم حسن يا خالتي، إياكِ وتركه بلا تعليم».

وكان يريد ترك التعليم لأن أمَّه وصَّت بذلك، ولأنه دخل المدرسة كأنه حالة خاصة بعد تقبيل جدته أيادي كثيرة، دخل المدرسة ودًّا لا يمتلك أي أوراق، كان يُنادى في الفصل باسم حسن فقط، أكمل الإعدادية على مضضٍ في مدرسة القرية المجاورة، مدرسة السعد، تيمنًا باسم الزعيم سعد زغلول وبعدها ترك التعليم، لأنه من المستحيل دخول الجامعة بلا أوراق ولأن جدته لو قبلت أيادي المسؤولين فلن يدخلها أيضًا.

انتهى من كوب الشاي وما زالوا يتحدثون حتى جاء الباشكاتب يصرخ بهم ليقوموا إلى العمل.

وقف هو ورمزي صديقه الذي قال له: «لا تنسَ أننا سنمر على متولي الصرماتي لنرى إذا كان انتهى من إصلاح الحذاء أم سنقف جواره ككل مرة».

قال جملته وأمسك الفأس وهو يغني:

حاجة ماشية في الدرب الضيق

ولابسة جزمة بتزيق

خلت الفلاح يعيط

من غلبه شرك الجلابية

وآه يا بوي

رأى حسنين أفندي وهو ينظف ثيابه مكان جلوسه ويرحل، تذكر حديثه عن تأميم قناة السويس وتذكر أنه سمع في جلسة تشبه تلك أن أكثر من مليون مصري ماتوا في حفر القناة، لم يكن يفهم ما هي مصر، الشيء الوحيد الذي يعرفه عنها هو رائحة الأرض وهو يشقها كي يضع البذور، وهو يمسك كتلة منها في يده، يضغطها ويحولها إلى تراب ينثره، لكنه كان يحبها لسببٍ يجهله هل أرضعته أمه حب الأرض؟ آه أمه لماذا يتذكرها الآن، هل ينقصه أن يُنغص يومه بسيرتها؟ ما هي حقيقة أمه؟

هل هي قديسة كما تصفها بعض نسوة القرية؟ أم شيطان في صورة امرأة كما يصفها رجال القرية؟ ومن الذي سمحت له أن يسرق عرضها بلا ورقة واحدة تصونها وتصونه لتجعله أبًا له، أين أبوه؟ هل فكرتْ مرة واحدة في الإثم الذي أنجبته؟ هل فكرت كيف سيعيش؟

جلس على الأرض بثيابه المتسخة، يلوم نفسه لأنه سمح مرة أخرى لمثل تلك الأسئلة أن تجد طريقًا إلى رأسه.

هو لو استطاع أن يسافر إلى المحروسة ويبحث عنه، ولكن من أين يبدأ؟ لا يعرف عنه معلومة واحدة يقتفي أثرها، لو عرفه سيقتله.

انتهى من عمله ووصل إلى البيت وصورة المشهد الذي يظن أنه رآه لا تتوقف عن الظهور أمام عينيه، امرأة يجرُّونها بالأصفاد، تصرخ يسمع صوتها، تقول أشياء كثيرة، يذكر بعضها يذكر بعضها، لا يُصدِّق بعضها ويعترف آسفًا أنه ينتظر تحقق بعضها، يراهم يتطاولون عليها، تصرخ أكثر تناديه: «لا تصدقهم، أنت ابن حلال يا حسن»، ثم يراها تسقط في صمتٍ غريب، تنظر إلى السماء كأنها ترى شيئًا لا يراه سواها، تبتسم، تُشير بيدها كأن الخلاص أتاها، ثم يجد يده ترتفع بلا إرادة منه كأنه : يريد تغيير سير

أحداث انتهت يفيق على صوت جدته يأتيه ضعيفًا من الداخل: «هل وصلت يا حسن؟».

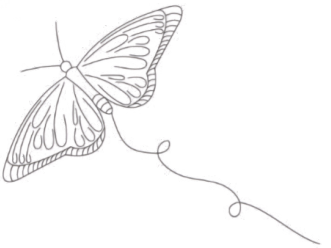

هأنذا أكتب النصوص وأُطيرُها.

أخفيك تحت وسادتي بحذرٍ بالغٍ، لا تتحدث، سيكشفنا الليل.

أراقبكِ وأنتِ تنظرين إلى بطني الذي كبر وفضحني على حد قولكِ، تنظرين إليَّ بترقُّب، وأعرف ما يدور في رأسك، تريدين تفسيرًا منطقيًّا، تريدين أن تعرفي كيف تُصبح فتاة مثلي - لم يمسسها رجل- حاملاً !

أتأمل الشامة أسفل عينكِ اليمنى، حاجبيكِ السميكين، تجاعيد متفرقة في وجهك، هذا ما يفعله الزمن على كل حال.

تنظرين إلى بطني مرة أخرى، تخجلين من نطق السؤال، يبدو سؤالاً من المحذورات وأنتِ يا خالة امرأة ملتزمة لا يصح أن تطرقي باب الممنوع.

نفد صبرك من صمتي فصرختِ: «انطقي».

سألتك وكأنني أراكِ لأول مرة بعد غياب: «لماذا لم تتزوجي مرة أخرى؟».

- مَن منا عليها أن تُجيب! هل أضعتِ شرفك يا بنت فاطمة؟

- وما هو الشرف يا خالتي؟

حركتِ يديكِ وأنتِ تبتسمين بسخرية: « ولماذا أسأل، يوم أن أتيتِ إلى هنا، كنت كبنات البَندر تمامًا، فستان ضيق من عند الخصر وحجاب لا يخفي رقبتك، وبعد كل هذا، هل سيؤلمك فقد شرفك؟».

استغفرت الله ثلاثًا فداهمتني وأنتِ ترفعين حاجبيكِ: «هل تعرفين الله!».

الله؟

كيف لا أعرفه؟

إن ما أنقذني من الجنون مرارًا هو معرفتي به، لولا أنني أعرفه وأعرف أنه سيتدخل في لحظةٍ ما ويُنقذني من الموقف، لكنتُ فقدتُ عقلي.

أعرفه والله يا خالتي، وأحبه رغم المسخ الذي تحولتُ إليه، فقدتُ كل شيء إلا يقيني به، وهذا ما يجعلني أعيش حتى هذه اللحظة، أنتظر أن تتغير الأمور، أن يحدث شيء جميل في النهاية، أليس هذا ما نستحقه؟ أقصد أليس هذا ما يليق بكرم ربنا الجميل؟

أغلقتُ عيني حين كُسر باب الذاكرة، كان الجو شديد الحرارة في ذاكرتي، وهذا لأنها طلّت على الفرن البلدي الذي جلست أمامه أمي فاطمة، فرن مصنوع من الطين وروث الحيوانات، تسبِّح الله وهي تضرب العجين بيديها.

تسألني: «هل أصنع لك كرشًا؟».

أنتبه لديها وهي تضرب العجين وترفعه ثم تتركه فجأة ليُصبح كرش عجين يُثقب فأضحك.

فتاة نحيلة، بيضاء، بغمازة واحدة في إحدى وجنتيها، تنتعل نعلاً تخرج أصابعها الرفيعة منه، تنهرها أمها كيلا يُقطع النعل، لكن ماذا تفعل في قدميها الرفيعتين؟ تضع لها حجابًا على شعرها كيلا يسقط في العجين، وهذه كارثة، يجب على النساء أن يُخفين الشعر في أثناء الطبخ، هذا بالنسبة إلى الأطفال، أما النساء الكبيرات مثل أمي، فعيب أن يظهرن الشعر بصفة عامة، تنام بحجاب قصير تخفي به شعرها وتستيقظ به وتسير في الدار به، وإذا خرجت وضعت حجابًا آخر فوقه تخفي به رقبتها.

مدت يديها فرفعتُ إناء الماء وصببته ببطء كي تغسلهما.

تقول دون أن تنظر إلى وجهي : «ماذا قال لكِ الشيخ درويش حين رآك؟».

قبل أن أجيب تُذكرني أنني إن لم أحفظ ستلحُّ على أبي الشيخ جميل كي يمنعني من الذهاب إلى الكتَّاب مرة أخرى، يكفي أن سيرتي على كل لسان،

منذ متى والبنات يذهبن مع الرجال ويحفظن القرآن ألاحظ أنها تقول على الأطفال مثلي رجال.

تسأل مستنكرة: «إذا كان يريد تحفيظ القرآن، فليفعل هو، أليس شيخًا!».

لا أجيب لأنني لا أفهم، ولأنني انزويتُ في ركنٍ أمس حين كان أخي إبراهيم يقنعها ويقنع أبي بتعليمي، وكنتُ أعرف أنها بالنهاية رغم عدم رغبتها ستمسح بيدها على ظهره العريض وتقول له: «اللي تشوفه يا نور عيني»، وأبي سيبتسم كأنه راهن وانتصر.

تسألني: «هل هناك فتيات غيرك؟».

أخاف أن أقول لا، أصمت، تنظر إلى عيني فتفهم، تمسح يديها المبللتين في عباءتها وهي تسأل بعصبية: «هل أكل القط لسانك!».

تسأل مرة أخرى كأنها تريد إجابة مختلفة: «ولا فتاة واحدة؟ ولا واحدة!».

أجلس في ركن أراقبها وهي تضع القش في الفرن لتُشعله، سيمتلئ الجو بدخان أسود، وهذه هي الحياة بصورتها الحقيقية، لحظة سكون، ثم دخان أسود يسير على أطراف أصابعه حتى يُصبح بركانًا ثائرًا. تأخذ قطعة من العجين بعدما تخمرت، تضعها على خشبةٍ ناعمة نثرت عليها دقيقًا، تحركها ببطء في حركاتٍ دائرية، تنظر إليَّ لتتأكد أنني أراقبها، تقول بعينيها: «هذا ما سينفعك في النهاية، أن تصنعي خبزًا».

وكانت أمي فاطمة مُحقة بطريقةٍ ما، الخبز هو رمز للحياة، وفي النهاية النساء خُلقن ليضعن الحياة في أرحامهن، تنبت أولاً لتكون مجرد شهيق أو زفير، تكبر الحياة قليلاً لتكون رئة وبعدها تتحول إلى معنى أكبر، إلى شيء شامل بمفهومه الذي ندركه، نعم، أنا خلقتُ لأمنح حياة.

يمتلئ الهواء رائحة خبز، تختفي تجاعيد وجهها قليلاً حين تنتهي فأركض تجاه السكر وأمد يدي به لها تضحك فتظهر السن المعدنية في فمها: «ستُكسر أسنانك يا بت!».

- هل يكسر السكر؟
- يفعل.
- سأضع مكانها سنّاً معدنيًّا، مثلك.
- بعيد الشر، لا تتحدثي عن الشر أبدًا، إنه يأتي حين يسمع اسمه.
- هل له أذنان؟
- وقدمان.

وقفت ونفضت الدقيق من جلبابها الرمادي، جمعت الدقيق من فوق الطبلية الخشبية التي صنعها لنا عم سيد ولم يقبل أن ينُقص في ثمنها مليمًا واحدًا، جمعت الخبز وذهبت لتضع الماء أمام البط والإوز وأنا بقيت أفكر في شكل الشر، نظرتُ حولي أبحث عنه، من الممكن أن يكون خلف شيءٍ ما يسمع حديثي معها حتى ينقض علينا حين نذكر اسمه، سرتُ خلفها لوسط الدار، تعلمتُ المراقبة، خزنتُ الكثير من الصور، تأملتُ مواقف عديدة، هذا ما يبقى في الذاكرة يا خالتي، مثل صورة البطة الكبيرة التي جذبتها أمي من رقبتها كي تضع الذرة في فمها غصبًا، ستكون بطاقة تعريف لأمي في عقلي.

نظرنا إلى الباب الخشبي الكبير حين جاء أبي، حرك يده بالسبحة وهو يستغفر الله، وقفت أمي بسرعة وسألته: «خير، لمـــــــاذا طلبك الشيخ

دسوقي؟».

فأجاب: «إنا لله وإنا إليه راجعون، الرجل يحسب أنفاسه الأخيرة، وجمع رجال القرية ليخبرهم بحمل زوجته ».

وتركنا ودخل، سألتها حين تأكدت من أنه لا يسمع: «لماذا يخبرهم بحمل زوجته؟»

قالت وهي شاردة: «كيلا يظن بها أحدٌ سوءًا، ثم صرخت بوجهي فجأة: «ما دخلك بهذه الأمور !».

لم أكن أعرف ماذا يعني أن تحمل امرأة، لكنني عرفت أنه شيءٌ لو لم يعرفه الرجال من زوجها الذي يحسب أنفاسه الأخيرة، سيظن بها أحد سوءًا.

رفعت وعاء الخُبيزة الساخن بطرف عباءتها من فوق الكانون ودخلت وراءه، الآن ستضع الطبلية وتضع جوارها الخبز الذي انتهت منه من نصف

ساعة وتناديه كي يُكمل لها الحديث ثم ستُنهي حديثهما كما تفعل دائمًا بجملة: «حسك في الدنيا يا أخويا».

جلستُ في الخارج أنتظر إبراهيم، لا نأكل إلا حين يعود من عمله، مرت عائشة فركضتُ إلى الباب أناديها.

أمسكتُ في الباب الخشبي وأنا أسألها: «لِمَ تأخرتِ اليوم؟».

مسحت عرقها بكم عباءتها: «لم يرضَوا أن يتركونا إلا بعد أن نجمع قطن المساحة المحددة، قالت لهم منال وهي تبكي إن الشمس أكلت رؤوسنا، فهددونا أنهم سيُخبرون العمدة أننا لا نطيع وسيأتي بغيرنا، ربنا على الظالم». فسألتها: «هل ستأتين بعد العصر لنلعب؟».

نظرت إلى السماء وكأنها تفكر ثم قالت: « لو لم آت بعد صلاة العصر مباشرةً فاعلمي أنني سأُلهى في شغل الدار».

ذهبت ووقفتُ أنظر إليها حتى اختفت، لولا أن إبراهيم رفض عملي في أرض العمدة بالأجرة، كنت سأكون مثل عائشة.

الله يضع المواقف والأشخاص في حياتنا ليُغيّروا وجهتها، كيلا تكون حياتنا نُسخًا مكررة.

أعطتني أمي خمسة أرغفة كعادة كل مرة تخبز فيها لأوصلها إلى بيت ستي خضرا، ضممت الأرغفة الملفوفة في ثوبٍ قديم لأمي وركضت الطريق، حين مررتُ على بيت عم دسوقي تخيلت زوجته وهي تجلس حزينة لأنها فعلت مصيبة وأصبحت حاملا وزوجها سيموت.

استقبلتني أمام البيت القديم، كنتِ تنظفين أمامه وترشين الماء كي يهبط الغبار، أخذتِ الأرغفة من يدي قائلة: «هل خبزت أمك؟». فأجبتك: «تُسلم عليكِ وعلى ستي خضرا ».

أشرتِ بيدك إلى الداخل: «ادخلي سلّمي عليها».

ستي خضرا تشبه أرضًا قديمة، صوتاً بعيدًا، رائحة تزور الذاكرة أحيانًا ولا نتذكر بها الأشخاص بل الأماكن، ستي خضرا مكان، لكنها مكان قديم

كَبيتها. أخبرتِني مرة أنها حين تزوجت جدي إبراهيم، ليلة زفافهما كان يلف كأنه كان حول المرتبة القش بقدمٍ سليمة والأخرى عرجاء ويقول: «مدد»، كأنه كان يُحدث أشخاصًا لا يراهم، خافت منه، لكن رغم ذلك إلى الآن كلما أوشكت أن تقوم من مجلسها تقول: «مدد» مثله، كان عمره قصيرًا لأنه كان طيبًا كما تقول، وعرفتُ منهما أن الطيب لا يعيش طويلاً، بل يموت بسرعة.

تضع شالها الأسود على كتفيها وتجلس أمام عتبة الباب الداخلي، سبحة بيضاء في يدها، تشير إليَّ حين تراني، يدها متخشبة، لا تتحرك أصابعها بسهولة.

- لم لم تأتِ أمك؟

- كانت تنتظر أبي لتسأله عمَّا يريده الشيخ دسوقي.

- ولماذا كان يريد دسوقي الشيخ جميل؟

- زوجته حامل وهو سيموت، لذا ناداه ليخبره عن المصيبة.

ضحكت وانفرجت شفتاها عن فمٍ بلا أسنان، اللهم إلا ضروسا تطحن الطعام بها.

أعطتني مليمًا في يدي، أخذته وأسرعت إلى البيت. حين رأيتُ إبراهيم من بعيد ركضت إليه، لم يرفعني، توقف عن حملي بعدما أتممت الخامسة، قالت أمي له إنني لم أعد صغيرة وإن دلعه الزائد لي سيفسدني.

أمسكت ذراعه وقلت له: «أتعرف ماذا حدث في الصباح؟ أخذني أبي إلى الشيخ درويش، دخلنا الكتَّاب وكان يجلس وأمامه الكثير من الرجال، أتعرف ماذا كان يمسك في يده؟ عصا كبيرة، فضغطتُ يد أبي من الخوف، قال له إنني آمال ابنته الصغيرة، فسأله الشيخ وهو يبتسم: «أهذه التي جاءت بعد صبرٍ طويل؟»، قال له أبي إنه سيرسلني من الغد وإنني أمانة عنده، وبعدما خرجنا قال إنني إن لم أحفظ جيدًا سيضربني الشيخ بعصاه حتى يكسر عظامي، ولم أقل له إنني لا أريد الذهاب كيلا تغضب أنت مني».

مسح بيده على شعري، لو حفظت جيدًا سأشتري لك كل ما ترغبين».

أكملت: «أتعرف أيضًا ماذا حدث؟ خالتي نجيَّة زوجة الشيخ دسوقي، سيظن الناس بها سوءًا».

انتبه لي وسألني: «ماذا حدث؟».

- الشيخ دسوقي سيموت، وهي حامل، وهذه مصيبة، لأن المرأة لا يجب أن تكون حاملاً وزوجها سيموت.

ضحك بصوتٍ مرتفع وحملني: «مَن أخبرك بهذا الحديث؟.. فأجبته: «أنا سمعت».

حرك رأسه ناهيًا: «لا يجب أن نقول كل ما نسمعه يا آمال، هناك حديثٌ لا يصح أن نقوله، والمرأة لا تأتي بذنبٍ إذا كانت حاملاً وزوجها سيموت».

إبراهيم الوحيد الذي كان يُناديني باسمي، لستُ «بت آمال» معه.

سألته: «ما معنى أن تكون حاملاً؟»

فأجاب: «أن يضع الله في بطنها طفلاً صغيرًا، لتخرجه هي إلى الدنيا كي يكون ابنها، مثل آمال ومثل إبراهيم».

ارتعش جسدي من التخيل، كيف يفتح الله بطن الخالة نجية ويضع فيها طفلًا كبيرًا مثلي أو مثل إبراهيم!

دخلنا البيت فقلتُ له: «أتعرف ماذا سنأكل على الغداء؟ خبيزة».

استقبلته أمي في وسط الدار مرحبة قبل أن تنهره لأنه حملني، جذبتني من يده وهي تقول: «ماذا قلت لك يا إبراهيم؟ البت كبرت ولا يصح حملها».

- ستكبر عليَّ! آمال ابنتي.

حركت يدها بنفاد صبر: «وإن كان».

إبراهيم المحاولة الثانية لأمي للإنجاب، فقدت طفلها الأول بعدما مكث في بطنها شهرين، كانت غضة لا تعرف وقتها أن المرأة يجب أن تتصرف كأم من اللحظة الأولى التي تشك فيها بوجود روح داخلها، ثم جاء إبراهيم، عين أمه، تقول له حين يناديها: «نعم يا عين أمك»، لكن الكلمة تعني شيئًا آخر، النور

الذي ترى به والذي إذا فقدته فقدت بصرها معه. حاولت بعده خمس مرات، وفي كل مرة تفقد الطفل بطريقة مختلفة، قبلي جاءت فتاة أسمتها خديجة متوسلة ببركة اسمها إلى الله أن يُبقيها، ظلت معها ثلاثة أعوام ثم جاء قضاء الله.

أنا المحاولة الناجحة بعد طريق طويل من البكاء، اختار إبراهيم اسمي. أعرف أنني لو ولدت في ظروفٍ عادية، كأن أصل إلى العالم بلا محاولات مُرهقة قبلي لامتلاك طفل، كان مكاني في الحياة سيختلف، لكن رغم الدرجة الزائدة التي حصلتُ عليها لم تكن كافية لأنتسب إلى المدرسة في القرية المجاورة، ولولا محاولات إبراهيم لم أكن سأذهب إلى الكُتَّاب أيضًا.

كانت حياتي ستكون عبارة عن مراقبة، كنتُ سأراقب أمي كل صباح وهي تضع الشاي على الكانون، أو وهي تغرز يديها في العجين وتسبُّ الدجاج حين يقترب منها، تدعو عليه بنفاد صبر: «تعدم روحك»، أو أنظر إليها بعينين تلمعان وهي تحكي لي قصة الفراشة التي تشاجرت مع أهلها ورفضت المكوث معهم ولم تستمع إلى تحذيرات أحد وحين طارت اقتربت من النار فاحترقت، أو أراقب لهب لمبة الجاز حتى يسرقني النوم.

ثم أُعيد ما عشته مع أبنائي، لينتقل دور المراقبة مني إليهم.

كانت ستكون حياة عادية، لا خوف فيها ولا ألم.

***

من أحاديث الشيخ درويش:

«أنت الذي عودتني أن لطفَك بالغٌ يمحي الضرر،

وكلي يقين أنك يا رحيم ترعاني».

***

صباح الحياة الجديدة، أحكمت أمي حجابًا صغيرًا على رأسي وكانت المرة الأولى التي أخرج به من البيت، وضعت في يدي قطعة خبز بها جبن وخِيارة مسحتها في ملابسها قبل أن تتركها لي وهي تقول محذرة إنني إن لم أحفظ جيدًا لن أرى الشمس مرة أخرى.

أخذني إبراهيم من يدي الأخرى وأوصلني في طريقه إلى الكُتَّاب، كان سعيدًا، ربما أكثر مني، لأنني لم أفهم وقتها ما فائدة إصراره على أن أتعلم القراءة والكتابة وأحفظ كلام الله، كان يعاملني كما لو أنني ابنته حقًّا، لذا خرج إلى العمل في سنٍ صغيرة كي ينقذني من العمل بالأجرة في أراضي الأغنياء.

حين اقتربنا من بيت الشيخ درويش قبَّل رأسي وقال: «لا تغضبي الشيخ يا آمال، ركزي في كل حرفٍ يقوله، وأنا سأنفِّذ وعدي لك، إذا حفظت جيدًا لكِ عندي كل ما تطلبين».

تركتُ يده ودخلتُ بقدمي اليمنى مرتعشة، كان الرجالُ الصغار يجلسون أمامه وهو يحرك عصاه كي يرددوا خلفه، سمعته يقول: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ)، التصقتُ بالحائط في خوفٍ حين ضرب من أمامه بالعصا وهو يصرخ به: «أين الإخفاء في كنتم؟»، ظللتُ مكاني أمارس الشيء الوحيد الذي أعرفه، المراقبة، في كل مرة يصرخ أو يضرب أشعر أنني على وشك أن أتبول.

ناداني دون أن ينظر إلي: «تعالي يا بنت» .

وعرفتُ وقتها أنني في مكان أفضل، لأنني تحولتُ من بت إلى بنت، هذا ما منحه لي الكُتَّاب في أول يومٍ، حرف النون الذي غيَّر لقبي إلى لقبٍ أكثر احترامًا.

شهران كاملان حفظتُ فيهما الحروف، نطقًا وكتابة، وزينة الحروف وهويتها التشكيل غطاء رأس الحرف، كما يفعل الحجاب معنا كنساء.

المعرفة تُصبح مشكلة كبيرة حين تُمنح إلى شخصٍ واحد في بيئة كاملة، كان عليَّ أن أنتظر إبراهيم كل يومٍ حتى أخبره ماذا قال لي الشيخ، ماذا فعلتُ، هذا الحرف يُنطق هكذا ولا يُنطق هكذا، هل تعرف كيف يُكتب؟ يُكتب هكذا، ولا أتوقف إلا حين تقول أمي صارخة بنا: «الله يسامحك يا إبراهيم، هل خلصنا من لسانها من قبل حتى تبتلينا بذهابها إلى الكتَّاب، أصبحت كالديك لا يصمت»، نصمت قليلا ثم أسأله: «هل أقول لك كيف ننطق حرف الثاء؟».

***

تأخذني في حضنها وهي تسبح بأصابعها في شعري، أدس أنفي في جسدها، لها رائحة عرق تُشبه طين الأرض ، دافئة وطيبة، نتحدث قليلاً عن الشيخ درويش، أخبرها أنه لا يبتسم أبدًا، يضرب الجميع لكنه لا يضربني وأنه خصص لي مكانًا وأخبرهم أن هذا مكان البنت، وأقول لها مرارًا بفخر أن البنت هي أنا نتحدث عن أختي التي ماتت قبلي وتخبرني أنها تنتظرها عند باب الجنة، أسألها كيف يبدو باب الجنة، لكنها لا تجيب، تبتسم وتقول: «الله يوعدنا ونراها»، ينتهي بنا الأمر إمَّا لحديثٍ عنها قبل زواجها وإما لحكاية الفراشة. أسألها: «ولِمَ لَمْ تبقَ الفراشة في بيت أهلها؟».

تقول وقد نال النوم من صوتها: «كرهته ، لأنها أصبح لها جناح فضاق البيتُ عليها، تظن أن الله خلق كونًا واسعًا لها».

- لِمَ لَم تمنعها أمها؟

- لم تستمع إلى كلام أحد، رأسها ناشف مثلك.

- هل احترقت لأنها لم تسمع كلام أمها؟

وعرفتُ وقتها أنني في مكان أفضل، لأنني تحولتُ من بت إلى بنت، هذا ما منحه لي الكُتَّاب في أول يومٍ، حرف النون الذي غيَّر لقبي إلى لقبٍ أكثر احترامًا.

شهران كاملان حفظتُ فيهما الحروف، نطقًا وكتابة، وزينة الحروف وهويتها التشكيل غطاء رأس الحرف، كما يفعل الحجاب معنا كنساء.

المعرفة تُصبح مشكلة كبيرة حين تُمنح إلى شخصٍ واحد في بيئة كاملة، كان عليَّ أن أنتظر إبراهيم كل يومٍ حتى أخبره ماذا قال لي الشيخ، ماذا فعلتُ، هذا الحرف يُنطق هكذا ولا يُنطق هكذا، هل تعرف كيف يُكتب؟ يُكتب هكذا، ولا أتوقف إلا حين تقول أمي صارخة بنا: «الله يسامحك يا إبراهيم، هل خلصنا من لسانها من قبل حتى تبتلينا بذهابها إلى الكتَّاب، أصبحت كالديك لا يصمت»، نصمت قليلا ثم أسأله: «هل أقول لك كيف ننطق حرف الثاء؟».

***

تأخذني في حضنها وهي تسبح بأصابعها في شعري، أدس أنفي في جسدها، لها رائحة عرق تُشبه طين الأرض ، دافئة وطيبة، نتحدث قليلاً عن الشيخ درويش، أخبرها أنه لا يبتسم أبدًا، يضرب الجميع لكنه لا يضربني وأنه خصص لي مكانًا وأخبرهم أن هذا مكان البنت، وأقول لها مرارًا بفخر أن البنت هي أنا نتحدث عن أختي التي ماتت قبلي وتخبرني أنها تنتظرها عند باب الجنة، أسألها كيف يبدو باب الجنة، لكنها لا تجيب، تبتسم وتقول: «الله يوعدنا ونراها»، ينتهي بنا الأمر إمَّا لحديثٍ عنها قبل زواجها وإما لحكاية الفراشة. أسألها: «ولِمَ لَمْ تبقَ الفراشة في بيت أهلها؟».

تقول وقد نال النوم من صوتها: «كرهته ، لأنها أصبح لها جناح فضاق البيتُ عليها، تظن أن الله خلق كونًا واسعًا لها».

- لِمَ لَم تمنعها أمها؟

- لم تستمع إلى كلام أحد، رأسها ناشف مثلك.

- هل احترقت لأنها لم تسمع كلام أمها؟

- هذه عقوبة مَن لا يسمع كلام أمه.

- ولِمَ خلق الله لها جناحين إذا كان يجب ألا تطير بهما؟

تنفخ بعصبية وهي تستدير لتنام: «الفجر قرَّب يشقشق، نامي!».

لا أنام، أراقب السقف المصنوع من الغاب، أسمع زقزقة وزغٍ قريبًا منَّا فألتصق بها وأنام.

- عرفتُ يا خالتي أننا لا نُطلق كلمة بيتٍ على أي مكان نسكنه، مثلاً المنزل الكبير للباشا، لم أره بيتًا قط، شيءٌ ما داخلي يرى المساكن التي تُشبه بيتنا وبيت ستي خضرا هي ما تستحق أن نقول عليها بيتًا، وأمي بيتٌ متنقل لأنها تمتلك ما تمتلكه البيوت نفسه، هل فهمتِ؟ لهذا أنا غريبة، حتى بعدما وصلت إلى أماكن لم أحلم بالوصول إليها، حتى بعدما نمتُ على فراش لم يأتِني حتى بأجمل تخيلاتي، أنا غريبة ومنفية وهذه مشكلة أخرى، أقصد سببًا آخر لضياعي.

أنتِ مثلاً، ماذا تعني لكِ الحياة؟ هل أجيب بدلاً منكِ؟ إنها لا تتعدى حدود هذه القرية التي تعادل حجم شارع واحد من شوارع المحروسة، هل رأيتِ الكهرباء يا خالتي؟ هل رأيتِ الماء وهو يسقط من أنبوبٍ معدني بمجرد أن نحركه؟ أنتِ لا تعرفين وطنًا آخر غير هذه القرية، هي وطنك، مكان ولادتك وستكون مكان دفنك.

ضربتُ وجهي بيدي وأنا أقول:

«هل رأيتِ؟ هذا ما أوصلني إلى هنا، لأنني نظرتُ من ثقبٍ صغير في الجدار إلى العالم ولم أكتفِ، بل خرجت إليه لذا ضعت».

يوم أن حدثت الطامة في القرية، وقال أبي في خطبة الجمعة إن يوم القيامة قريب، ظل صامتاً ثلاثة أيام بعدها لا يتحدث ولا يخرج إلى الصلاة في المسجد.

يومها كنت ألعب مع عائشة وأختها التي تكبرنا بعامٍ عند الحفرة الكبيرة التي تسبق أرض الباشا، صنعنا طيورًا من الطين وقلنا في صوتٍ واحد: «طيري يا وزة العسكري جاي»، حينها وجدنا الناس يركضون في اتجاه واحد، لطمت واحدة من النساء وهي تركض معهم وتقول: «الله يستر علينا»، فركض ثلاثتنا معهم، وقفنا خلف الصفوف قريبًا من بيت العمدة عند الساحة، لم نر شيئًا، لكننا سمعنا أشياء مثل: «ماذا حدث في الدنيا!». «لا حول ولا قوة إلا بالله، سينزل الله سخطه علينا». «والله تستحق الحرق حية». «ضيعت عمرك يا سميرة، يا خيبتك».

اندسسنا بين الصفوف، حتى وقفنا خلف الصف الأول ننظر من بين الأجساد، كانت الخالة سميرة تقف أمام بيت العمدة مربوطة اليدين من الخلف، يداها التي أعطتني بهما مرة نصف فطيرة بها سُكَّر. تقف بإنهاك بثيابٍ ممزقة الكتف اليمنى، تعلَّق منديلها الصغير في شعرها من الأسفل كأنها خرجت من معركة. وقف العمدة جوارها ورفع عصاه أمامنا قائلا: «يا أهل القرية، إذا كان يرضيكم أن تنتشر الفاحشة بيننا وينزل الله غضبه علينا سأتركها، الله يستر على ولايانا، جاءت المرأة بما لم يأتِ به أحدٌ قبلها، رآها أربعة شهودٍ مع أسامة المزيّن، والنذل هرب قبل أن نمسكه، والآن الحكم لكم، إما أن نطبق فيها شرع الله ونجلدها، وإما أن تُترك في القرية وتقول لا مِساس، لا يحدثها أحد ولا يقضي حاجتها أحد».

قال الجميع في صوت واحد:و«بل تُحاسب يا حضرة العمدة».

ظهر أبي وهو يجاهد ليخرج من الصفوف ويقف أمام العمدة: «استر على المرأة يا حاج زناتي لم نسمع عنها شيئًا سيئًا من قبل».

رفع العمدة يده وهو يستغفر: «والله ستُجلد هنا وأمام الجميع، إنها جاءت بفاحشة، غدًا يسقط علينا الله حجارة من سجيل عقاباً لنا».

اقترب أبي منها وسألها: «أفعلت؟».

رفعت عينيها ولم تتحدث، سأل مرة أخرى: «أفعلت؟».

بكت، ضرب أبي كفًّا بكف: «لا حول ولا قوة إلا بالله، اللهم أغثنا».

جاء صوتها غريبًا كأنه يمر من أسطوانة: «يا شيخ جميل، إنني طُلقتُ منذ سبع سنوات، لا مكان لي غير القرية أذهب إليه، ولا أحد يأتي طالبًا الزواج ولن يأتي أحد، حكم عليَّ رفعت بن قنديل أن أعيش الباقي من عمري بلا رجل حين رمى عليَّ يمين الطلاق، من سيتزوج مطلقة! وأسامة المزيِّن وعدني بالزواج».

سبها العمدة: «وتصفين ما حدث بلا حياء ولا خجل، والله سأقطع لسانك، اربطوها في النخلة».

نادت أبي بصوتٍ مجروح وهم يجرونها للنخلة: «يا شيخ جميل والله وعدني بالزواج، والله وعدني، سبع سنوات بلا رجل، وهو وعدني».

رُبطت، التصق وجهها في النخلة، كانت تنظر جهة الجمع تقلب نظرها، رأيتُ الشيخ درويش يقف أمام أبي يحاولان منع العمدة لكنه أقسم أن يفعل، قال إنه مسؤول وإن الله سيسأله عن هذه القرية وأهلها.

رفع يده وسقط بسوطٍ على جسدها، أمسكتُ يد عائشة في خوفٍ، سبَّها وهو يضربها، لم تصرخ، انتفاضة خفيفة مع كل ضربة، رأيتها تنظر إلى السماء شاخصة العينين كأنها ترى ما لا نراه، ثم سمعنا صراخًا في كل مكان حين علا صوتٌ يقول: «ماتت سميرة في يد العمدة».

أصبتُ بالحمى بعد تلك الحادثة، لم أحتمل ما رأيته فمرضت، لكن كان يصل إليَّ بعض الحديث وأنا نائمة على رجل أمي.

أذكر صوتها وهي تقول: «الله ينتقم منه، كلنا نعرف أنه لا يعرف الله، وربما هو من سلّط عليها أسامة المزيِّن لينتقم منها لأنها رفضته قبل زواجها من رفعت».

قُلتِ لها: «سمعتُ أنه طلب الزواج منها في السرِّ ورفضت، لكنني لا أصدق، ما جعلها تقبل بذنب مع أسامة المزيّن كانت ستقبله مع العمدة».

- لا تقولي هذا يا هدى، سميرة لم نسمع عنها سوءًا قط، كانت بشوشة مع الجميع ولا ترفض لأحدٍ طلبًا، ربما أغراها الولد، وهي امرأة وحيدة، الله يرحمها ويغفر لها ما فعلته ويسترها علينا.

قمت وقتها وكأن الحديث لم يعجبك: «سأذهب لتحويل الماء من الترعة، تأخرت».

وانتهت قصة الخالة سميرة بأن سُجِّل في المحضر أنها ماتت بضربة شمس.

هل أخطأت سميرة يا خالتي؟ نعم أخطأت وضعفت وفعلت كبيرة من الكبائر، لا ينكر أحد، لكن هل أخطأ العمدة يا خالتي؟ ستقولين لا، رغم أن الجميع عرف فيما بعد حين عاد أسامة الحلاق أنه كان اتفاقًا بينه وبين العمدة، لأن الخالة سميرة رفضت أن تُخطئ معه، فأراد أن ينتقم لرجولته، ستقولين لا رغم أنكِ تعرفين أنه هو صاحب قانون عدم الزواج من المطلقة وقال: «لو كان فيه الخير ما كانش رماه الطير»، كأن المُطلقة شيء يرمونه ولا يصح لأحدٍ لمسه، ستقولين لا رغم أنكِ امرأة.

أما أنا، سأقول نعم أخطأ، أخطأ في حقي كامرأة حين رأني شيئًا وأنا إنسان، حين رأى أن المُطلقة مدنسة لأن رجلاً تركها وقضى منها وطرًا، رغم أن الرسول الكريم تزوج مُطلقة. حين حرَّك حلوى أمام محروم وأرسل إليها رجلًا يعدها بما ترغب حتى إذا ضعفت أقام عليها الحد بطريقة لا يرضاها الله، هذه وسيلة تعذيب، أن أمنع عنكِ الطعام حتى تتضوري جوعًا وقبل

أن تموتي أقترب منكِ بأشهى الأصناف بمقابل أن أحصل منك على شيءٍ، هل تظنين أنني أدافع عنها؟ لا والله، أنا فقط أُريكِ القصة كاملة.

الرجل أخطأ وأنتِ تعرفين لكنكِ لا تجسرين على الاعتراف.

***

- بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد..

إن هذا القرآن معجزة أنزلها الله، والمعجزة هي ما يعجز البشر عن فعله.

أشار إلى المصحف وقال: «يا بنت، هذا صاحبك إذا ضاقت بكِ الدنيا، وبر أمانك إذا فقدت بوصلتكِ اتجاهها، وبحر حسناتٍ لا آخر له إذا انزلقت قدمك في ذنبٍ ما.

مصباح في ليالٍ يبدد عتمتها، سمو الروح وسؤددها، ماحي بفضل الله خطيئتها ، راحة النفس ومؤنسها ترفق القدر بالقلب».

فتحه بيديه وقال: «هذا كتاب الله، هذا نجاتكِ».

ظل صوته وهو يقول العبارة الأخيرة يتردد في عقلي الشهور.

أكمل: «لأعلمنك اليوم سورة، هي أعظم سورة في القرآن».

انتبهتُ له فقال: «سورة الفاتحة».

حين علمني أبي الصلاة، بكل ركعة كنت أقف عند آية «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ»، وأثبتت لي الأيام بعدها أنه لولا اتكائي عليها لسقطت في الظلمات.

أكمل الشيخ درويش: «أم الكتاب السبع المثاني، الشافية، الكافية، قال عنها الرسول: «والذي نفسي بيده، ما أُنزِلَ في التوراةِ، ولا في الإنجيلِ، ولا في الزَّبورِ، ولا في الفُرقانِ مِثْلُها»».

تلاها عليَّ ثلاث مرات، وقبل أن أقف لأذهب، قال: «أعطي القرآن حقه، يُعطِكِ فوق ما ترغبين، القرآن عزيز، لا تنشغلي بما نهى عنه فيجمع نفسه من قلبك ويرحل».

رحم الله أبي جميل، كان والله لا يؤجل عملاً به راحتنا ولا يترك طريقًا لنا به نجاة إلا وأشار إليه، شاكرة له أنه أرسلني إلى الكُتَّاب.

- وهل يرضيه الطريق الذي سرتِ فيه الآن!

- الفتنة تسحب يا خالتي، ولا تعجبي أن يقع إمام مسجد في معصية ينفر منها الكافر، لا أحد كبير على الفتنة.

- قدرٌ لا نهرب منه.

- لكنكِ حاولتِ الهروب، ظننتِ أنكِ تهربين من قدرٍ ولا تدرين أنكِ تركضين إليه، تركتِه خلفك لتصرخي من الخوف حين ظهر أمامك.

كنت أعرف أنكِ لا تريدين الزواج من جمال الذي طلَّق مرتين قبلك، لكن عُمرك وقتها اجتاز السابعة عشرة، فحركتِ رأسك بالموافقة مكرهة، لأن قطر الزواج فاتك، طال انتظارك لعبد الرحمن ابن الخالة ستيرة.

- مَن قال لكِ إنني وافقت مكرهة؟ أو إنني رغبتُ في عبد الرحمن؟

- سمعتك، وكنتُ أعرف أنكِ كنتِ تذهبين إلى أخته وتودينها من أجله.

- كلام فارغ!

- قلت لكِ سمعتك، هل تنكرين أنكِ بعدما وافقتِ على جمال، وعرفتِ أن عبد الرحمن يبحث عن عروس أقسمتِ بالله إنك لن تتزوجي جمال؟ وجئتِ بأخته إلى بيتك و...

قطعتِ حديثي: «ماذا سمعتِ؟».

- سمعتها وهي تبارك لكِ، رأيتكِ ترفعين يدك بتأفف وتقولين: «على ماذا تباركين؟ أنا أتزوج جمال! هل خفَّ عقلي؟ وفرضًا وافقت، هل هذه زيجة تباركين لي عليها!»، قالت وعيناها تتسعان دهشة: «هل رفضتِ يا هدى؟ إذن لِمَ يقول أهل البلد غير ذلك؟»، قلتِ وأنتِ تبتسمين: «كنتُ قد وافقت بالأول، قلت لنفسي كبرت سنُّك يا بنت، ماذا تنتظرين؟ وماذا يعيب جمال؟ الرجل لا يُعيبه شيء، لكنني بعد تفكير قلت لهم لا، والله لا أتزوجه حتى لو قطعتموني قطعة قطعة وألقيتموني في الحفرة الكبيرة، إنني أريد رجلاً يفهم، رجلاً أحبه وأخدمه برموش عيني»، قلتِ عبارتك القديمة بنظرة لها معنى، ووضحتِ بعد تردد: «رجلاً يحبني ويدللني حتى لو انتظرت عمري كله لكي يأتي، وجمال لا يفهم، سيموِّتني قهرًا على نفسي، أريد رجلاً لطيفًا كأخيكِ عبد الرحمن مثلاً». حركت يدها على كتفك بأسى: «لا تحزني يا هدى، سيعوضك الله أفضل من جمال ألف مرة، أنتِ بنت حلال وتستحقين كل خير، ولا تهتمي بما يُقال عنك بأن العمر ركض بكِ وستعيشين بلا زواج». قلتِ لها بسرعة: «هل تظنين أنني أهتم لحديثهم؟ المهم أن يأتيني بعد انتظاري رجل يستحق هذا الانتظار». ابتسمت لكِ: «سيأتي، وعلى سيرة عبد الرحمن أخي، خطبنا له بنت عمي زينة، بنت حلال مصفي». بهُتِّ، وسمعتك بالليل تبكين، ظنوا أن بكاءك من أجل جمال الذي لا مفر من الزواج منه، وأنا كنتُ أعرف السبب، لماذا وافقتِ؟

- تقولين لماذا وافقت؟ هل تظنين أنهم كانوا يأخذون رأيي؟ جمال أول رجل يطرق بابي ولو سبقه أحدٌ كنت سأتزوج ممن يأتي أولاً، مَن سيهتم بقول فتاة ويأخذ رأيها في أمرٍ كالزواج؟ هل أقول لا أو نعم على رجل كي أُتهم بأنني بلا حياء؟ وفرضًا أخذوا رأيي، إنني فوق كوني فتاة فأنا كنتُ فتاة عانسًا.

لا تفهمين شيئًا يا بنت أختي، ظلمك إبراهيم حين زرع بعقلك أنكِ حرة وأنار عقلك كما تقولين، ماذا تعرفين عن أن تكوني امرأة عاطلة، امرأة بلا

زوج وبلا أبناء، أن يخلق الله لك عضوًا كبطنكِ ولا يُستخدم، انظري إلى بطني الممتلئ دهونًا؟ لم يكتب الله له أن ينتفخ كباقي النساء، أن يصبح دائرة كبيرة بها روح، فعاقبته بالأكل، كي ينتفخ ويكبر، كيلا أشعر بأنني أنثى مُعطَّلة، أنثى لا تعمل ولا تؤدي وظيفتها.

ماذا تعرفين عن نظرة الخلق إليكِ لأن لا أحد يطلبك للزواج، حياة النساء صعبة، أنا لستُ رجلاً لأسير في الطريق وأختار هذه وأترك تلك وهذه لا تعجبني وهذه تعجبني فأطلبها للزواج، المتاح لي أن أجلس في بيتي وأوافق على مَن يأتي أو أرفضه، وأنا لم يأتِ لطلبي أحد، لم يكن في يدي أي شيءٍ أفعله سوى الانتظار.

كنتُ أبكي كل ليلة، وأقول: «يا رب أنت رزقت الجميع، وأنا لا أريد شيئًا سوى رجلٍ يسترني وتكتب لي منه عشرة أبناء، لا أكثر ولا أقل، يا رب طلبي ليس كبيرًا ولو كان كبيرًا فهو سهل عليك، رزقت الجميع فارزقني»، كنتُ أحاول الهروب من اللقب الذي ألصقوه بي، لم تكن نظرات كانت شراشِر، لا يُحصد بها البرسيم بل تُخرِّطُ قلبي. وتريدين مني بعدما جاءني رجل أن أقول لا؟ سأقول نعم ونعم ونعم حتى وإن كنتُ لا أريد، أنا لم أُسْأل، أخبروني بزواجي بجمال، لم

يجلس جواري أحدٌ سوى أمك، وأمك لا حول ولا قوة لها مثلي، هي الوحيدة التي مسحت على شعري هذا وقالت لي: «لا تريدينه يا هدى، صحيح؟»، ووضعت هدى حذاءها في فمها ولم تنطق، لكنني بكيت في حضنها، وبكت هي الأخرى.

هل شرحت لكِ الكتب حال الإنسان حين يقبل شيئًا لأنه كان ينتظره فقط وليس لأنه يريده؟ تزوجت لأنني كنت أدعو بالزواج وليس لأنني أريد جمال.

تزوجت قبل زواج عبد الرحمن بكيتُ ذلك اليوم، بعدها بشهرٍ واحد تزوج عبد الرحمن، وبكيتُ أيضًا ذلك اليوم، لا أحسدها على ما رزقها الله،

لكن الحقد كبر داخلي تجاه كل شيء، حتى إنني سألت الله: «أهذا رزقي بعد طول انتظار!» استغفرتُ بعدها، ورضيت بحياتي.

أنا الأخت الصغرى، آخر العنقود، تزوجت أمك في الثانية عشرة من عمرها، وخالتك فتحية في السن نفسها وسافرت مع زوجها لقرية كوم بدر، وخالتك فيام قبلهما بعامٍ واحد وتعيش في المنصورة، وخالك عبد الراضي ندهته النداهة وتغرَّب للمحروسة، يطلُّ علينا حينًا وينسانا بقية العام، وأنا بقيتُ مع أمي خضرا، أكنس أمام الدار صباحًا وأرش الماء، أحلب البقرة الوحيدة التي نمتلكها، أُسخن لها اللبن على الكانون ونفطر جبنًا وعودًا أخضر، أطل في آخر البلد على القراريط الثلاثة التي نجلس عليها الآن، تعطَّف الباشا الكبير على أبي رحمه الله وتركها له ليزرعها، مساحة قليلة في آخر البلد تفضّل بها والد الباشا علينا لنبني جوارها ونزرع لنأكل، لم نبنِ عليها، كنا سنعيش بمعزل عن الناس، زرعناها أنا وأمك باذنجان وشطة وطماطم وأي عود أخضر ونعنع، نزرع ما نأكله والباقي نستبدل به شيئًا آخر نريده، وزرعناها قطنًا مرتين، الأرض هُجرت كما ترين، لم نعد نزرعها ولا يطل عليها أحد، أحيانًا آتيها لأبكي لأن لا أحد سيراني.

أول مرة رأيتُ بها عبد الرحمن كنت في العاشرة، مرَّ أمام البيت كحصان حنطور الباشا تمامًا، يرفع رأسه للسماء، منّيتُ نفسي به كثيرًا، لستُ خَجلى مما أقول، لا أحد يسمعنا ، مَلكَ عقلي، كلما جلستُ لأضفر شعري تخيلته وهو يراه، كلما جاءنا قماش جديد فكرتُ في رأيه به

مرت الأعوام ولم يأتِ لا هو ولا غيره، زهدتُ الزواج لكن كلما رأيتُ نظرات الجميع إليَّ أو سمعت همسًا كنت أجلس حتى يجنَّ الليل وأنا أبكي. القماش الذي خبأته أمي لزواجي، والذي كنت أنتظر رأي عبد الرحمن فيه خاطته دُرَّة زوجة الشيخ درويش، جاءت بعدتها قبل أن تشتري الكرخانة بخمسة أعوام، ماتت فرحتي بالقماش.

وإلى الآن لا أعرف الحكمة من تأخير زواجي وبعده زواجي من رجل لا يعرف من الزواج سوى أن ينجب أبناءً ويأكل لقمة ويرتدي ثياباً نظيفة،

ولأنني لم أُنجب له، بدأ يضربني، رغم أنه لم يُنجب في زواجه الأول ولا الثاني.

سَألتُكِ وأنا أموت حسرةً عليكِ: «ألم تُفكري أنه هو الذي لا يُنجب؟».

وضعتِ يدكِ على بطنكِ: «سأموت حسرة لو فكرت في الأمر، سأقول وقتها يا رب تمنيتُ زوجًا وأطفالاً وبعد كل هذا التأخير يأتيني رجل لا يُنجب؟ لا أنا تزوجتُ زواجًا أرضاه ولا أنا أنجبت! كأن ضياع أحلامي كلها فعله رجل واحد! لا يا آمال، أنا التي لا تُنجب».

- لا أعرف إذا كان يجب أن أكون سعيدة لأنكِ ولأول مرة تظهرين بصورتك الحقيقية، امرأة مكسورة تعترف بذلك وتمحو آثار المرأة سليطة اللسان، الناقمة على كل شيء التي تسعد بمصائب الناس من عقلي، أم أحزن لأنني كنتُ أعرف أنكِ غير ما تُبدين.

أعرف أنَّ ما سأطلبه لم يحدث بيننا ولا مرة، افتحي ذراعيك يا خالتي.

***

من أحاديث الشيخ درويش:

«إذا كان ما كُتب علينا خيرًا، فلا غريب في فعلك وقدرك،

فقد اعتدنا منك الخير.

وإذا كُتب علينا شر، فنعلم علم اليقين أن في الشر خيرًا كثيرًا،

أو درسًا نتعلمه، أو منحة لصبرٍ يُدخلنا الجنة.

هذا يقيننا بك، رضينا عمَّا كتبته علينا،

وأنت تحب العبد الراضي الصبور».

على ذكر زواجك يا خالتي، جاءت خالتي فتحية أولاً، كعادتها في كل عيد، البيت كان مملوءًا بالنساء كأنه عيد فعلاً، وجاءت الخالة دُرَّة زوجة الشيخ درويش بعدتها من أجل خياطة ملابسك، وكنتُ ألازمها وأرى ما تفعله، حين لاحظت تركيزي معها قالت لي أن أصعد إليها كل يوم بعدما أنتهي من الكُتَّاب وهي ستعلمني، وهذا ما فعلته.

كان الشيخ درويش صديق أبي، تعلما معًا في الأزهر الشريف، وكنتُ أظنُّ أن لهذا السبب يعاملني معاملة خاصة، وعرفتُ فيما بعد أنه من طلب من أبي أن يُحفظني القرآن كما فعل مع إبراهيم، لهذا لانَ رأس أبي، لم يضربني

قط ولم يرفع صوته عليَّ قط، ليس فقط لأنني فتاة وحيدة بين جمعٍ من الرجال ولا لأنني بنت صديقه، بل لأنه كان يتمنى لو كنتُ ابنته.

حتى الخالة دُرَّة حين بدأت أصعد إليها كانت تعاملني كابنتها بالضبط، تعطف عليَّ وتشتري لي أشياء أربط بها شعري، كانت تسرحه بنفسها واشترت لي زجاجة زيت له رائحة لم أشم مثلها في حياتي، قالت لي: «لا تضعي جازًا على شعرك مرة أخرى يا آمال، وأعطتني الزجاجة، وفرحت أمي بها ودعت لها، وأصبحت تضع لي كل صباح نقطة أو نقطتين، تضعه على يدها أولاً ثم تمسح به شعري.

حين جاءت بالكرخانة، أرسلت إليَّ لأراها أول واحدة، هي قالت لي ذلك، دفعت تحويشة عمرها كما قالت، كانت ماكينة صغيرة وضعتها في ركن مع الخيط، من المرات القليلة التي رأيتها فيها سعيدة إلى هذا الحد.

أمسكت يدي وسحبتني تجاه الماكينة، أشارت إلى صندوق خشبي جوارها: «انظري، وضعتُ هنا الخيوط والإبر».

ما إن فتحته حتى انتشرت منه رائحة زيت النارجيل، قالت: «زيت النارجيل يساعدها في الدوران بسرعة».

وجدتُ عند هذه المرأة خيرًا كثيرًا، لم تكن تتحدث مثلنا، حتى ملابسها كانت أجمل أي شيءٍ تلبسه تضع على أطرافه التُّل، كل مرة كانت تراني أنظر إليه تقول: «قبل فرحك يا آمال، سأصنع لك مثله بل وأجمل».

قلتِ: «مسم، كان أنفها في السماء، أنتِ لا تعرفين شيئًا، كانت تنظر إلينا وكأننا لسنا ولاد تسعة مثل بعضنا، كانت تعاملك كما تقولين لأن الله لم يرزقها أطفالاً».

- يا خالتي اتقي الله، أما زلتِ لا تتورعين ولا تخافين ذنب الغيبة!
- وهل أقول أمام أحدٍ غريب! أنا أتحدث معكِ أنتِ.

تنهدتُ: «على العموم هذه المرحلة مرت ببراءتها، وجاءت مرحلة جديدة، انتهى العالم الذي كان عبارة عن عائشة والكُتَّاب وتعلم الخياطة من الخالة دُرَّة ليتسع العالم ويُصبح أكبر ، كانت اللحظة التي تركت فيها لقمة الفطير...

المشلتت من يدي ووقفنا على نداء رجل، قالت أمي: «هذا صوت الولد محروس».

نادى الصوت مرة أخرى وهو يصفق بيديه: «يا شيخ جميل».

أشار أبي بيده إلينا لندخل: «ادخلي يا أم إبراهيم».

قبل أن أدخل أنا وهي، غمستُ اللقمة التي تركتها في طبق الجبنة القديمة ودخلت وراءها بسرعة، جلستْ على الأرض لتتهيأ للسماع، رفعت يدها كيلا أتحدث حين سمعنا صوته يقول: «يا رب يا ساتر».

لم يلتقط نفسه، قال بسرعة: «إن كان يا شيخ جميل يرضيك ما يحدث، سأضع في فمي هذه البلغة وأصمت، لكنك رجل تعرف الله ولا يرضيك الظلم، نحن غلابة وعلى باب الله، شيخ المنسر ورجاله لم يكفِهم أنهم أخذوا من عمي جاموسته، جاء اليوم ووضع يده على قطعة الأرض التي نسترزق منها ويأكل منها العيال، والله هذا لا يرضي الله وأنت تعرف الله، ذهبت إلى الشيخ درويش وقلت له هذا الكلام، أنا وكل أهالي البلد نضع أملنا عليكما، الحرامي ابن الحرامي يقول ادفع يا محروس، ادفع، ويطلب من محروس فوق ما يستطيع جمعه طوال عمره، أضع له كل ما في جيبي ويكتب عليَّ إيصالات بالباقي، تراكمت العام بعد العام، حتى انتزع مني الأرض، قل لي يا شيخ جميل هل نقتل أنفسنا ونرتاح من هذا الغم؟ والله إن لم ترجع لي أرضي سأذبح نفسي عليها وذنبي في رقبتك أنت وكل مَن يحمل كتاب الله».

جاء صوت أبي هادئًا كعادته: «تعال بس يا محروس، استهدى بالله، مدَّ يدك أولاً وكُل لقمة، اجلس لا تنشِّف رأسك، سيحلها الله من عنده».

- ولِمَ لَم يحلها حين أُخذت جاموسة عمي غصبًا، الجاموسة التي كان يأكل من خيرها، ولِمَ لَم يحلها وكل يوم يضع العمدة في بطنه أرض واحدٍ منا!

- استغفر الله يا محروس، استغفره يا بني هل ستكفر !

ارتفع صوت عم محروس باكيًا: «لن يتركنا ابن الكلب هذا إلا إذا متنا أو كفرنا، لِمَ لا يأخذه الله ويريحنا من شره».

تمتم صوت أمي: «نعوذ بك يا رب من قهر الرجال، الراجل اتجن!».

علا صوته مرة أخرى: «أحب على يدك يا شيخ جميل، وحق كتاب الله الذي تقرؤه، وحق النبي مُحمد، ألا تتركنا في شدتنا يا شيخ، إن لم يخف هؤلاء الكلاب من كلام الله، فعليه العوض ومنه العوض، عليه العوض ومنه العوض».

الليلة التي تسبق ذلك اليوم جاءت زوجة سيد البقال، تقول إنه ضربها حتى كاد يُسقط ما في بطنها، خرجت تركض منه، ومن سوء حظها رآها البيه المأمور وهو يلفُّ البلد فوق حصانه، فأخذ زوجها مربوطًا بالحبال، جاءت تبكي لأبي وتقول: «أغلق العمدة بابه في وجهي يا شيخ جميل، ولو جئت أنت سيسمع كلامك، قُل له يكلم البيه المأمور يُخرج لي الرجل، هو كان ضربني أم ضربه! رجل يضرب زوجته ويؤدبها، ما دخله هو؟ العيال ستُيتَّم يا شيخ جميل، والله سيد طيِّب، لكن حين تأتيه النوبة لا يتحكم في نفسه، الولد سليم في بطني مثل القرد، ولو شئت جعلته يتحدث أمامك.

ذهبت إلى البيه المأمور، دفعت كل ما معي لأصل إليه، وقال لي إنه أخذ سيد لأنه سرق، وإن العمدة هو مَن قدَّم فيه بلاغًا بالسرقة.

سيد يسرق! والله كُل مليم يدخله الدار من عرق جبينه، حلال في حلال، كل ما يريده لقمة يسد بها جوعه وهِدمة نظيفة، وتعريفة في جيبه، الأمر ما يسلمش، كثير؟ لا يهم هو يكتفي بمليمين أو ثلاثة، إن كانت يده طويلة، فهي طويلة عليَّ أنا والله يا شيخ جميل».

أخذها أبي وذهب إلى العمدة، وأنا أمسكتُ في طرف جلبابه، كانت تبكي طوال الطريق وتقسم إنه لم يسرق.

وجدنا العمدة يجلس في القراندة يشرب شاي، أول ما وقف ورأيتُ كرشه الكبير تذكرتُ الخالة سميرة فضغطت بيدي جلباب أبي بخوف، حين خرج

منها ليستقبلنا، سقطتْ على يده تقبلها: «والله يا حضرة العمدة سيد غلبان، ألا تعرفه؟ سيد خدامك ولحم كتافنا من خيرك، هل خيرك حرام؟ قُل للبيه المأمور يخرج لي الرجل، لقد أخذه لأنه رآه يضربني وليس لأنه سرق، إن كنت أكذب فليعلقني الله من لساني في النار، لن تراني وقتها؟ معك حق ستكون مشغولاً في الجحيم الذي ستراه، لا أقصد لا تجعل شيخ الخَفر يضربني، أقصد كيف ستراني وأنت ستكون في الجنة الخضراء؟ ولكن هل ترى هذا عدلاً؟ أن نُعذَّب في الدنيا وفي الآخرة؟ وأنتم تنعمون في الدنيا وفي الجنة؟ سأدعو الله أن يرزقك فدانًا كاملاً في الجنة، ولكن أخرجه لي، وحياة أولادك، وغلاوة سعيد ابنك الله يجعله سندًا لك، وابنتك تلك، بدر ما شاء الله، وسيد لديه عيال، أخرجه يا حضرة العمدة أسوق عليك الصالحين كلهم، يا حضرة العمدة لا تتركني وتدخل، كلمه يا شيخ جميل، يا حضرة العمدة، يا عمدة».

تركنا أبي ودخل وراءه، ووقفتُ أنا وابنه سعيد الذي خرج على صوت بكائها، أراقبها، هو يراقبني ويراقبها، وهي تبكي.

خرج أبي بعد وقت قصير، لم ينظر إليها، قال في اقتضابٍ وهو يمسك يدي لنتحرك: «صلي لله واطلبي منه يا أم سالم، إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون».

صباح اليوم التالي استيقظتُ على صوت إبراهيم وهو يقول له: «وماذا سيفعل بحقيبة العمدة التي تحمل أوراق الأراضي! هل هذا كلام يدخل العقل يابا؟».

- والله هذا ما قاله لي العمدة، قال إن سيد سرق الحقيبة ليخلِّص أهل البلد من الديون.

- قُل إن شيخ الخفَر سرقها، قُل إن العمدة سرقها لحاجة في نفسه وألبَسوها للرجل الغلبان، هكذا الكلام يكون معقولاً.

اقتربتُ وجلستُ بين يدي إبراهيم، قُلت له: « ولماذا لا نُخبر البيه المأمور بذلك؟».

قبل أن يعتدل في جلسته ليترك لي مكانًا ويستطيع ضمي بيديه جاءت أمي وسحبتني من يده وهي تضربني على يدي التي أمسكتها: «كم مرة قُلت لكِ ألا تتدخلي في حديث لا يخصك، تعالي قطفي الملوخية».

سرت معها بغيظٍ وحقد، لكنني هدأتُ حين سمعت ضحكة إبراهيم خلفي.

في اليوم نفسه جاء أبي غاضبًا، ألقى طاقيته بغضبٍ ولم يلقِ السلام كعادته، ركضت أمي خلفه وأغلقت الباب عليهما، في البداية كان حديثهما همسًا، ثم ارتفع صوته وهو يقول إن العمدة غضب حين كلمه عن محروس، وقال له أمسك العمودية مكاني بدلاً من مجيئك كل يوم والثاني هكذا، وأقسم أبي إنه لن يتدخل لأحدٍ أبدًا.

لم تكن هذه عادته، كان يساعد القريب والبعيد، حتى القطط أمام البيت كان يعطف عليها، حين جاءه محروس مرة أخرى ليسأله، قال له: «إن شئتم سألتم عن شيءٍ يخص الدين فأنا خادمكم، لكن أي شيء غير ذلك فليس شغلي».

قلتِ وأنت تبعدين الحجاب عن رأسك وتكتفين بالمنديل: «كان كريمًا والله، وكان يعز عليه أن يرد يدًا تُمد إليه، أبوكِ لم يرفع صوته عليَّ قط ولم يقابلني مرة إلا وابتسم في وجهي وسألني كيف الحال يا هدى، وهو الذي كان سيساعدني في التخلص من زواجي من جمال، لكن أمي خضرا أصرَّت، الله يرحمك يا شيخ جميل، ويجعل ما فعلته لأهل البلد حُجة لك لا عليك».

- كان سيموت بحسرته يا خالتي حين خرجنا نركض ذلك اليوم مثل كل أهل البلد، امتلأ الشارع بالصراخ من الأطفال والنساء، وحين سمعت أمي من الخالة جمالات وهي تركض مع النساء من أمام البيت أن الولد محروس ذُبح، وجدوه على الأرض التي أخذها منه العمدة مذبوحًا، لطمت أمي وصرخت مثل الجميع، رجع أبي خطوة ثم دخل إلى الدار ولم يذهب ليرى شيئًا، حاولت أمي أن تخرجه من حالته أسبوعًا كاملاً وكل مرة تقول له: «ما ذنبك أنت يا شيخ جميل، قضى الله أمرًا كان مفعولاً، يترك الطعام أو يترك جلسته ويدخل لينام، وزادت حالته سوءًا. حين انتشر حديث نائب المأمور بأن محروس هو مَن ذبح نفسه، كان شهرًا ثقيلاً مر على البلد، وبدأ الجميع يتحدث عن الخالة سميرة وقتل العمدة لها كأنهم تذكروها بعد حادثة محروس، يتحدثون بهمسٍ كيلا يسمعهم أحد، ثم ينتهي الحديث بوقوف أحدهم وهو يقول: «يعني يسمعهم أهذه أول مرة يقتل فيها؟ لا أحد يعرف من عليه الدور».

حين قُتلت الخالة سميرة لم أكن أفهم وقتها شيئًا، كانت قصة تأثرتُ بها دون أن أفهم معناها، لكن حين ذبح محروس نفسه بدأتُ أرى المكان الذي نعيش فيه بصورة مختلفة، عمدة وشيخ خَفر وشيخ حصة لا يعرفون الله، رجال دين يسير خلفهم الناس عميانًا، منهم مَن صدق وعده مع الله ومنهم مَن استغل كتاب الله وخدع الناس بالجبة والقفطان، والناس يا خالتي، أجساد تمشي بلا عقول، لديهم صوت لا يستخدمونه، ولديهم أعين يغطونها ولديهم رغبة تُقتل كل ليلة في أرض الخوف.

موت الخالة سميرة، الشبح الذي ظلَّ يلاحقني، نظرتها إلى السماء وابتسامتها الأخيرة، حلمت بها كثيرًا وفي كل مرة أرى وجهي بدلاً من وجهها. قصة امرأة عاشت وماتت، هذا لو كانت بلا تفاصيل.

والتفاصيل تقتل يا خالة، لذا نهرب منها، نحكي باختصار، نقول وُلدت ثم دفنت، لو قلنا ما حدث لها بينهما، سنفقد عقولنا.

أول مرة حلمت بها، رأيتها تُسحب بسلاسل والعجيب أنها لم تكن تصرخ، استفزني المشهد فاستيقظت وأنا أصرخ، يومها أخذني إبراهيم في حضنه وقال لهم إنني سأنام معه، ولم ننم، بكيتُ وأنا أحكي له الحلم، وهو لم يقل كلمة واحدة، ضمني لصدره ونام.

عرفتُ من يومها أن هذه القصة ستظل تركض خلفي حتى أموت.

أيقظتني أمي وهي تسمي الله وتمسح على رأسي، فتحت عيني فابتسمت وقالت: «كابوس أخذ الشر وراح، بماذا كنتِ تحلمين؟».

كنت سأجيب لكن سمعنا صوت إبراهيم يقول: «اتركيها يامَّا، قومي يا آمال شمس ربنا طلعت».

أكل لقمتين وخرج، وأمي جلست في وسط الدار تعجن، وتركتني أنظف الدار من الداخل كما علمتني.

كانت تدندن وهي تغرز يديها في العجين:

«يا بهيَّة خبِّريني عاللي قتل ياسين

قتلوه السوادنيَّة من فوق ضهر الهَجين

يا ريت الزين ما يموتشي ولا يسكن جبابين

دا الزين محَنّي كعابه من حَرِّ القايائيل».

خرجت لها حين وجدتُ صورة لشاب شاربه أسَود وكبير كأنه يخفي فيه وجهه، مقطوع إصبع الشاهد اليمنى، ركضتُ إليها وأنا أسألها عنه.

مسحت يديها بسرعة وأخذت الصورة من يدي: «أين وجدتِها؟ هذا جدُّك خليل».

سألتها: «من قطع إصبعه؟».

قالت وهي تنظر إلى الصورة في دهشة كأنها ضائعة منذ زمن بعيد: «هو قطعه، كانوا قديمًا يفعلون ذلك هروباً من التجنيد، أين وجدتها يا مزغودة؟».

سألتها: « ولماذا كانوا يهربون من التجنيد؟».

- كان ذلك في زمن ستك خضرا، أخذوا الشباب كله، الله يسامحهم.

- وهل سيأخذون إبراهيم؟

ضربت بيدها على صدرها وهي تشهق: «الله لا يجيب الشر».

ابتسمت وهي تُكمل الجملة: « ويفرحني به نور عيني، وأراه أجمل عريس، ويسعده مع صدِّيقة بنت سمية قادر يا كريم».

حركتِ رأسكِ في غضب: «منها لله، بنت ليس فيها خير».

قلتُ وأنا أدافع عنها: «صدِّيقة لم تُخطئ يا خالة».

ذلك اليوم حين عرفت معنى كلمة سيتزوج، حزنت كأنهم سيأخذون مني حبيبي، وحزنتُ لأنه لم يخبرني هو، اختاروا له عروسًا طيبة بنت حلال كما كانت تصفها أمي، وأصبحت هي حديث البيت، حتى إبراهيم نفسه لم يعد يهتم إذا كنتُ سعيدة أم حزينة، لكنني حين رأيته يرتدي جلبابًا أبيض ليذهبوا إلى بيتها ويخرج علينا كأنه ملاك نزل من سماء الله، ذاب غضبي منه وركضت عليه أضمه، نهرتني أمي لكنه أمسك بي وقال لها اتركيها، اقترب بوجهه مني وهو يقول مبتسمًا: «أعيش وأرى حبيبتي تُزف إلى بيت زوجها، وأسير أمام هودجها بجلباب جميل مثل هذا ».

فقلت له: «خذني معك يا إبراهيم الله لا يسيئك».

مسح على وجهي بيده: «ليس هذه المرة، سنوصلك إلى بيت ستك خضرا في طريقنا».

- يا إبراهيم الله يكرمك خذني.

- أشتري لك نوجة بالسوداني؟

- خذني وسأدعو لك الله أن يكرمك.

- عسلية؟

- لا، نوجة.

تمت الخطبة وحددوا الفرح بعد خمسة أشهر، وبدأ أبي في تجهيز قاعة داخل البيت لزواج إبراهيم، لم يكن يحفل أحد بي في تلك الفترة فكنت أخرج من الكُتَّاب إلى بيت عائشة دون أن يلاحظ أحد، إلا إبراهيم كلما رآني أحفظ القرآن وعدني أن يشتري لي أقمشة كثيرة.

«لو حفظتِ هذه السورة سأشتري لك عسلية»، «لو فعلتِ كذا سأكافئك بكذا»، «أتعرفين لو ختمتِ القرآن سآخذك معي إلى المحروسة وأشتري لكِ كل ما تحبين»، حبيبي لم يكن ما في جيبه له، كان حنونًا ويفعل الخير ويلقيه في البحر، الله يجازيه عني خيرًا بقدر ما أكرمني وأحبني.

***

خرجتُ ذلك اليوم من الكُتَّاب ركضًا إلى بيت عائشة كالعادة، وحين وصلت إلى بيتها عرفتُ أنها ذهبت للترحيلة مع باقي الأنفار، وأنها لن تعود إلا بعد شهر، كانت أول مرة أفارق فيها عائشة. عندما كانت تعمل في الأراضي هنا بالأجرة كنت أراها آخر النهار، وقفتُ بمنتصف الطريق حين ارتفع صدى كلمة الترحيلة في رأسي، الترحيلة التي أخبرتني عنها مرة أنهم يذبحون فيها الأطفال الصغار لأن الطاحونة لا تعمل إلا بدماء الأطفال! ركضتُ الطريق كاملاً من الخوف، استقبلني إبراهيم وكان قد عاد من عمله في اللحظة نفسها، قلت له وأنا أرتمي في حضنه وقبل أن يسألني: «عائشة راحت الترحيلة، وسيذبحونها هناك».

مسح بيده كعادته على شعري: «مَن قال لكِ هذا الكلام؟ لا يذبحون أحدًا، هي ذهبت لتعمل مع الأنفار وستعود معها رزق».

- هي قالت لي إنهم يذبحون الأطفال من أجل الطاحونة.

- لا يا حبيبتي لا تخافي.

- هل يمكن أن تأخذني إليها من غير أمي ما تعرف وأعود ومعي رزق مثلها؟

أبعدني وأمسكني من كتفي برفقٍ كي أقف أمامه: «اسمعي يا آمال، نحن ناس على قد حالنا، وكان من الممكن أن أنتسب إلى التعليم العالي وأصبح محاميًا أو محاسبًا، لكنني اكتفيتُ بالتوجيهية من أجلكِ أنتِ، كي أعمل وأساعد في هذا البيت ولا تحتاجي إلى الخروج أبدًا والعمل عند أحد، ولولا أن عملي في محل فول وفلافل في المركز كان سيتوقف إذا انتسبتُ إلى الجامعة كنتُ سأكمل تعليمي ولم أفعل من أجلك، والآن الله أعطاني ووظفني في المصنع كأنه يعوضني، لا تقولي أبدًا هذا الكلام وتغضبيني منكِ، أنا لم أستطع فعل شيء من أجل دخولك المدرسة، لكن إن شاء الرحمن من بداية العام الجديد سأسأل إذا كان ينفع دخولك متأخرة عامين أو ثلاثة، ولو وافقوا، لكِ عليَّ بعد انتهائك من التوجيهية سأُدخلك الجامعة. لا تهتمي بحديث أحد أنت ابنتي أنا يا آمال ولن أسمح لأحد أن يأخذ حقًا من حقوقك في هذه الحياة».

أنتِ ابنتي يا آمال، آه يا خالتي، بعض الكلمات كما تُحيي تقتل والله، لمعت عيني وقتها من جمال الحلم الذي وصفه في تلك الليلة أجلسني على قدمه وبدأ يشرح كيف يمكن أن يحدث الأمر، وأن السيدة المُبجلة هدى شعراوي بذلت كل جهدها من أجل المساواة في التعليم بين الرجل والمرأة، كان حبيبي يحبها ويحترمها ويريد مني أن أصبح مثلها، وتمنيتُ ذلك، لكن بعدما عرفتُ أنها كانت هانم بنت باشا، عرفتُ أنني لن أصبح مثلها أبدًا، لأنني لستُ هانم ولا أبي باشا، الحزن نفسه الذي شعرتُ به، حين قرأت سورة مريم لأول مرة وذُهلت من المعجزة التي حدثت للسيدة مريم تمنيتُ أن يحدث لي شيء مثلها، كنت أنتظر المعجزة الخاصة بي، وخَيَّل إليَّ عقلي الصغير وقتها أنه يمكن أن يرسلني الله إلى قومٍ كما فعل مع رُسله، وسأكون

أول امرأة تُبعث رسولاً، لكن أفكاري سقطت على رأسي حين عرفتُ من الشيخ درويش أن سيدنا مُحمد عليه أفضل الصلاة والسلام هو آخر الأنبياء، وأنه لا يمكن أن تُصبح المرأة رسولاً أبدًا، لكن يمكن أن تُصبح امرأة صالحة ويكون لها مكان كبير في الجنة وتكون أجمل من الحور العين.

وبسبب تأثري بقصة السيدة مريم، بعدما كبرت، كان كلما تأخر موعد العادة الشهرية، انتابني الرعب في أنه يمكنني أن أصبح حاملًا دون أن يمسني رجل، ووقتها أفكر في كيف سأواجه الناس، هل سيُنطقه الله ويبرئني؟ لا تضحكي من أفكاري، ماذا أفعل في عقلي الذي يستمر في كتابة قصص غريبة؟

كنتُ أعود لهذه السورة دائمًا.

كلما طرأ عليَّ أمرٌ لا أستطيع احتماله، فتحتُ سورة مريم وقرأت: «يا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا»، فقط لأقرأ الرد عليها: «فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي»، فأهدأ وأنتظر لطفه.

ضحكتِ بصوتٍ مرتفع: «رسول مرة واحدة!».

ابتسمتُ وأنا أقول: «تفكير طفلة لا تعرف شيئًا، لا يحاسب عليه الله».

- أفسدك الشيخ درويش والله.

- لم يفسدني، بل عرّفني على الحياة، حياة لا تشبهكم لذا أنكرتموها، حين وصلتُ إلى سورة التوبة وتأكد أنني أستطيع القراءة جيّدًا، بدأ يقرأ لي كتباً ويعطيني منها لأقرأ في البيت ويسألني عمَّا فهمته، هو من دفع بي إلى هذا العالم، لهذا - ورغم كل شيء- أنا ممتنة له.

من دونه كيف كنت سأسير مع ابن فضلان إلى بلاد الترك والروس والصقالبة، كيف كنت سأتذوق حلو الرحلة!

كيف كنتُ سأغرق في نهج البلاغة وأغلق عيني كل مساء وأنا أتذكر أقوال الإمام؟

هو لم يعطني كُتبًا، هو ترك بيدي عوالم كبيرة ودخلتها طفلةً صغيرة تائهة، حافية القدمين، ألتفت يمنة ويسرة، أنظر إلى الأعلى أحيانًا وتدهشني القصور العالية، كانوا يرتدون كما علاء الدين، نجمة سقطت في حكايات ألف ليلة وليلة، كنتُ

الوحيدة التي تسير بضفائر، كانوا ينظرون إليَّ بتوجس، أشرتُ إلى نفسي: «أنا آمال، سقطتُ إليكم من العالم الحقيقي، أنا واقعية وأنتم الوجه الآخر للمعنى».

سألني عجوز: «ما هو العالم الحقيقي؟». فأجبته: «عالم به حكايات، لكن حكايات لها أثرٌ، يعني إذا قتلتَ أحدهم سيغرق العالم بدمائه، دماء حقيقية لونها أحمر».

- ويتألم؟

- لا يهم، لأنه بالنهاية سيموت ولن يشعر بشيء فيما بعد.

- وهل تموتون! نحن هنا لا نموت، تحكينا الألسنة.

- نموت ولا يتذكرنا أحد.

- ولا أحد! ما فائدة الإنسان إذا لم يتذكره أحد؟

- أقول لك يا سيدي عالم حقيقي، معناه مؤلم، طاعن في الوضوح، لذا دائما يترك أثرا.

- الحمد لله على نعمة المجاز.

وأخرج حين تناديني أمي، تقول وهي غاضبة: «ستأكلك الكتب، ستبتلعك ولن نجدكِ حين نبحث عنكِ».

وتمنيتُ أن تأكلني الكتب ولا تترك مني إصبعًا واحدة، ما يجعلنا نتقبل الحياة هو الوقت البسيط الذي نتخيل فيه، لولا الخيال لقتلتنا الحقيقة.

بالحكايات يستطيع المرء أن يقول حين يصف الألم إن ظلامًا اقترب منه، مد يده في أحشائه وأكلها أمامه، ظل يلوكها بتلذذ ولم ينتهِ الشعور حتى أكل قلبه ومات، لكن في الحقيقة الألم لا يوصف، ستضعين يدك على صدرك وتضغطيته، لكن كيف ستصفينه؟

في الحكايات ستصفين الخيبة بركضٍ خلف زجاجات أمل فارغة، ينتهي الطريق وتموتين عطشًا، لكن في الحقيقة، نبتلعها ولا نبكي، أحيانًا تخرج كلمة: «يا ميل بختك» تعبيرًا لكنها تكون غير كافية.

لم أغضب من أمي فاطمة يومًا، حتى اليوم الذي مر فيه جماعة المدارس ليسجلوا أسماء الأطفال للانتساب إلى المدرسة، قالت إن لها ولدًا واحدًا، والفتاة ماتت، كانت تقصدني، لم أكن أفهم لأحزن، ألم أقل لكِ إن الفهم دائمًا هو سبب الحزن!

كنتُ أشعر بخيبتها كلما رأتني أقرأ شيئًا، وكانت تناديني قصدًا لأفعل أي شيء، حتى لو سأنظف الدار التي انتهيتُ من تنظيفها قبل قليل، وكنتُ أنتظرها تنام لأشعل اللمبة الجاز بوهجٍ بسيط وأقرأ.

أرادت أن تعلمني ما تعرفه، ربتني بفطرتها، ولو كانت تعرف طريقًا آخر جيدًا ما ترددت، لهذا لم أشعر قط أنها قصَّرت معي.

- كانت تُحبكما أكثر من عينيها.

قُلت وأنا أبتسم بخيبة: «لا ، كانت تُحب إبراهيم أكثر من عينيها، لهذا فقدت بصرها حين رحل».

- لا تُذكريني يا آمال، لا أريد أن أبكي.

غرستُ يدي في الأرض، تذكرتُ الطرق على الباب قبيل الفجر، طرقٌ هز الباب الخشبي وقلوبنا، فتحتُ عيني لأرى ظل أبي يرتدي جلبابه بسرعة ويركض جهة الباب، أمي خلفه تحكم حجابها وهي تقول: «خير يا رب استر»، لا شيء، جاؤوا به على خشبته، مَن كان يعمل معهم بالمصنع، قالوا

سقط، كان يقف معهم ويمزح وفجأة سقط على الأرض، ليس سببًا منطقيّاً للوفاة، لم أفهم.

وقفتُ خلف الجدار، لا يظهر مني سوى رأسي، أنظر إلى الكفن أمي الصامتة، أبي هو من انهار أولاً، كان يهمس بـ «لا حول ولا قوة إلا بالله، لله ما أعطى ولله ما أخذه». حين أفاقت من صدمتها لطمت وصرخت، ركضت تجاه الكفن وهي تقسم بأنها لن تسمح له، أما أنا فلم أتحرك، كنتُ أعرف ما يعنيه الموت، لكن الطعم مختلف تمامًا عن الوصف، انتظرتُ إبراهيم كي يأتي وأخبره عن الشعور الجديد الذي اكتشفته حين مات، لا تُصدقين؟ والله العظيم كنتُ أنتظره، حتى بعدما دُفن كنت أنتظره، ولم أفق من تفكيري إلا ثلاثة أشهر، حين رحل أبي هو الآخر حزنًا على بِكرِه، يومها عرفتُ أن لا أبي سيعود ولا إبراهيم، جنازتان خلف بعضهما لم يتركا الفرصة للجرح كي يلتئم، ظل أبي حزينًا، خاصم الشارع والمسجد والناس، حتى خاصمته بعد الحياة.

«يا ضياع عمرك يا فاطمة، فرحه بعد ثلاث ليال يا رب!»، كأن الجملة استغفار، ظلت ترددها منذ وفاة إبراهيم حتى استيقظتُ على صراخها وهي توقظ أبي ولم يستجب.

يومها بكيتُ إبراهيم، اكتشفتُ لحظتها أنه مات، حبيب عيني يا خالتي، هو مَن اختار أن يكون لي صديقًا وأبًا وحبيبًا، كان من الممكن أن يظل أخًا فقط يعطف على أخته، لكن إبراهيم أحبني بصدق، كأنني ابنته، لم يكن يقولها لفظًا، كان يقصد معناها، لذا حين مات أبي تذكرتُ أنني تيتمتُ قبله بثلاثة أشهر.

إبراهيم، رأفة الحياة بي، رضا القدر عني، موافقة الأيام على سعدي، الحب الذي كان سيُغنيني، والنجاة التي حُرمت منها فغرقت، إبراهيم قول الحنان: «اعطوا آمال مني نصيبًا».

مِتُّ حين مات!

حين أفكر بأمي التي عاشت لتلد أطفالاً لا يُكملون معها الطريق، وحين تمسَّك أحدهم بالحياة، مات قبل زفافه بثلاثة أيام، وبصدِّيقة التي عقد عليها، لم تحصل منه على شيءٍ سوى قبلة مسروقة في مدخل البيت وهو يودعها قبل خروج أهلها حين كانوا في زيارة لنا، وبأبي الذي رأى عكازه يُكسر أمامه وكأنها القشة التي كسرت ظهر رئتيه فتوقفتا عن التنفس، لا أفهم حقًّا سبب وجودهم في الحياة من البداية، لا أتدخل في مشيئة الله صدقيني، لكنني لا أجد إجابات مقنعة.

كأنني ضُربتُ على رأسي، أدورُ في البيت كالمجنونة، نارٌ داخلي لا تنطفئ، إبراهيم! نوارة البيت، لم أكن أعرف أنني أحبه هكذا إلا حين مات.

وبدلاً من أن يمتلئ البيت بالزغاريد، امتلأ ،نواحًا، لم أصرخ ولم أنادِه حتى جلستُ أراقب النسوة وهن يصرخن، حين أفقت من الصدمة بكيت حتى كدت أختفي، حبيبي عريس في الجنة إن شاء الله، لعله أكمل فرحه هناك ورُزق من الحور العين ما يغنيه عن صدِّيقة.

ظلت أمي تبكي حتى فقدت بصرها، فجأة وجدتها تحرك يدها بخوف على الأرض وكأنها تبحث عن شيءٍ ما، قبل أن أسألها وجدتها تقول بخوفٍ: «بت يا آمال انجديني»، ومن يومها لم تبكِ اللهم إلا مرة، شخصت عيناها لبعيدٍ ترى ما لا أره، أضع الطعام في فمها، وأُقرِّب القُلَّة لتشرب، أدخل معها الخلاء وأجلسها للوضوء، كل مرة كانت تُكشف أمامي تهتز شفتاها معلنة عن بكاء لكنها كانت ترفض.

بعد ثلاثة أشهر من وفاة أبي جاءتنا صدِّيقة كعادتها، لكن هذه المرة لتستأذن في زواجها من ابن خالتها، لم أنطق أنا وأمي، صرختِ أنتِ بها: «قومي يا عديمة الأصل، أنسيتِ إبراهيم! زينة شباب البلد!».

وبكت أمي، سحبت البكاء كله بصدرها ثم أفرغته دفعة واحدة.

خرجتُ من أحزاني على صوتك وأنتِ تقولين: «مسكينة فاطمة أختي، حين أفكر بحالها وحالي، أقول أحيانًا إن حالي أفضل منها، أنا حُرمت من

الأطفال وهي تذوقت وفقدت، وأن تُحرمي أفضل من تعلقك بالشيء ثم فقده، لكن أحيانًا أقول على الأقل تذوقت وسمعت كلمة: «يامًا»، وأحيانًا أقول إن ألمي لا يزداد ولا ينقص على مدار السنوات، الألم نفسه، أما ألمها هي يصل إلى آخره مع كل طفل يموت. والله لا أعرف من منَّا حالها أفضل، دنيا لا تصفو لأحد».

- الله يقسِّم الأرزاق.

- ربما لو كانت تزوجت الشيخ درويش كانت ستُحرم منهم مثلي.

قلت بسرعة وحماس: «صدمة عمري يا خالة، الشيخ درويش وأمي! لم أتخيل الأمر يومًا».

حين جاء ذلك اليوم، ركضت إليه، مسح بيده على رأسي وسألني عن حالي، كنتُ سأمسك يده وقتها وأشده شدًّا إلى الداخل لكنني خجلت، سألني إذا كانت أمي نائمة ورفض أن يدخل، جلس في مدخل الدار ينتظرها.

دخلت وخرجت بها إليه، لم يرفع عينيه.

قال حين جلسنا: «البقاء لله يا أم إبراهيم».

ضغطت يدي الممسكة بيدها وقالت بتردد: «ونعم بالله».

- كيلا أُطيل عليكِ، تعرفين أن الشيخ جميل صاحب عمري، ويشهد الله أنني كنت أرى في إبراهيم وآمال أبناء حُرمت منهم، وجئتُ اليوم أعيد طلبًا طلبته منذ سنواتٍ طويلة.

قالت بثبات: «إجابة الطلب الأول نفسها يا شيخ درويش، كنتُ زوجة الشيخ جميل، وسأموت وأنا أرملة الشيخ جميل».

احمرَّ وجهه وابتلع ريقه ثم خرج دون أن يلقي السلام.

بقيتُ في مكاني، لم أنطق، فكرتُ أنه يريد الزواج منها إكرامًا لصديقه لكن حتى لو كان هذا السبب، المفاجأة كانت شديدة، والأغرب أن ملامح أمي لم تتغير، كأنها كانت تتوقع طلبه.

- يا مخبولة! ألا تعرفين أنه كان يعشقها قبل زواجها بأبيكِ، ولولا هيبته لكان دار في البلد يشكو للناس، طلب الزواج منها ثلاث مرات لكن كان أبي -رحمه الله - وعد العم خليل جدَّك وخجل أن يعود في كلامه، لم يأتِ الشيخ درويش لعرس صديقه، قالوا إن الحمى اشتدت عليه، وظلَّ في بيته ثلاثة أشهر لا يرى الناس ولا الشمس، وتزوج بعد زواجها بخمس سنوات، يقول أهل البلد إنه لم ينجب ليس لعيبٍ فيه ولا في زوجته، ولكنه لم يقترب منها لشدة عشقه لفاطمة.

قلتُ: «ماذا تقولين يا خالتي؟ وهل هذا حديثٌ يُصدَّق! ليس الشيخ درويش بالذي يظلم».

- والله هذا ما يقولونه، ثم إنه لو كان العيب بها لماذا لم يتزوج عليها؟ إن جئتِ للحق، فأنا أعرف أنه ليس ظالمًا، ولكن هل كانت أمك ستنجب له؟ لقد جاء بعدما كبرت سنها، لم تكن ستنجب له العيال، كان سيخدمها يا آمال بعدما فقدت بصرها، جاء لتكون معه فقط.

قُلت وأنا أتمتم بخيبة: «رحلت، أراحته من ألمه واستراحت من ألمها».

***

كأنني كنتُ حجرًا صغيرًا تلعبون عليه حادي بادي، اخترتك أنتِ من بين الجميع لأعيش معكِ، تمنيتُ أن نصبح أنا وأنتِ صديقتين على الأقل، بعدما قلَّت زيارات عائشة لي بسبب معاملة جمال زوجك لها ومنعي من الذهاب إليها. عندما انتقلتُ للعيش معكِ ومع زوجكِ في بيت ستي خضرا الذي سكَن فيه معكما أول الأمر كيلا تُترك بمفردها حتى بعدما انتهت حجته بموتها، قُلت إن معاملتك ستختلف، لا أقصد شيئًا والله لكنني فكرتُ أنكِ لم تُرزقي بأبناء وستعتبرينني ابنة لكِ.

حين دخلت البيت وأنا أحمل ثيابي تبددت الأحلام في قربي منكِ حتى، وبعد جفاء معاملة اليوم الأول أيقنت أن الله خلقني في هذه الدنيا وحيدة وسأعيش وحيدة، خفت أن أكون مثل أبي ذر، أموت وحيدة أيضًا.

لكي أنام كل ليلة كنت أتخيل أمي تصنع لي ضفائري كعادتها وهي تحفظني الشهور القبطية.

طوبة تخلي الصبية كركوبة.

كيهك، شيل إيدك من غداك وحطها في عشاك.

أبيب، فيه العنب يطيب.

هاتور، أبو الدهب منثور.

بابه، ادخل وأقفل الدرابة.

أمشير، أبو الزعابيب.

بؤونة، نقل وتخزين المونة.

برمهات، روح الغيط وهات.

برمودة، دق العمودة.

مسرى، تجري فيه كل ترعة عسرة.

بشنس، يكنس الغيط كنس.

توت، يقول للحر موت.

ولم أكن أنام يا خالة، حتى النوم كان يرى نفسه كثيرًا عليَّ.

قُلتِ وأنت تنظرين إلى الأسفل في خجل: «خفت أن أحبك يا آمال، امرأة عاقر مثلما تقولين، فجأة يصبح لها ابنة في طولها، صدمة كبيرة، لكن يشهد الله أنني كنت أخاف عليكِ من الهواء الطائر ولو كنتِ طلبتِ عينًا لي لم أكن سأتأخر. أظن أن قلبي تعطل عن الحب، لا يعرف كيف تكون الأم

وكيف تتصرف، وكنت أدعو الله ألا أتعلق بكِ، كنت في النهاية ستتزوجين وتبتعدين عني، وكان قلبي وقتها سيتألم، فرحمته من البداية».

فتحتِ الجلباب الذي لففتِ فيه الطعام وقلتِ: «كلي يا آمال، أنتِ تتحدثين من صباح الله، كلي جبنًا لأجل الطفل الذي في بطنك».

ابتسمت وأنا أقول: «جبنًا؟ أتذكرين بعد شهر من وجودي معكم، ماذا حدث لي بسبب قطعة جبنٍ!».

يوم أن كنا نأكل أنا وأنتِ وجمال، زوجك الذي لا يعرف كيف يأكل الإنسان الطبيعي ضغط بقطعة كبيرة من الخبز قالبَ الجبن حتى هرسه، أخذ منها بأصابعه كلها ثم ألقاها في فَمه، نظرتُ إلى فمه الكبير الذي استوعب أقل من ربع رغيف في قضمة واحدة، أخذ يلوكه ويصدر صوتًا، يخرج الصوت من فمه وقبل أن يدخل إلى أذني يتضخّم، صوتٌ مقزز على وتيرة واحدة، كأنه مطرقة تسقط تباعًا على رأسي، تمنيت أن يتوقف، الصوت أصبح مؤلمًا بطريقة ما، بدأت قدمي في الاهتزاز كي أشتت انتباهي عنه، لكن حين تطايرت من فمه بقايا طعام صرخت بلا قصدٍ مني كي يتوقف وكي ينتهي الصوت: «عم الشيخ درويش يقول إن الأكل بهذه الطريقة حرام، وإن الإسلام لم ينسَ أن يُعلمنا كيف نأكل، مثل أن نسمي الله ونأكل من أمامنا ولا نقاطع يد أحد، وقال عم الشيخ درويش إنه يُكره الإتيان بحركات مُنفرة للمشاركين، ويقول إن الرسول كان...».

صرخت وزحفتُ بجسدي للوراء حين سقطت يده على رأسي، كنتُ أتحدث بتركيزٍ شديد وأقلّد الشيخ درويش في حديثهِ ولم ألحظ بده وهي تتكور وتسقط على رأسي حتى شعرتُ أن أمعائي تحركت كما تُرج زجاجة بها ماء بقوة.

هذا أول عقاب أخذته نتيجة المعرفة، فيما قبل كنتُ أسمع هذه الأصوات ولا أنكرها، كأنني وجدتُ سببًا أنكرها لأجله، سببًا أستطيع الاحتماء به وهو أنها مكروهة بدافع الإسلام، لو لم أعرف كنتُ سأظل

عمري كله أسمعها ولا أمانع لأنني كنتُ سأراها فعلاً عادياً، ووقتها كنتُ سأتفادى الضربة على رأسي.

- كان يضربني أنا أيضًا يا آمال.

- أعرف، ولا ألومك صدقيني، الحديث يجذب بعضه.

- الله يسامحه لم يسلم أحد من شرّه.

- حتى الشيء الوحيد الذي كنتُ أتنفس من خلاله حرمني منه، يوم أن ختمتُ القرآن الكريم، كانت معاملة الشيخ درويش أصبحت أرق، هده التعب، الشيخ الذي كنتُ أسمع صوت عصاه من بداية الشارع الذي يوصل إلى بيته أصبحنا بالكاد نسمع صوته، ولم أهتم بحديث أهل البلد أنه مرض بعد موت فاطمة، لأن فاطمة التي يتحدثون عنها أمي ويجب ألا أهتم.

جلستُ أمامه ذلك اليوم أُسمِّع عليه من بداية سورة الأعراف إلى سورة البقرة، وكنتُ الأسبوع الذي يسبقه راجعت من الأعراف إلى جزء عم، بدأنا من السابعة صباحًا وانتهيت عند أذان الظهر، اختنق صوتي حين وصلتُ إلى خواتيم سورة البقرة: «آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ»، رفعتُ بصري فكأني رأيتُ إبراهيم يجلس وينظر إليَّ مبتسمًا، وكأنني سمعتُه يقول: «هانت، الآن تصلين إلى مُنقذكِ من الحياة، الآن تُمسكين سلاحكِ يا حبيبتي»، كدتُ أتوقف عن التسميع وأقول له وأنت أيضًا حبيبي، لكن الدموع خنقتني فرددت: «أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا»، ثلاث مرات بصوتٍ مبحوح، قبل أن أختم الآية والسورة والقرآن كاملاً وأصمت.

أنت مولانا فانصرنا.

أنت مولانا.

أنت مولانا.

بكيتُ كأنني استقبلتُ عزيزًا غاب طويلاً، هذا البكاء الذي لم أتذوقه مرة أخرى، كبر قلبي داخلي، نظرتُ إلى الشيخ درويش فوجدته يبتسم ويقول لي: «ولا خوف اليوم على آمال».

وكانت المرة الأولى التي ينطق فيها اسمي، صدقتُ أنني كبرتُ حقًّا، لأنني لم أعد «البنت»، بل أصبحتُ «آمال»، آمال فقط، وهذا كافٍ ليُشعرني أنني

كبرتُ أو تحررت أو أصبحتُ فردًا جديدًا في هذا العالم الواسع، الذي كان يراني فيما مضى بنتًا عادية، الآن يذكر اسمي كأنه كافٍ لتعريفي.

انتشر خبر ختمي القرآن قبل أن أضع قدمي خارج بيت الشيخ، كان

الأولاد سبقوني إلى الخارج وأجلسني هو معه يحدثني عن قيمة ما حفظت، النساء اللاتي كُنَّ يلوين الشفاه حين يرينني كل صباح أذهب إلى الكتَّاب، كان استقبالًا مختلفًا، حتى إن ثلاثاً منهن ضممنني، منهن الخالة سُميّة أم صدّيقة، وقالت لي: «سبحان الله يقطع من هنا ويوصل من هناء».

ركضتُ إليكِ أخبرك وقبل أن تقولي كلمة واحدة، قال زوجك إنني ما دمت

قد انتهيتُ من الحفظ فلن أذهب هناك مرة أخرى وإنني لم أعد صغيرة لتلك الأمور، كنتُ قد أكملتُ العاشرة وقتها، قال إنه لن يدفع قرشًا للشيخ درويش، رغم أن الشيخ درويش لم يكن يأخذ مني مالاً، سحب روحي حين ضربني ومنعني من الكُتّاب، كان الشيء الوحيد الذي أحتمل الحياة لأجله.

- كنتِ قد كبرتِ يا آمال وأصبح جسدك مثل العروس تمامًا، لا تزعلي مني، لكن جمال كان لديه حق.

قُلتُ بحدّة: «لديه حق! والله لولا أن الشيخ درويش كان يأتي لزيارتي حاملاً معه كتبًا ويقول بصوتٍ عالٍ أمامه إنه سيأتي لأخذها كيلا يفكر جمال

في تمزيقها، كنتُ سأموت حزنًا. زوجك كان سيرميني ويزوجني من أي رجل لولا أنكِ كذبتِ عليه بأنني لم أبلغ بعد، رغم أنني كنت قد أصبحتُ امرأة وأنا في العاشرة، كان يراني صفقة، من يدفع أكثر سيرميني له، وأنا كنتُ موضع عين، ليس لأن جسمي كان ممتلئًا وقتها وليس لأنني أشبه أمي الجميلة، لكن مَن الرجل الذي يرى امرأة أنفها في السماء ولا تناديه رجولته لكسره، امرأة تعرف كيف تقرأ وتكتب كأنها وصمة عار. خمسة أعوام عشتها في ذل معه، أقرأ في الخفاء وأحفظ كتاب الله في الخفاء، حتى الطعام في الخفاء».

نقمتُ على حياتي وقتها، لم أفهم لِمَ جئتُ إلى الدنيا إذا كان أهلي جميعهم سيرحلون، لمن جئتُ ولِمَ جئت، حاشا لله أن نسأل، كل شيءٍ عنده بمقدار، وأنا خُلقت امرأة وكان يجب أن أُزهر في المكان الذي أُوضع فيه، هذا حالنا

كنساء، أينما كنتِ سيعترف المكان أنه يحمل وردة، خلقنا الله بجمال مختلف عن الرجال وبقوة مختلفة، سبحان من وزَّع القوة بيننا وبينهم، هم يحتملون مشاق الحياة الملموسة ونحن نحتمل المشاق الأخرى، نتأقلم أسرع ونُجمِّل ونحبب، نمنح بكل ما فينا، ونحب بالقلب كاملاً، هم ليس لديهم القدرة على

فعل ذلك، كلٌّ منا قوي بطريقة تناسب طبيعته.

سألتِ بسرعة كأنكِ لا تهتمين لهذا الحديث وتريدين معرفة شيء آخر: «لماذا رفضتِ الزواج من سعيد ابن العمدة؟».

وضعتُ يدي على بطني حين شعرتُ بألم وقُلت: «الأيام أجابتك، الآن أصبح هو العمدة، ولا يختلف شيئًا عن أبيه غير أنه يُساق ممن حوله، لكن لم يكن هذا السبب، الخالة سميرة نقطة سوداء في حياتي، إلى الآن أحلم بها، ولم أكن أستطيع العيش مع قاتلها في بيتٍ واحد، بيتٍ يتغذى على لحمنا، كنتُ سأموت قهرًا حين أعطى جمال للعمدة كلمة، يومها ركضت

إلى بيت الشيخ درويش لينصفني وأنا أعرف لو أن جمال عرف بخروجي سيذبحني، لكن قُلت ضربة والسلام، كنتُ كالغريق الذي يحاول أن يسرق أي هواء يدخل رئتيه تمسكًا بالحياة. صدقيني الحياة لا تستحق محاربتي تلك، لكن موتًا عن موت يفرق، ولو خيروني بين جمال ونقص دينه وبين بيت العمدة وانعدام دينه كنت سأختار جمال دون تفكير».

جاء معي الشيخ درويش وأدخلني أمام جمال الذي كان سيأكلني بعينيه من كثرة الغضب، سمعت الشيخ يهدده: «آمال مسؤولة مني أنا، أوصاني عليها أبوها الله يرحمه، أنا وكيلها في الزواج لأنني بمقام أبيها».

لم أرَ جمال لكنني أعرف أنه مسح على ذقنه بـيده وهو يقول: «أنا أعطيت كلمة للعمدة».

- زواجها منه بغير رغبتها باطل، وستحمل ذنب بقائها مع رجل غريب في غرفة واحدة.

- من قال إنه بغير رغبتها، سأجعله برغبتها.

ألصقتُ أذني بالباب الأسمع رد الشيخ درويش لكنني سمعتُ حركة وصوت غلق الباب الخشبي، تركه وخرج، بعدها سمعت طرق جمال على الباب الذي أقف خلفه: «اسمعي يا بنت ال... ولا بلاش أبوكِ كان رجلاً محترمًا، والله لو خطت قدمك خارج هذا البيت مرة أخرى سأقطعها لكِ، ليس عندي بنات تخرج على حَلِّ شعرها، وزواجك من سعيد إن لم يكن اليوم سيكون غًا، حتى الشيخ درويش نفسه لن يستطيع الوقوف أمام العمدة، ضعي عقلكِ في

رأسكِ ولا تجلبي لنا ولنفسك الفضائح».

حمدت الله أنه ليس لديه أطفال، الحرمان نعمة كبيرة للبشرية صدقيني، تخيلي أن يكون له أطفال يربيهم بطريقته البوهيمية ويصبحون مثله، يا الله، هل العالم ينقصه ثيران أخرى! أو يصبحون مثلي ويأكلهم، يبلعهم

ويهضمهم وفي كل مرحلة يبكون، وحين يشعر بملوحة حلقه من البكاء سيغرقهم بشرب الماء.

وضعتُ يدي على الجدار المصنوع من الطين، حركتها على خشونته، بكيتُ، وكانت المرة الأولى التي أبكي منذ دخلت بيتك، خمس سنوات أبتلع الضرب والألم والسخرية بابتسامة ثابتة لا تتغير. أنا تذوقتُ الألم مبكرًا، فقدتُ العالم كله في سنٍّ من المفترض أن أعرف فيها ما معنى أن أمتلك، وحين عرفتُ المعنى فقدت، هل سيُبكيني ضرب جمال! جذبه الشعري! سقوط يده التي تُشبه المقطف في ثقله على وجهي! لا والله، ما الذي سيوجع أكثر

من فقد إبراهيم؟ هذا القلب تعوَّد.

بكائي يومها كان حزنًا عليَّ وعلى الحياة التي كانت تنتظرني.

إذا كان الشيخ درويش لا يستطيع الوقوف أمام العمدة، فربُّ العمدة موجود، صليت ودعوته بكل خليَّة أن ينجيني أو يأخذني إلى حبيبي إبراهيم يمسح على شعري ويقول لي برفقٍ: «أنتِ ابنتي يا آمال»، لو يعرف ماذا فعلت الحياة بابنته لأكلها بأسنانه.

واربتُ الشباك ونظرتُ إلى السماء، شعرتُ أن الله ينظر إليَّ وارتعش جسدي من تخيل الفكرة، كنتُ أعرف وقتها أن الله عظيم وكبير وأعرف أننا خَلقه، فانتابني اليأس لحظتها، إذ فكرتُ في الشيء الذي سيجعل ربًّا عظيمًا لا حاجة له عند عباده يسمع صوتاً ضعيفًا مثل صوتي، ولِمَ سيختارني أنا تحديدًا من بين أهل البلد كلهم ليستجيب دعوتي التي لن تنفع أحدًا غيري، كدتُ أغلقُ الشباك لكن تذكرت ما قاله الشيخ درويش عنه، قال لي: «الله يُحب أن يُسأل»، وقال إن رسولنا أخبرنا:« الله يغضب على مَن لا يسأله». فابتسمتُ و امتلاتُ طاقة وتحدثتُ بصوتٍ:

يا الله إذا كنتَ تُحب أن تُسأل فأنا أفعل ما تحبه وأسألك، وإذا كان يُغضبك ألا أسأل فأنا أتجنب غضبك بالسؤال، سأكذبُ وأقول إنني لستُ

حزينة لأنك خلقتني ولم تترك لي أحدًا هنا، وأنت تعرف أنني أكذب لكنني لا أريد أن أغضبك.

يا رب أنت تعرف أن العمدة ضرب الخالة سميرة حتى ماتت، يعني لو تزوجتُ ابنه وأخطأتُ سيضربني مثلها حتى أموت، وأنا لا أريدُ أن أموت بهذه الطريقة، أطلب منك أن تأخذني وقتها إليك بلا ألم، وتكون الأبواب مفتوحة أمامي وقتها لدرجة أنني أترك هذه الدنيا مبتسمة وسعيدة بمكاني الآخر. كيف حال إبراهيم يا رب؟ هل ما زال شابّاً جميلاً بحاجبين كثيفين؟ المهم يا رب أرجوك ألَّا تجعلني أتزوج سعيد، إلا إذا كنتَ تريد أن تراني وأنا أُضرب أمام الناس حتى الموت.

هل رزقت إبراهيم امرأة أجمل من صدِّيقه؟ارزقه واحدة أجمل منها، لأن إبراهيم قلبه جميل ويستحق أن يفرح.

هل سمعتَ طلبي؟ لا تزوجني سعيد، أنت أقوى من العمدة، أو خذ العمدة وخذ سعيد لو كان سيصبح مثل أبيه وأرحهما من الدنيا وأرحنا منهما.

لن أنسى تلك الليلة أبدًا، لأن قلبي كان مرتاحًا لأول مرة منذ زمن بعيد، كم هي مريحة فكرة أن يكون للإنسان رب يلجأ إليه حين تضيق عليه الدنيا!

إلى مَن يلجأ الملحد حين تضيق به الأرض بما رحبت؟ لمن يبكي ويشتكي ويطلب ممن تغيير حاله؟ الحياة صعبة فوق تصور أي إنسان وما يجعلنا نتقبلها ولو قليلاً أن خالقها موجود وقادر على كفِّ أذاها عنَّا.

قصتي مع الدعاء بدأت حين حكى لنا الشيخ درويش قصة دينية، فتعلمتُ وقتها منه أنَّ الدعوة الواحدة يُمكن أن توقف سير الكواكب.

لم تُقبل مني أي دعوة بأي صيغة، حتى إنني إذا دعوت بشيء حدث عكسه، فبقيتُ فترة أدعو بعكس ما أريد لعل ما أريده يتحقق.

معادلة غريبة لم أفهمها، ولم تتحقق النتائج معي يومًا.

نضجَ عقلي قليلاً، وكبرت أمنياتي لدرجة جعلتني حزينة لعدم تحققها، وقتها فقدت الثقة بالدعاء، وأدركت أن الله يستجيب لفئة معينة، ما جعلني أتوقف عن الدعاء وقتها هو أنني منذ تعلمت الصلاة وأنا صغيرة لم أقطعها قط، ولم أتوقف عنها قط، فلم أجد سببًا منطقيًّا لرفض الله لي طلبًا.

الآن بعدما أوقعتني الحياة في آلاف المواقف، وتمنيتُ آلاف الأحلام، فقدت الكثير، وامتلكتُ الكثير ، لكنني لم أمتلك أثمن من الرضا، وأرجو ألا تخذلني نفسي يومًا بفقده، أرجو ألا تلين قدماي وتُغرزان في رمل اليأس من رحمته.

لم يكن ينقصني اليقين، كان ينقصني الإدراك.

أدركتُ أن خزائن الله الواسعة لن تنقص مقدار حبة خردل إذا أعطاني، وأن المنع في أوقاتٍ كثيرة استجابة، وأنَّ منعه أمرًا بكيتُ أمامه ليتحقق، رحمة بقلبي.

سبحانك اللهم يا مُجيب الأمنيات، ويا محقق الرغبات، ويا مانع النكبات، آمنت أن لا خير إلا فيما اخترته لي، ولا نجاة إلا في الطريق الذي سيَّرتني فيه، ولا سعادة إلا فيما أعطيتني إياه.

استيقظت اليوم بعده على صوتك وأنتِ تنادين اسمي في فرحة وخوف، شعرت بيدك تهز كتفي.

- قومي يا آمال، قومي واسمعي ماذا يقول الشيخ درويش.

فتحت عيني وجلست وأنا أحاول أن أفيق لأفهم.

- صحيتِ؟ آمال سمعاني؟ الشيخ درويش يقول إن الباشا يريدك لابنه، سمعاني يا بت ولا عقلك نائم؟

رددت الكلمة دون فهم:و«الباشا؟».

- البيه الكبير، الشيخ درويش مع عمك جمال في المندرة، تعالي اسمعي منه، لكن أين رآكِ؟

وضعتُ شالاً أسود على شعري وخرجت خلفها، كان الشيخ درويش يجلس بانتصار وجمال لم يبدُ عليه الحزن، لأن الصفقة أكبر.

حين رآني مد يده لي لأجلس بجانبه: «تعالي يا آمال».

جلستُ وأنا أنظر إلى الشيخ درويش، كانت عيناه ممتلئتين بالحب، ابتسم وهو يحرك سبحته بين أصابعه: «اسمعي يا آمال، الباشا رجل طيب، وابنه صادق مثله تمامًا، رجل تربى في بيت محترم، وهو في كلية الحقوق، سيصونك ويحفظك، هل ترضينه زوجًا يا ابنتي؟».

صاح جمال وهو ينظر إليَّ:و«تعترض على ماذا؟ والله لو رفضت سأكسر رأسها! وهل نطول!».

لم يهتم به الشيخ درويش وأعاد سؤاله: «الرجل على ضمانتي، والحياة كريمة وكنت أتمنى لكِ مثلها، الشاب مقبول شكلاً، جميل الخُلق وطلته تشرح القلب، هل ترضينه يا آمال، لا تهتمي بأحد وقولي ما بداخلك».

لم أتحدث، كنتُ أحاول استيعاب كلامه.

أشار إليكما لأبقى معه بمفردنا، قال بصوتٍ منخفض:

- السيدة خديجة حين رغبت بالزواج من حبيبنا، أرسلت وسيطًا له تحدثه عنها دون إخباره أنها مَن أرسلتها، وهذا حلال في ديننا، ويحافظ على حياء المرأة.

هذا ما فعلته، قُلت للباشا إن لي ابنة أجمل من القمر، أخلاقها صنع يدي، ودينها استخدمني الله في وضع أساسه، ولا أعزها على ابنه إن كان يريد أن يفوز بزوجة صالحة في الدنيا، وطريق إلى جنة الله في الآخرة.

كرامتك محفوظة يا آمال، وحياؤك لم يُمس.

سيرسل زوجة البواب لرؤيتكِ لأن ابنته في آخر شهر في حملها وتعيش في المحروسة لن تستطيع المجيء، تحدثي يا آمال وقولي ما تحبين، هل فعلت الصواب؟

ركضت دموعي على وجهي: «حلفتك بالله يا شيخ درويش ألا تموت، والله لو مت الآن سأقتل نفسي بعدك، لم يبقَ لي أحد غيرك هنا ولن ينصفني غيرك.

ابتسم: «ارضي عن أقدار الله يا آمال، قولي الحمد لله دائمًا، ارضي عن قدره ليرضى عنكِ».

- أحمده لكنني لا أفهم الحكمة.

- وهذه هي العبادة، أن تحمدي دون معرفة الحكمة، لأنكِ تثقين أنها خير، كيف نعبده ولا نثق به؟

ابتلعت ريقي: «لو رحلت وتركتني سيتحول الاختبار إلى كابوس لن ينتهي إلا بالاستيقاظ أو الموت».

ابتسم وهو يقترب بوجهه: «قولي، هل ترضينه زوجًا؟».

مَن أنا لأرفض فرصة للحياة؟ نجاة من الغرق؟

هل يرفض المرء منَّا فرصته الوحيدة ليتنفس!

كانت من المرات التي شعرتُ فيها أن الشيخ درويش كان يتمنى لو أنني ابنته، ليس لأنني ابنة فاطمة، بل لأنني آمال فقط.

***

أخرجتُ الورق والقلم الذي كنت أستخدمه للكتَّاب، كنتُ في قرارة نفسي أعرف أن القدر منحني شيئًا لا يُمنح لغيري، وأن الله نظر إليَّ نظرة رضا، كلما تخيلتُ أنني سأنتقل من هذا البيتِ إلى بيت الباشا مرة واحدة،

وسأكون حرم الأستاذ المبجل صادق الذي تتغنى به فتيات فَبلدة، أشعر بشادوف يروي قلبي ويُغرقني.

حتى عائشة حين عرفت بالخبر جاءت إليَّ راكضة غير آبهة بطفليها: «أمك دعت لك قبل ما تموت يا بت يا آمال»، قالتها وهي تضحك، سألتها إذا كانت تعرفه.

- أعرفه؟ إلا أعرفه، رجل طول بعرض، يهبل يا آمال والله، يكفي أنه ابن الرجل المحترم الذي غرَّق خيره أكتافنا، أكيد مثل أبيه، رأيته ثلاث

مرات، ولولا العيب كنت تغزلت به.

وضعت يدها على قلبها وهي تتنهد بارتياح: «لكن والله تستحقين كل الخير، رأيتِ كثيرًا في حياتك وجاء الوقت الذي ستنام فيه عينك مرتاحة، الله يريح قلبك وبالك يا آمال يا حبيبتي».

طيرت عقلي المخبولة بكلمتين ،قالتهما، حاولت التخلص من الابتسامة التي سكنت وجهي منذ قال الشيخ درويش الخبر ولم أستطع، ثلاثة أيام مبتسمة كأن وجهي مرسوم ولا مجال لتغييره.

وشق الفرح قلبي ليلقي بذور السعادة ويرويها بضحكتين أو أكثر حين عرفتُ أن العمدة لم ينطق، هل سيقف أمام قرار الباشا؟ سيبدو مثل نملة.

كتبتُ له ويدي ترتعش:

«يسعد صباحك أو مساءك يا حضرة الأفندي، وضع الله في وجهك القبول وفي طريقك حلاوة الوصول وزيَّن حياتك بالصحة والعافية.

أما بعد ..

اسمي آمال، أو البت آمال، أو البنت، سأقول لك قصة كل اسمٍ ثم ولا لك عليَّ حلفان لن يكون لي اسم إلا ما تختاره أنت.

لا تؤاخذ خطي المهزوز، فلقد توقعتُ أن حياتي ستسير على هذا النهج للنهاية وتأقلمتُ على ذلك، وحين قالوا لي إن سعيد بن العمدة يريد الزواج بي، قُلتُ إن الطين زاد بلّة وإن هذا قدري ولن أستطيع الهرب منه، لكن فجأة أخبرني الشيخ درويش أن الباشا والد سي الأفندي صادق يُريدني لابنه، صرختُ ووضعتُ يدي على فمي، شتمتني خالتي وقالت عني عديمة أدب، ونظر إليَّ جمال زوجها كالبهيمة الهائجة وما أنقذني منهما إلا الشيخ درويش.

لستُ عديمة أدب والله لكن انعطاف المركب فجأة أفقدني صوابي، الباشا الشخص الوحيد الذي لا يستطيع العمدة ولا شيخ الحصة ولا رجالهم أن يقفوا أمامه وأنا - ليسامحني الله على سوء ظني- قلت إن حظي هباب ولن يُخلّصني من يد العمدة وابنه إلا الموت، أرأيت كيف أن الله رحيم بي! لكن لا تخف، أعرف أنك تقول في عقل بالك إنه ابتلاك لأنك تستحق زينة مثلك، اطمئن وضع في بطنك بطيخة صيفي، أجيد غسل الثياب وتنظيف الدار وإشعال اللمبة الجاز وعمل الشاي وسأملأ صدرك حكايات لا تنتهي، أتعرف كتاب ألف ليلة وليلة؟ أعطاني إياه الشيخ درويش الله يبارك في عمره، سأحكيه كُلَّه لك.

لا تقل عني إنني عديمة حياء لأنني أحدِّثك هكذا بلا خجلٍ يا سي صادق، والله إن قلبي انتفخ منذ عرفتُ بالخبر كأنه أكل وشبع.

يا سي صادق إنني فتاة لا حول لها ولا قوة، ليس لها أحد في الدنيا غير الكريم الذي لا ينسى عباده والشيخ درويش وخالتي، وإن أتمَّ الله عليَّ الأمر وجعلك من نصيبي وكتب عليكَ أن تكون لي أهل سيكون القدر قد أنعم عليَّ وأكرمني فوق ما أستحق.

نسيتُ أن أقول إنني لستُ جيدة في صنع الطعام، لقد اختار الله أمي قبل أن تعلمني أشياء كثيرة، وخالتي الله يسامحها طعامها لا

يؤكل، لكنني في المقابل سأنظِّف قلبك من كل ما يُعكِّره، أكنسه وأغسله بالصابون الذي يأتي به الشيخ درويش من المحروسة، له رائحة جميلة، ولو شعرتَ يومًا بالبرد سأصنع الشاي داخله.

ختامًا، الله لا يسيئك في أحبابك ولا ترى في حياتك ما يُكدِّرها أبدًا، فوتَّك بعافية».

طبقتُ الورقة جيدًا ووضعتها بين ثيابي، لم أفكر قط أن أعطيها له، لكنني انتشيتُ من فكرة أنني أحدثه ولو على ورق، عدت بظهري للوراء وأنا أفكر كيف يبدو شكله.

عدتِ بظهركِ تستندين إلى ذراعك اليمنى وتسألين بنظرة لها معنى: «لم تكوني تعرفين شكله؟».

- أين سأراه يا خالة إذا كنت لا أخرج؟ المرة الوحيدة التي رأيته فيها كان من خلف البوابة الكبيرة لبيته، كنت صغيرة، رأيته من ظهره يركض خلف فتاة أكبر منه.

- أكيد حكمت هانم أخته.

- عائشة قالت إنها أخته، وكل ما سرق انتباهي وقتها، تفاوت الدنيا، بيته وبيتنا، لم أرَ بيته أجمل، لكنني كنتُ أظن أن الجميع بيوتهم من

الداخل مثل بيتنا، ويضعون على السطح بيت الطيور ويصنعون الفرن في مدخل الدار.

ضحكتِ: «والله يا آمال يا بنت أختي أنتِ نكتة».

- أقول لكِ الحقيقة والله، لم أرَ وجهه إلا وهو في بيتنا، رأيته من الشرخ في باب الغرفة الخشبي، يجلس أمام الشيخ درويش لكتابة عقد الزواج، وحين وقعت عيني عليه سقطت السماء على رأسي، خجلتُ فجأة رغم أنني لم أشعر بالخجل منذ عرفت، لكن عقلي أوصلني إلى أماكن بعيدة، مثل أن هذا الرجل الذي سأكون في بيته بعد يومين أو ثلاثة.

أمسكت يد عائشة وأنا أهمس: «الحقيني يا عائشة، سأقع من طولي».

ضحكت وهي تسندني.

أول شيء وقعت عيني عليه فيه، كان شعره، كان جميلاً كله والله، ووددت أن أترك كل شيء وأصلي ركعتين شكرًا لله الذي أكرمني. لم أشعر إلا وصوت الزغاريد يرتفع وجسدي ينتقل من امرأة إلى امرأة تُقبِّل وجهي.

كنت أرى أيام سعدي وهي تفتح لي الباب وتقول تعالي يا آمال، وأنا لم أكذب الخبر، ركضت إليها، رفعت العباءة قليلاً وألقيتُ طرف الحجاب على ظهري وفتحتُ عيني لأرى الدنيا، سامحت الحياة وقتها، وغفرت لها ما مضى.

كان ينقصني فقط شيء، شيء لن يأتي، شعور رحل.

إبراهيم.. الوجه الذي لا يغيب، كان بعيدًا جدًّا وقريبًا جدًّا، الشعور نفسه حين تظنين أن السماء تتدلى لكن حين تقترب يدك، تلمس ضبابًا.

أحسستُ به، والتفتُّ حولي تاركة النسوة يرقصن، شممتُ رائحته، ولا أعرف كيف لكنني لمحتُ جسدًا يلتصق فيه جلبابه من العرق، وهذه رائحة عرق إبراهيم، أجهل الدنيا كلها ولا أُخطئُ فيها.

لكن تحول شعوري إلى شعورٍ آخر حين همست عائشة في أذني أن النسوة سيخرجن ويدخل العريس ليراني لأول مرة ونتحدث.

نارٌ خرجت من وجهي، أمسكتُ يدها وأنا أترجاها: «لا تتركيني يا عائشة».

ضحكت بصوتٍ عالٍ: «وماذا سيكون دوري بينكما إن شاء الله؟ أنقل الحديث؟ اتركي يدي بلا دلع».

ولم يكن دلعًا كما تقول، كان خوفًا، لكن أردته أن يأتي لأتأكد مما حدث، لأتأكد أنني امرأة متزوجة، امرأة كبيرة لها حظ كبير مثلها. أرأيتِ كيف تنعكس الأمور، لا تستغرق سوى لحظة.

سألتِ: «هل كنتِ سعيدة لأنكِ ستتركين بيتنا وتنتقلين إلى بيت الباشا؟ من بيتٍ من طين إلى بيت بحديقة كبيرة؟».

- والله أبدًا يا خالتي، لم يكن هذا ما يهمني، ولو كنتُ سعيدة بترك بيت ستي خضرا فسيكون لأنني سأتخلص من جمال، ولو كنت سعيدة بانتقالي إلى بيت الباشا فسيكون لأنني سأعيش مع رجلٍ من اختيار الشيخ درويش، حياة أكون سعيدة فيها.

- وهل كنتِ سعيدة بزواجك منه؟

- شعرتُ أن الحياة أطعمتني.

المهم، لم تخرج عائشة ولا باقي النساء، سمعنا طرقًا للباب، قلبي صعد إلى حلقي ونبضَ به، صفَّق الشيخ درويش بيديه تنبيهًا للنساء، ثم دخل وهو ينظر إلى الأرض قائلاً لي: «مُبارك يا آمال».

رفع عينيه بي فوجدتهما ممتلئتين بالدموع، لا أعرف لِمَ نظرتُ إلى زوجته التي تجلس جوار عائشة وتبتسم لنا، تساءلتُ إذا كانا يظنان أنني ابنتهما حقًّا.

قال: «الباشا يريد رؤيتك».

ثم قال بعد صمتٍ: «وزوجك شعر بألمٍ في معدته ورحل».

وقفتُ بالمنتصف، بين نشوتي بكلمة زوجك، وبين حزني عليه لألمه، وحزني من الموقف الذي وُضعت فيه.

دخل الباشا وكانت أول مرة أراه، دائمًا ما أسمع عنه وعن الخير الذي يقدمه للبلد، يكفي أن العمدة لا يستطيع إيذاء أحد وهو موجود.

كان ضخم الجسد، ليس له لحية وشاربه أبيض ما عدا شعيرات بسيطة، أزال طربوشه بعد أن دخل فظهرت صلعته.

قال وهو يضحك ناظرًا إلى الشيخ درويش: «أهذه هي آمال؟ يا رجل قلتُ لي إنها جميلة، لم تقل إنها بهذا الجمال».

وضع يده خلف رأسي وقربها من شفتيه يقبلها، ثم سألني: «أتحفظين كتاب الله حقًّا؟».

أجبتُ بقول الشيخ درويش: «أحفظ كلماته وهو يحفظني من الشر».

ترك بيدي سلسلة ذهب وهو يضحك: «أم صادق دعت له قبل رحيلها».

أكمل بعد أن ابتلع ريقه: «تعرفين أنها ماتت وهو صغير؟ هل أخبرك الشيخ درويش؟ حكمت ابنتي في شهرها التاسع وعلى وشك الولادة لذا لم تستطع المجيء، لكنها أوصتني بأن أبارك لكِ حتى تأتي، عمَّاته سيصلن من سفرهن غدًا، سيأتي صادق معهن، لا أعرف ماذا حدث له، ربما توترَ من الأجواء حوله».

ولم يأتين ولم يأتِ، هذا الرجل الكبير كان يقف في بيتنا الذي لا يليق به، رأيتُ الفرق بيننا، لا ينتمون إلينا، حتى الرجل الذي ظننتُ أن الحياة أكرمتني به، ترك موقفه خذلانًا لم أستطع اجتيازه.

حتى السلسلة الذهب، مد جمال يده لي بعدما انصرف الجميع دون أن يتحدث، وأنا فهمت، تركتها له عن طيب خاطر، لا أعرف ماذا فعل بها ولم أهتم.

قُلتِ: «وماذا تعرفين عن الحياة! أنا لا أذكر أنني ضحكتُ من قلبي مرة، إلا المرة التي تذوقتُ فيها التفاح لأول مرة، وكان بسبب الباشا، كان في شبابه يدور في البلد بالخيل حين يأتون من المحروسة لقضاء إجازتهم، كان يعطف على الكبير والصغير.

كنا عائدين من الأرض بعد أن نقينا الدودة، وسمعته يتحدث مع عم صالح زوج ستك بسومية لو تتذكرينها، المرأة السمينة التي كانت تأتي أحيانًا تجلس مع ستك خضرا، ومعه ابنته فكيهة وكانت صغيرة وقتها، ووصفها الباشا بأنها أجمل من التفاح، سأله عمك صالح عن التفاح وكيف يبدو، فقال

الباشا: «ألا تعرفه!»، وفي اليوم التالي لفَّ البلد يُفرِّق التفاح على كل مَن يجده في طريقه.

أخذتُ واحدة وأمسكتها في يدي، شممت رائحتها، وعجبتُ لتشبيهه فكيهة بهذه الثمرة الحمراء الجميلة، ما أضحكني يومها أنني بعدما أخذت أول واحدة، ركضت الأستقبله في مكان آخر فأعطاني واحدة أخرى دون أن يتذكر أنني أخذت مرة، فعلتها أربع مرات، وعدت إلى البيت بأربع تفاحات.

تذوقته قضمتُ قضمة واحدة وأغلقت عيني لأستمتع به، كان جميلاً كالسكَّر. لم أنهِها بسرعة، خِفت أن أفيق مع آخر قضمة على حقيقة أنني لن أتذوقه مرة أخرى.

كانت هذه المرة الوحيدة التي ضحكت فيها من غير هموم، غير ذلك لا أذكر للحياة شيئًا».

قُلتُ وأنا أتمتم: «ماذا أعرف عن الحياة؟ أعرف كثيرًا عن كسر قلب الخاطر نصفين، والركض خلف الحقائق المُرة، واختيار الطُّرق الخاطئة، أعرف كيف يمكن للإنسان بكامل إرادته أن يفتح ذراعيه للموت، كيف حين تُتيح له الفرص ألف طريق، يختار الخطوة التي ستُهلكه.

عفا الله عنا، كنا نحارب من أجل حياة واحدة فوقعنا بفخ كل أنواع الموت».

في الوقت الذي ذهب فيه جمال وقت عصر كعادته لدخانه مع أصدقاء السوء مثله، ركضت بعباءة سوداء إلى المقابر، ذهبتُ لأخبر إبراهيم وأمي وأبي عن زواجي، قُلت إنهم بالتأكيد لا يعرفون، جلستُ أمام المقابر المهدَّمة قليلاً وأخبرتهم عن السلسلة الذهب التي أمسكتها في يدي، ووصفت لأمي كيف يبدو الذهب.

مشاعر جديدة كنت أتذوقها لأول مرة، الحديث مع ميت، لا يجيب، لا يفرح لا يحزن، لكن يجب أن يعرف، بعد حديث الساعة كاملة سألت نفسي إذا كانوا سيعرفون مني حقًّا.

ألقيتُ نظرة أخيرة عليهم، شيءٌ ما كان يُخبرني أنها المرة الأخيرة التي سأراهم فيها، حتى هذه الجملة غير منطقية، لأنني لم أرهم حقًّا.

سرتُ الطريق ببطءٍ شديد، أنظر حولي إلى القرية التي كانت فيما قبل ركنًا جميلاً آوي إليه، كأن بيوتها تغيرت، رغم أن الناس كما هم، عم طلعت يضع البرسيم على حماره ويركب فوق البرسيم، يرفع يده ويلقي السلام على الخالة سميحة وهي تكنس أمام دارها، ماذا تغيَّر؟ أحاول أن أكتشف ولا أعرف.

مَن كان يعرف وأنا أجلس معكِ ومع عائشة في حجرة مغلقة تضعان السكر الذائب تزيلان شعر جسدي به، وتفركان طوبًا أحمر عليه بعد الإزالة، أنني سأكتب الرسالة الثانية له وأنا أبكي.

الفرحة غير المكتملة مشكلة كبيرة، لأن الشعور بها يبدأ مبكرًا، لا نعتبرها فرحة كاملة ولا نستطيع تجاهلها.

أسرح بخيالي مع تلميحات عائشة وضحكتها، أخجل قليلاً لكنني لا أصدق الأمر بصورة كليَّة، قلبي كان مقبوضًا وكذَّبته.

تسرقني ضحكتها الرنانة مرة أخرى، أتذكر بكاءها ذلك اليوم حين أقسمت إنها لن تذهب إلى الترحيلة مرة أخرى، تقول إنها دخلت ڤيلا صاحب الأرض تحب على يده ليعطيها مالها وفي النهاية عادت بنصفه فقط مع تهديد فصمتت، وقال لها الباشكاتب أن تحمد الله لأنها خرجت من الڤيلا سليمة بعد طول لسانها بالداخل.

قالت لي: « ولا أعرف لماذا قال إنني أطلتُ لساني، كل ما فعلته أنني قلت له: «والله يا سعادة البيه أنا لا أمدُّ يدي أبدًا، لكن الظروف! أخبروني أن آتي لسعادتك هنا وأنت ستساعدني، أخذونا وشغلونا في الأرض حتى زحفنا عليها من التعب، تركت عيالي الرجل الذي قسمه الله لي وأبي العجوز، لا تعرف يا بيه؟ أبي فقد قدمًا العام الماضي وهو يعمل في الأرض نفسها، طيَّرتها فأس، لكن نحمد الله ونشكر فضله علينا، ترك له القدم الأخرى، يستند إلى شيءٍ أفضل من أن يُحمل، لا أطيل عليك يا بيه، تركت العيال وجئت إلى الأرض، كانت ترابًا والآن بسم الله ما شاء الله، حصوة في عيني إن كنت أحسد، الزرع بها أصبح أطول مني، وقال لنا الباشكاتب حين يُباع المحصول سنحصل على أجرتنا، حصدوا الزرع وباعوه ولم نأخذ أجرتنا، أخذونا نعمل كالحمير ولم تنطق.

ساعدني يا بيه، حين سقطت على قدم الباشكاتب وحلفته بالله الذي علمه القراءة والكتابة أن يعطيني أجرتي لأذهب إلى القرية والعيال، قال لي هذه أوامر من فوق. وأنا فكرتُ قليلًا وأعرف أن فوق يقصد بها الله، ولكن الله لا يظلم أبدًا ولا يرضيه ما يحدث بنا. قلت له ذلك ولم أخف، قال لي سعادة البيه الكبير هو مَن أمر ولو سمع صوتنا سيقتلنا.

وأنا جئت إليك لأننا إن لم نأخذ أجرتنا سيقتلنا الجوع وإذا تحدثنا ستقتلنا.

والله لا أعرف لماذا يرغب بنا الموت إلى هذه الدرجة، حلفتك بالله الذي أعطاك وحرمنا لحكمة عنده، ورزقك ومنع عنا لسببٍ لا نعلمه، أن تعطينا الأجرة، أريد العودة إلى بلدي وأطمئن على العيال».

وفي النهاية أعطاني النصف فقط وماذا قال؟ قال احمدي الله! الله يذيقهم الهوان في الدنيا وفي الآخرة».

صوتها مرة أخرى وهي تلصق السكر على جسدي: «يا أختي يا بخته بكِ والله، أمه دعت له».

***

كتبتُ له:

«ماذا يقولون في الخارج؟ ماذا يعني أنكَ رحلت؟

خالتي يا سي صادق تلطم بالخارج، أدخلتني هنا وأغلقت عليَّ الباب، وأنا من صبحية ربنا وأنا أستغفر كي يمر اليوم دون مصائب، لماذا إذن يأتي الباشا إلينا بمفرده ويعتذر ؟

وأنا ما آلمني شيء أكثر من قوله إنه تبرّأ منك لأنك خذلته وسافرت، أيُغضب المرء منا أباه؟

لا يا سي صادق، ليس لديك حق، ولا تقل: «ما دخلك أنتِ بي!» إنني زوجتك، على كتاب الله وسنة رسوله، وكرامة لرسوله الكريم كذّبهم وتعالَ، أستحلفك بالذي أتى بك إليَّ رغم أنه لا طريق، وحملك على أن تكتبني على اسمك، ألا تكسر بخاطر البنت اليتيمة وتكسر فرحتها ليلة عرسها، أسوق عليك الأولياء وأحباب الله وكل صالح أتى إلى الدنيا ونثر عطر عبادته، ألا تمزق آخر أملٍ قلتُ عليه إنه عوضي من الدنيا.

لقد مات أخي ومات بعده أبي وركضت خلفهما أمي، وتركت وحيدة أسمع الهمز واللمز بأنني وجه فقر وخطوتي تجلب الشؤم، وأن بقائي مع خالتي المسكينة هو السبب في تأخر فرحتها بعيِّل، والألسنة لن ترحمني إذا كان حديث الباشا صدقاً، أيرضيك أن تأكلني الألسنة ولا تترك مني شيئًا

أستقبلك به حين تعود؟ لن يرضيك لأنني أعرفك صاحب واجب، لو أعرف مكانك لكنت جئت إليك أسترضيك لكنك تعرف مكاني، وإذا جئت فقط سأرضى.

ما الذي يغضبك يا حضرة الأفندي؟ هل وصلك عني شيء لا ترضاه لأهل بيتك؟ هل خِفت أن أجلب لك الشؤم كما يقولون؟ إنك رجلٌ متعلم وتعرف الله، هل تصدِّق هذه الأمور؟ ما الذي يغضبك وأنا والله سأجلس أمام قدميك حتى تقول لي: «قومي يا آمال رضيتُ عنكِ».

الله لا يطيل غيبتك، ويقطع كل الطُّرق عليك اللهم إلا الطريق الذي سيصل بك إليَّ».

اليوم سحب معه يومًا، حتى أكملتُ ثلاثة أشهر لا حس ولا خبر عنه، الرسائل التي كنت أكتبها له أشعرتني بأنه موجود وبأنه سيقرأ حتى هبطت عزيمتي وأيقنت أنه لن يأتي أبدًا.

امرأة متزوجة لن يطرق أحد بابها ولن يأتي زوجها أيضًا، مثل البيت المهجور، لكن الحق يُقال حين كان يأتي الباشا ويزورنا حاملاً الشيء والشويات، وقتها كنت أرضى وأصدِّق أنني امرأة متزوجة وأطرد الأفكار السيئة التي تجتمع عليَّ في الليل وتخنقني، يقول برقةٍ: «ها يا بنتي، ألم تغيري رأيك؟ هل تريدين البقاء هنا؟ بيت زوجك أولى بكِ»، كلامه كان يشبه الشهد، كنتُ أنحني على يده أقبلها وأقول له إنني سأنتظر زوجي، لم يخطر ببالي أنه سينسى أنه تزوج، وهو في النهاية رجلٌ يستطيع الزواج بأخرى، يتزوج وينجب ويعيش حياته.

رجعتُ إلى حياتي الأولى راضية، أفتح عيني مع صوت الديك، أصلي الفجر، أجهز الفطور قبل أن تستيقظي، أخطف قدمي لأملأ البلاص قبل أن تزدحم الترعة ويراني أحد، لم يكن يؤلمني شيءٌ سوى تعليقات زوجك الله يذيقه الذل الذي ذقته بسببه إن كان حيًّا، وإن مات يرحمه فقد سامحت. كان حديثه يسقط كسكاكين في قلبي: «متى سنتخلص منكِ

ونرتاح! حتى الرجل الذي قلنا إنه سيريحنا من خلقتك تركك وطفش»، ولكن هل تركني حقًّا؟ هل أمسك بي ليتركني يا خالة!

ليلتها أخرجت الفساتين التي صنعتها لي زوجة الشيخ درويش وأنا أبكي، متعتُ عيني برؤيتها وكنتُ أفكر إذا كان قد كُتب عليهم ألا يراها أبدًا. كانت عائشة تأتي أحيانًا، نبكي أو نضحك أو تزرع في قلبي أملاً أن الله لن يتركني، وفي كل مرة تدخل عليَّ كانت تضع يدها خلف ظهرها ،تسنده، قبل زواجها كان يؤلمها من شغل الفاعل، وبعد زواجها من الحَمل والرضاعة، كأنه كُتب علينا أن نعيش بآلام في الظهر والقلب طوال العمر.

قُلتِ: «نقص وزنك من البكاء، وأنا قُلت إن الحب هو الذي أنقص وزني إلى النصف».

تجاهلت سخريتك: «أعرف أنكِ لن تصدقي، لكنني بالفعل أحببتُ صادق منذ اللحظة التي وقَّع فيها على عقد زواجنا».

هذه القصة أنتِ تعرفينها جيدًا، وتعرفين أنه بعد أربعة أشهر جاء الشيخ درويش ووضع في يدي جنيهًا ونصف الجنيه مرة واحدة، وورقة بها عنوان السيدة حكمت أخت زوجي، وانتظرني بعد صلاة الفجر خلف البيت وأوصلني بنفسه إلى القطار، وقال: «روحي إلى قدرك يا آمال».

وأنا لم أفكر، فعلتُ ما أمرني به بالضبط، صليتُ الفجر وربطتُ على ثيابي والرسالتين اللتين كتبتهما وهربتُ، جلسنا في المحطة يعيد على سمعي نصائحه، حتى جاء القطار، تركني فيه ورحل.

سأقول لكِ الآن القصة التي لا تعرفينها.

***

ورقة وجدتها بين الرسائل ولا أذكر لمن أردت إرسالها.

أنا لا أنسى، هذا هو دائي، الناس تمر بي ولا ترحل، حتى لو لم يعد لهم وجود، حتى لو انتهت قصتي معهم، لهذا السبب سأتمنى الموت، أُصبح خفيفة، كيلا أكون جملة ممتلئة بالمعنى، مؤلمة أكثر مما يجدر بها أن تكون.

سأتمناه، لكن ليس الآن، ما زلتُ رغم كل شيء أنتظر شيئًا جميلاً أن يحدث، وحين يطول بي الانتظار ولا يأتي سأتمنى الموت، لكن ليس الآن ليس الآن.

لعل الله يُحدث بعد ذلك أمرًا، لعله ينقذني من عقلي، لعل غدًا يحمل بين طياته حدثًا يُعيد ترتيب الأحداث، يرسم من جديد شمسًا مشرقة وسماء زرقاء تَسرُّ الناظرين، لن أيأس، ولكن إذا طال بي الوقت ولم يتغير شيء سأقول بصوتٍ واهن كما قالت السيدة مريم: «يَا ليتني مِت قَبل هَذا وكُنتُ نَسيًا مَنسِيًّا» وسيرحم الله عجزي وقلة حيلتي كما رحمها ونُودِيَت من تحت النخلة ألا تحزن، في النهاية أنا أَمة له، إلى من ألوذ إن لم أركض تجاه بابه؟ إلى من أرفع يدي وأنادي أن يا رب ثَقُل الحِملُ وظهري تَعبٌ، أن يا رب أَمة لك خلقتها وعليك رزقها فارحمها.

سأقول له: «يا رب يا حبيبي، هل الحياة الدنيا بمثل هذه الصعوبة على الجميع؟ يا رب يا حبيبي إن سعادتي لن تُزيد من ملكك شيئًا وحزني لن يُنقص من ملكك شيئًا، إذا أنقذتني لن تتبدل الحياة وإذا تركتني للهلاك لن تتوقف الحياة، لكن يقيني بك أنك لن تتركني، لأنك رحيم وليس لأنني أستحق».

في النهاية الحياة لن تتوقف، إنها تركض كما يفعل القطار وهو يسير بسرعة، إنه مُرعب، لا يتوقف مُطلقًا إلا في المحطة، حتى لو دهس شخصًا، وأنا أنتظر المحطة كي يتوقف، إلى الآن أنتظر، أملي

أن يتوقف القطار وأستريح قليلاً كي أستعيد قوتي وأكمل حربي مع الحياة.

إنني محاربة من الدرجة الأولى، أيأس قليلاً لكن ما ألبث أن أتذكر أن هناك مُنتصرًا واحدًا فقط، إما أنا وإما أنا، الحياة ليست أقوى مني وأنا لستُ خصمًا ضعيفًا.

يا رب فراشة خلقتها، لا تُفقدها أجنحتها.. أرجوك.

***

شعرتُ بغربتي فور أن توقفت يد الشيخ درويش عن التلويح وتحرك بي القطار، كنتُ سأمسك في شبَّاك القطار وأناديه لكنني تصرفتُ كامرأة كبيرة وحاولت الثبات، رغم أنني حفظتُ ما سأفعله وهو أنني سأنزل من القطار، وأوقف أي سيَّارة أترك في يد سائقها العنوان وحين أصل إلى بيت الست حكمت أقول لها أنا آمال زوجة أخيك ِالمحترم صادق أفندي، وهي ستستقبلني وإذا كانت تعرف طريقه ستوصلني إليه وإن لم تكن تعرف أطلب منها أن تُعيدني إلى القطار مرة أخرى، لكن رغم ذلك شعرتُ أنني أنسلخ من جلدي، ولا أعرف لِمَ تركني الشيخ درويش أذهب بمفردي.

صوت القطار مزعج ولا يتوقف، كانت الأشجار تركض والأراضي تختفي، كدتُ أبكي، لكنني خفِت أن أفعلها.

سمعتُ صوتًا يسألني: «هل ستبحثين عن عمل في المحروسة بمفردك؟..

التفتُّ، كانت امرأة بمثل عمرك تقريبًا، تضع حجابًا أسود وتربط رأسها بشريط أسود مثله، بشرتها محترفة ولها شفاه كبيرة.

قلت بعد تردد: «لا، ذاهبة إلى زوجي».

اتسعت عيناها: «بمفردك! ولِمَ لم يأتِ هو لأخذك ؟!».

- مريض يا خالة.

- الله يشفيه لكِ، أما أنا سارحة في أرض الله بحثًا عن لقمة والمحروسة أرض عمار.

لم تتوقف عن الحديث، قالت إنها أنجبت سبعة بطون مات منهم ولد أبوهم كفيف وهي من تجري على لقمتهم.

كلما كادت عيني أن تُغمض ارتفع صوتها لأنتبه، لكنني في منتصف الطريق تقريبًا فتحت عيني فوجدت رأسي على فخذها وهي تمسح بيدها على ظهري.

حين رأتني أتحرك ابتسمت وسألتني: «أمك اسمها فاطمة؟..

- وكيف عرفت!

- زارتك في المنام، كنتِ تتمتمين باسمها.

لكنني لا أذكر الحلم، المصير لم يكن واضحًا، والحياة تركض مثل ذلك القطار تمامًا، هل سأعود إلى القرية مرة أخرى؟ عقلي صدَّق أن صادق سينتظرني في المحطة، لا أعرف كيف لكنني توقعت أن هذا الذي سيحدث، يقف ويقول لي: «هل جئتِ هذا الطريق الطويل بمفردك يا آمال؟ تعبت؟ تعالي لنرتاح»، وحين فكرتُ أن هذا لن يحدث، شعرتُ بروحي تتحطم.

لمست قدمي أرضًا صلبة حين نزلت من القطار معها، شعرتُ بصلابتها حين تحركتُ عليها بالحذاء البلاستيكي في قدمي، أرض لا تشبه أرضنا، الناس يركضون لا يسيرون بهدوء مثلنا، ناسٌ كثيرون، في كل مكان، يركضون، ملامحهم غريبة، كون فسيح متسع أمام عيني، ومبان أعلى من الطاحونة بمرتين أو ثلاثة، دار عقلي وشعرتُ أنني سأسقط، أهذه هي المحروسة!

سمعت صوت رجل ينادي: «ديزل إسكندرية يغادر رصيف أربعة، الساعة السابعة والنصف في ميعاده».

سألتها: «لِمَ يركضون هكذا!».

مسحت بيدها على ظهري: «أول مرة تأتين إليها؟ لِمَ أتيتِ بمفردك يابنتي؟ ستتوهين».

- كيف أوقف سيارة؟ السيارات تسير بسرعة ولا تتوقف.

- وهل معكِ ثمن أجرة سيارة!

- هل تأخذ كثيرًا؟

- لا أعرف، ربما يأخذ عشرة قروش أو أكثر، لم أركبها من قبل.

قُلت غير مصدقة: «عشرة قروش مرة واحدة!».

- قولي لي عنوان زوجك وإن كان في طريقي أخذتك معي.

فكرتُ قليلاً وقُلت في نفسي إن معي جنيهًا ونصف، وحين أصل إلى بيت الست حكمت لن أحتاج إلى المال مرة أخرى إلا في أسوأ الأحوال في طريق العودة.

استأذنتها: «سأتعبك يا خالة، لا تؤاخذيني، أوقفي لي سيارة».

حين ابتعدت عني خطوة واحدة لتشير بيدها إلى سيارة لتقف، ضربني الهواء من كل جهة، والتفتُّ حولي في محاولة لاستيعاب عدد البشر.

لماذا خرجت الفراشة من بيتها الصغير؟ الإجابة بسيطة، الحياة أجبرتها.

أوقفت عربة يجرها حصان ولم توقف سيارة، قالت هامسة: «سيأخذ ثلاثة قروش».

حين ركبت اقتربت المرأة من السائق وهي تقول له بأن ينتبه عليَّ ولا يتركني إلا أمام البيت.

ثم اقتربت مني قائلة: «أتحتاجين إلى شيء آخر يا عين خالتك؟ تصلين إليه سالمة غائمة إن شاء الله».

تمنيتُ أن أقابلها مرة أخرى، ولكن وأنا مع صادق وأطلب منه أن يجد لها عملاً كريمًا، سأقول له قصتها بصوتٍ منخفض كيلا أجرحها، وهو سيساعدها.

فتحت الورقة وقلت له العنوان بصوتٍ مرتفع وطار الحصان فأمسكتُ حجابي الذي بدأ يطير مع الهواء، كاد قلبي يخرج مني من هول ما أرى،

رأسي كان يرتفع ويهبط مثل الشادوف تمامًا، وكنتُ سأشهق حين وجدتُ بيتًا طويلًا لم أستطع الوصول إلى نهايته بعيني بسبب الشمس.

تمنيتُ ألا يتوقف أبدًا، أن تنتهي حياتي وأنا أعبر الدنيا مُحلّقة لا أمكث في مكان طويلاً.

قال السائق شيئًا لكنني لم أسمعه وخجلتُ أن أسأله، رفعت رأسي مرة أخرى، شيءٌ ما في قلبي كان ينبض، يتحرك، يكبر، يرقص، ويدندن. شيءٌ ما يُقلّد صوت العصفور، يفتح نوافذ الحلم على قوافل التحليق، يركض في صحراء رطبة.

شعرتُ أنني أتحرر، أن الصباح قادم، وأن الشتاء ينسج خيوطه ويسير.بمهل في أروقة سكنها الخريف نيفًا وأكثر.

ثم توقفت أجنحتي حين انتبهت على صوت السائق: «هذا هو العنوان يا ست».

ابتسمتُ لوصفي بالست، وسألته: «كم ستأخذ؟».

- ثلاثة قروش.

تركتهم في يده، ونزلت منها وأنا أضغط الورقة في يدي، رحل ووجدتني أمام بيتٍ أصغر من بيت الباشا بكثير، حديقته صغيرة وبه باب خشبي أبيض اللون وصغير يطل على حديقته، وممر طويل يصل إلى البيت، لم أجد أحدًا أناديه، فوقفت أنظر إلى الشجر من الخارج.

كان الجو شديد الحرارة وكأن الشمس تسلطت على رأسي، مسحت وجهي بكم عباءتي وعرقت الورقة في يدي اليمنى، فتحتها لتجف لكنها طارت حين شهقتُ من صوت امرأة وجدتها أمامي فجأة وتحمل طفلًا صغيرًا، امرأة بدينة

لا يختلف ما ترتديه عما أرتديه.

قالت بنظرة متشككة: «ساعة كاملة وأنا أراكِ تقفين هنا، ماذا تريدين؟».

هدأت نظرتها قليلاً: «يا حبيبتي، وجهك أصبح مثل الليمونة من الشمس، تعالي اشربي أولاً، ادخلي لا تخافي، هل أتيت تبحثين عن عمل؟».

بعدما تنفستُ بارتياح لحنانها، هبط سؤالها الأخير على قلبي كسره، لم أكن أعرف أن الحكم على الإنسان في زمننا يعتمد على مظهره وملابسه، كنتُ سأبدو حمقاء أمامها لو أخبرتها أنني زوجة السيد صادق، لم أكن سأحتمل النظرة المدهوشة من حديثي، وحتى حين تعرف أنني لا أكذب، الشعور المر الذي تذوقته من سؤالها سأتذكره كلما أراها، فلم أتحدث.

قُلت: «أريد مقابلة السيدة حكمت».

- أنتِ بنت حلال والله، كنتُ أشتكي لها أمس من كثرة العمل خصوصًا بعدما شرَّف سي كمال وقالت إنها ستبحث عن أحدٍ يساعدني، لكن ما اسمك ومن أين أتيتِ.

- اسمي آمال وجِئتُ من قرية كوم القش.

وقفت أمام الباب وهي تمسك ذقنها: «أي محافظة هذه يا ترى؟».

كأنها كانت تسأل نفسها، دخلت بي وأكملت سيرها وأنا وقفت مكاني أتأمل البيت، كان على جانبي حصان كبير، لكن ليس حقيقيًّا، لا يتحرك، خفت منه أول الأمر.

نادتني وهي تقف أمام باب غرفة عرفت فيما بعد أنها الصالون، والصالون يا خالة غرفة يجلس فيها الضيوف ومقاعده تكون في غاية الفخامة.

- تعالي يا آمال، سمي وصلي.

اقتربتُ منها لكنني التفتُّ معها على صوت امرأة تنزل من فوق الدّرج، عرفت أنها السيدة حكمت أول ما رأيتها، شعرها لم يتغير طوله من المرة الوحيدة التي رأيتها فيها، بيضاء بأنفٍ مدبب وشفاه رفيعة، تشبه صادق تمامًا، وقعت عيني على حذائها الجميل وهو يصدر صوتًا مع حركتها.

سألتْ: «مَن هذه يا دادة فاطمة؟».

اقتربتْ منها وهي تضحك: «أرأيت يا هانم؟ كنا نتحدث بالأمس عن أحدٍ يساعدني فأرسل لنا الله آمال، والله قلبي ارتاح لها أول ما رأيتها، كانت تقف أمام الباب وخجلت أن تنادي».

وقفت السيدة حكمت أمامي وسألتني: «اسمك آمال؟ كم سنة يا آمال؟».

لم أرفع عيني عن حذائها، داريتُ حذائي أسفل العباءة، ندمتُ أنني خرجتُ من القرية، لم أكن سأستطيع أن أقول لها: «انظري إليَّ جيدًا، أنا زوجة أخيك، ولا تندهشي»، ووقتها كان الموت أهون عندي من نظرة الدهشة التي سأراها في عيونهم، شعرت بأنني صغيرة، ألقاني الشيخ درويش لأواجه قدري بمفردي، قَصدَ ألا يأتي معي، ربما ظن أنه علمني بما يكفي لأكون قوية، لكن مع أول مواجهة ضعفت، واكتشفتُ أنني مثلهم، أحكم على الناس بمظاهرهم، لدرجة أنني خجلتُ من نفسي وتمنيتُ أن أختفي.

قلتِ وأنتِ تضر بيننى في كتفي اليمنى: «وقلت إنكِ تبحثين عن عمل! يا مخبولة! تكونين السيدة وتذهبين للخدمة!».

- لم يكن اختياري، أنا أُلقيتُ في الأمر، كأن قدومي ممهد إليه، كانوا يبحثون عن خادمة وألقتني الفرصة إليهم، حاولتُ أن أقول، لكن وجدت

الكلمة الأخرى أصعب، ربما لأنني توقعت أن الموقف سيكون أسهل وأنهم أول ما يجدونني أمامهم سيتعرفون عليَّ، لأن هذا لم يحدث لم أستطع التصرف، وحزينة لأنني أعترف بذلك، لكنني خجلتُ من نفسي، رأيتني صغيرة أمامهم.

هذا قدري وكان عليَّ أن أواجه، مكثتُ معهم على أمل أن يأتي صادق ولو لمرة واحدة.

حين عرفتِ الدادة فاطمة أن أمي رحمها الله اسمها فاطمة، زاد حنانها عليَّ الضعف، أجلستني في المطبخ وأعطتني عصيرًا وقتها لم أعرفه، لكنني عرفتُ فيما بعد أنه عصير مانجا، بعدما ارتحت قليلاً وغيرتُ ثيابي سألتني عما أستطيع فعله، فقلتُ لها: «في الطبخ، أعرف الرز المعمر والفطير الدماسي والفطير المشلتت وعيش غربال وعيش مرحرح، وفي الحلوى، المفروكة والبسيسة وسد الحنك».

وقلت أيضًا إنني أجيد الخياطة.

حين جاء الليل ضغطتْ شيئًا في الحائط فأنارت البيت كله، كأنهم صنعوا شمسًا وعلقوها في السقف، قالت وهي تضحك: «ألا تعرفين الكهرباء يا آمال؟».

أصبحت مهمتي حمل الصغير ومساعدة الدادة فاطمة إذا احتاجت مساعدة، المرأة الطيبة التي لن أنساها أبدًا، لا تتوقف عن الحديث عن ابنتها الوحيدة التي تكبرني بأربعة أعوام والتحقت بالجامعة، لم أحزن حين تذكرت وعد إبراهيم لي لن تصدقي لكنني أحببتُ حياتي في بيت الست حكمت، ليس لأنني أصبح لي فراش بمفردي وليس لأنني لا أفعل شيئًا سوى حمل الصغير وأجلس في الحديقة وقتما شئت، لكن لأنني كنت أنتظر صادق، وقلبي أخبرني أنه سيأتي.

أعطتني الست حكمت ثلاثة فساتين قالت لي: «أنت مثل أختي الصغيرة خذيهم ولا تخجلي مني».

كانوا يحتاجون إلى التضييق قليلاً.

قالت لي الدادة فاطمة: «حين تمرُّ علي زينب ابنتي اذهبي معها، في البيت ماكينة خياطة كنت أعمل عليها قبل أن يضعف بصري، خذي الثياب معك وضيقيهم مثلما شئتِ».

وكانت المرة الأولى التي أرى فيها زينب، ولم أكن أعرف أنها ستصبح أقرب شخصٍ لي.

زيارتي إلى بيت الدادة فاطمة تكررت، خصوصًا بعدما أصبحت زينب تشتري قماشًا وتطلب مني صنع فساتين لها ولم تكن الست حكمت تمانع غيابي لساعة أو ساعتين.

شهران، عشت فيهما أيامًا لم أحلم يومًا أن أعيشها، كنت سعيدة رغم أن شيئًا كبيرًا ينقصني، حياة لم تأتِ بأجمل أحلامي حتى، كانت زينب أحيانًا تمرُّ علي وتستأذن الست حكمت وتأخذني ساعة نسير فيها في الشوارع تريني المحروسة وتشتري لي الكازوزة، أخذتني يومًا واشترينا لي أقمشة وأحذية

هي مَن علمتني ارتداء الأحذية بكعبٍ عالٍ، لكنني لم أرتدِها قط في بيت السيدة، صرفت يومها نصف ما أقبضه، كانت تعطيني جنيهين في الشهر.

زينب لا تشبه أمها، لا في الطبع ولا في الشكل، تُوفي أبوها وهي صغيرة ورفضت الدادة فاطمة أن تتزوج، وبدأت تعمل لتعليم زينب، كنت أظن أنها فتاة مفكوك حبلها، لكن اكتشفتُ أن صديقاتها كلهن الشيء نفسه، بل إن الفتيات كلهن هناك الشيء نفسه، ولم أغضب مرة إذا أخذنني مادة للسخرية بسبب خجلي الزائد كما كُنّ يقُلن، تعرفتُ إلى صديقتين لها في الجامعة،

إحداهما مها والأخرى رانيا، طلبتا مني أن أصنع لهما فساتين مثل زينب، في البداية لم أكن أخذ أجرًا، لكن زينب نصحتني أن أضع سعرًا لتعبي، تخيلي

أن الست حكمت نفسها طلبت مني أن أصنع لها فستانًا، ولا أعرف أطلبته لتجبر بخاطري أم لأنها -كما تقول- أعجبها أحد فساتين زينب.

كانت سيدة متواضعة وجميلة، وكنت أحب شعرها حين ترفعه للأعلى وأحب رائحته، كانت تحب شرب القهوة في الحديقة، ولا تراني مرة إلا وتقول لي: «ملامحك طيبة وجميلة يا آمال»، وكنت أشعر بحزنها الدائم لسفر زوجها

الذي طال.

منذ عرفت أنني أقرأ وأكتب، تركت لي مهمة قراءة الجرائد لها صباحًا خصوصا الإعلانات.

أضع كمال على رجلي وأقرأ لها: «إعلان محلات أحمد صلاح الدين للسجاد الذي يقع في نواحي السيدة زينب بأربعة جنيهات، سجادة فاخرة وارد الخارج، شارع الكومي بميدان السيدة زينب تليفون 76138».

تسألني: «وأسعار الذهب يا آمال؟».

- أسعار الذهب بمحلات أمين ونور السرجاني بك، جنيه الملك ٦٢٥ قرشًا، جنيه الملكة 623 قرشًا، درهم عيار 21، 248 قرشًا.

الحياة في بيتها هادئة، حين يستيقظ كمال تناديني، أحممه أمامها وأبدِّل له ملابسه وكان قد تعلق بي، يتوقف عن البكاء حين يسمع صوتي، أحمله

إلى الجنينة حتى تبدل ملابسها، تصنع دادة فاطمة الفطور وأحيانًا كنا نفطر معها، نخرج أنا والدادة فاطمة لشراء الناقص في المطبخ، تمر عليَّ زينب وكنا قد صرنا صديقتين مقربتين، ساعة أو ساعتين بالكثير ثم نعود، أساعد الدادة في صنع الطعام وقد تخرج السيدة حكمت مع زميلاتها وتترك لي كمال.

سألتِني: « ولم يأتِ ببالك ولا مرة أن تقولي لها من أنتِ!».

- كذا مرة، لكنني لم أستطع، ولا أعرف سببًا، كل ما في الأمر أنني لم أجد كلمات مناسبة، فوق كل ذلك كنت سعيدة جدا في حياتي.

- انقلبت البلد عليكِ، حاولنا أن نصمت أنا وجمال حتى لا يصل الأمر إلى الباشا، لكن بعد أسبوع حين أتى لزيارتك لم نعرف ماذا نقول له. وضربني جمال قبلها بيومٍ لا لشيء سوى لأنني خالتك، لم ينقذنا سوى الشيخ درويش حين قال له أمامنا أنه أوصلك إلى خالك في المحروسة، وغضب الباشا لأن لا أحد أخبره، ومِن بعدها نسجت البلد الحكايات؛.جماعة تقول إنكِ لم تحتملي ترك زوجك لكِ وهربتِ، وجماعة أخرى تقول إنكِ ذهبتِ إليه ورفضك، كنتِ حديث البلد فترةً طويلةً.

- لو انتظرت عمري كله لم يكن ليأتيني بصادق.

- وهل أتى إليكِ حين ذهبتِ؟

***

من أحاديث الشيخ درويش:

«وإن يمسسك الله بضرٍّ فلا كاشف له إلا هو».

حتى بأوقات المِحَن، تجلَّت رحمتك في أن جعلت الباب الوحيد المفتوح أمامنا هو بابك، لا في يدِ بشر ربما يأخذه الكِبر مأخذه فلا يعدل، أو يُزَيِّن الظلم في عينيه فيظلم.

لا باب سوى بابك ولا ملجأ سواك، كأن في «فَلا كَاشِف لَه إلا هُو» كلمة خفيَّة، أن أقبل يا عبد ولا تخف، علاج جرحك أنا قادر عليه ولا شافٍ لوجعك سوى قضائي ورحمتي.

«هل تعرف شيئًا عن الخوف يا سي صادق، إنك رجلٌ وأنا أسأل هل يخاف الرجال؟ وأنت تحديدًا هل تخاف؟ إنني خائفة من أشياء كثيرة، أولها ألا تُحبني وألا تجد فيَّ امرأة قادرة على منحك الحب، وخائفة أيضًا ألا أجدك بعد كل هذا السعي. لا أريد التفكير فيما أفعله كأنني بعد عمرٍ من الحرمان فُتحت أمامي الأبواب، هل أرى غلقها أمامي وأصمت؟ إنني أحارب كي لا تُغلق، كي لا أعود إلى الظلام مرة أخرى.

أين أنت؟ إنني خجلى أن أقول للست حكمت بأنني زوجتك بعد كل هذه الأيام، أنا مَن تركت نفسي لهذا المأزق، لكنني لستُ حزينة، أنا أنتظرك وأعرف أنك ستأتي.

سألتصق بك كما قطة، ولن أتركك أبدًا، أنا زوجتك حتى ولو لم يكن بإرادتك، وعلى الزوج أن يبقى دائما مع زوجته، يقول لها: «تفضلي في يومي»، أعرف أن أبي لم يبقَ مع أمي، ولكن ذلك لأسباب أكبر منَّا كبشر، إرادة الله كما كانت تقول أمي، وإبراهيم لم يبقَ مع صدِّيقة ولكن أيضًا هذه إرادة الله.

الآن وأنا لديَّ زوج مثلك، كبيرٌ عليّ، أكبر من أن تستحقه امرأة، وعلى الزوجة مثلي أن تبقى مع زوجها.

لا تؤاخذني يا سي صادق، لكنني ما عدت أستطيع الاحتمال، الحياة هنا على الرغم من أنها جميلة فإنها أصعب مما تخيلت، وكنت أتوقع أنني حين أصل سأجدك أمامي تنتظرني، لا أعرف كيف صور لي عقلي ذلك، لكنني تمنيت».

وضعت هذه الرسالة بجوار أخواتها بين ثيابي، ابتسمت حين فكرت أنه سيأتي يومًا ويقرأ، يمسك يدي ويقول: «ما نبحث عنه يبحث عنا يا آمال، أنا أيضًا تمنيتُ مجيئك»، ستذوب يدي بين يديه، ستتحول إلى عرقٍ يسقط من أصابعه، سيجمعني ويبلل وجهه بي، كأنني مطر.

سألتني الدادة فاطمة وأنا أصنع القهوة لضيفٍ مع السيدة حكمت:

- يا ضنايا! ومات أبوكِ بعد أخيكِ!

- لم يمهلنا والله يا دادة، لم نكد نفيق من فقد إبراهيم حتى ذهب خلفه، وبعدهما أمي.

أخذتني في حضنها غير آبهة بالقهوة: «لا تحزني يا آمال، أقدار الله لا مفر منها، وغدًا سيعوِّضك الله يا حبيبتي، أنتِ بنت حلال، هل تعرفين أن زينب أخبرتني أن كل صديقاتها يردنِ منكِ أن تصنعي لهن فساتين؟ خذي الماكينة لكِ، سامحتُ فيها، سيعوِّضك الله صدقيني وغدًا تقولين الدادة فاطمة كان لديها حق».

ابتعدت عن حضنها وقُلت وأنا أصب القهوة: «ولا هروب من الأقدار كما تقولين، علينا مواجهتها».

تحركتُ وأنا أحملها، خرجتُ من المطبخ لكنها سقطت من يدي حين رأيتُ صادق من النافذة يجلس مع أخته في الحديقة، كان يُمسك يدها وكأنه يستعطفها لفعل شيءٍ أو لتسامحه على شيءٍ، لم أصرخ حين سقطت على قدمي، ولم أشعر إلا بالدادة فاطمة وهي تركض تجاهي وتحاول تنظيف الأرض، لمست قدمي بيدها وسألتني شيئًا لم أسمعه، بعدما نظفت الأرض، جذبتني من يدي للغرفة التي ننام بها : «سامحيني يا ضنايا، ذكرتك بأشياء تؤلمك، انسي يا آمال ارتاحي يا حبيبتي قليلاً، نامي وإذا سألتني عنكِ حكمت هانم سأقول لها بأنكِ تعبت من العمل وترتاحين».

أخرجت لي فستانًا من ملابسي ووضعته أمامي: «بدلي ملابسك وارتاحي. وأنا سأصنع لهما القهوة».

جلستُ على الفراش بملابسي أحاول أن أتنفس بهدوء، أن أفكر، أن أبتلع ريقي حتى، لكن لم أقوَ على شيءٍ.

في هذه اللحظة تحديدًا عرفت أنني أحبه، وأنني لم أركض كل هذا الطريق لأنه زوجي فقط، وضعتُ يدي على قلبي كي يهدأ، ارتديت ثوباً نظيفًا وخرجت إلى المطبخ أنظر من النافذة إليه.

قطة صغيرة تقف خلف النافذة تنظر إلى حياتها بعينين لامعتين، وقد كانت تنتظر موتها.

صادق كان الاكتشاف الضبابي لامرأة عاشت عمرها تنظر إلى الغيم بعين الدهشة. قبله لم أشعر بالرغبة في تحريك أصابعي في الهواء، والرسم بها ملامح سيُمحيها سقوط المطر، ولم أتمنَّ قط أن أفتح قلبي للعابرين لأشاركهم

قصيدة طويلة تتحدث عن اللحظة الأولى من التقاء قلبين وعن الانتشاء الغريب لتعارفهما وعن امتزاجهما، ثم وللدهشة نجدهما قلبًا واحدًا.

لم أتحرك حين قبَّلها من رأسها وقبَّل كمال ورحل، وقفتُ مبتسمة، سعيدة ومرتاحة البال، كنت أعرف أنه سيأتي وأتى.

التفتُّ على صوت الدادة فاطمة وهي تقول بعتبٍ: «لم لم ترتاحي يا آمال؟».

نادتني السيدة حكمتُ فخرجت إليها، قالت: «خذي كمال وغيري له ثيابه هل أصبحت بخير؟».

- الحمد لله.

- سأعطيكِ غدًا مفتاح بيت صادق وأكتب لكِ عنوانه، من فضلك خذي سيارة توصلك إلى هناك ونظفي البيت واصنعي له الغداء، وإذا أراد شيئًا افعليه، ثم تعالي.

حملت الصغير على يدي شعرتُ بالسعادة نفسها حين أخبرني الشيخ درويش بزواجي من صادق، لكن في هذا الموقف كنت أهدأ وكأنني تعلمتُ كيف أتعامل مع شعوري، كيف أخفيه ومتى أظهره.

حككتِ رأسك بإصبعك: «والله مخبولة، لم لم تركضي عليه وقتها ؟».

- الإنسان حين يكون في الموقف لا يتصرف كما يفكر أبدًا، أحيانًا تصدمنا المواقف وتخرسنا.

- وانتظرتِ ؟

- انتظرتُ.

هذا ما أجيده على كل حال.

منذ زمنٍ بعيد وأنا أنتظر، ورغم أنه لم يحدث ولو لمرة واحدة أن لبَّت الرغبة انتظاري لها، لكنني تعلمتُ أن أنتظر، لأن شيئًا داخلي يرفض التصديق أن هذه هي النهاية.

أُجدِّف لأنني أظن أن البحر سيأتي عليه يومٌ ويهدأ.

حسن ظني هو ما يُبقيني حتى هذه اللحظة أنتظر الفجر رغم أنها منذ سنواتٍ عديدة تقف عند الثانية ليلاً ولا تتحرك.

أفتح نافذتي لعلَّ الضوء يجمع بعضه ويقول: «هذه النافذة لم تُغلق بوجهنا يومًا، لعلها تستحق زيارتنا».

***

هل تعرفين ماذا يُشبه تنظيف البيت الذي يسكنه الرجل الذي تحبين؟ أو صُنع لقمة تعرفين أنها في نهاية الأمر ستسكن جسده؟ هل منَّت عليكِ الحياة وأذاقتكِ شعور انتظاره في بيتٍ نظفته يداكِ ومملوء برائحة طعام صنعتِه له؟ تنتظرين لتملني قلبه حبًّا قبل معدته.

هذا المقعد سيجلس عليه؟ يا حظ المقعد الذي سيضمه.

هذه الطاولة سيسند بيده إليها؟ يا حظ الطاولة التي ستلمسه.

هل سيثني على الطعام؟ يا حظ الطعام الذي سيسمع كلمة حلوة منه.

كأنك تمسكين قلبه وتفتحين بابه، ثم تدخلين وتفتحين نوافذ الغرف ليدخل نور الله، تدلقين ماء بصابون على أرضه وتدعكين بيديكِ، هذا شيءٌ أتعبه؟ تغسلينه حتى تقضي عليه. هذا خوفٌ تركه في ركنٍ مظلمٍ وحين طاله النور كُشف؟ تضيفين مزيدًا من الصابون كي تتخلصي منه. هذا شيءٌ كان

يريده ولم يصل إليه فظلّت مرارته مُعلقة على حبلٍ في قلبه؟ اقطعي الحبل ولا تهتمي، ثم ألقي به من النافذة، لا حاجة لنا بالأغراض القديمة، وحين تطمئنين أن كل شيءٍ بقلبه يلمع، أغلقي النوافذ وعطريه.

هذا ما تفعله المرأة مع الرجل الذي تحب.

كانت شقة صغيرة بها غرفتان وحمام صغير ومطبخ، وفهمتُ أنها المكان الذي يسكنه منذ غضب عليه أبوه.

مسحتُ كتبه كلها وحركتُ المقاعد ورفعتُ فرش الأرض وألقيتُ عليها الماء، وحين انتهيتُ وجفَّت فرشتها مرة أخرى، غيّرت ملاءة الفراش وعطرتها وأخذتُ ثيابه المُلقاة على مقعد أمام المرآة والمعلقة خلف الباب وغسلتها، لم أصنع له طعامًا، انتظرته ليأتي ويقول لي ما يحب لأصنعه.

بعدما انتهيت، استحممت لأزيل الأوساخ من جسدي، ثم ارتديت الملابس التي أحضرتها معي، كان هناك مرآة صغيرة في الحمام وأمامها أدوات حلاقته،

حين رأيتُ نفسي بها مصادفةٌ ابتعدت خوفًا أن أفقد عقلي، لكن بعد ثانية أو اثنتين اقتربتُ مرة أخرى أتأمل ملامحي وشعري المبلل، كنتُ قد فقدتُ وزنًا كبيرًا لكن مقارنةً بالفتيات في القاهرة كان جسدي متناسقًا، لمست أدوات حلاقته مرة أخرى، لم أستطع منع عقلي من تخيله وهو يستخدمها، ثم تذكرت أن مجيئه اقترب فخرجت بسرعة وجلست على الفراش، تفكيري كان طفوليًّا بدرجة كبيرة، فكرت لو استطعت تصغير الشقة بسبابتي وإبهامي ووضعها في جيب الفستان الذي أرتديه، كما فكرت دائمًا في طريقة لتصغيره ووضعه داخلي، كيلا أتهشم وهو يقتحمني. وقفت أمام المرآة وضفرتُ شعري، نظرت إلى الفستان الذي أرتديه، كان أبيض اللون ويصل إلى ما بعد الركبتين بعشر أصابع، وبه جيبان كبيران.

كلما مرَّت ساعة أُطفئ بداخلي شيء، حتى أذن المغرب وبدأ الضوء يجمع أشياءه ويرحل، ضغطتُ زرًّا في الحائط لكن لم تنر المصابيح، كأن الكهرباء

مقطوعة عنده، بعد ساعة واحدة كانت الشقة كلها ظلام ما عدا ضوءًا بسيطًا لا يساعد بشيء جاء من النافذة في غرفة نومه بسبب القمر.

انتظرته طوال الليل، ساعة ساعة ولحظة لحظة، هيأت أذني لصوت فتح الباب وقرع خطواته، وفي كل لحظة يرجف قلبي كعصفور صغير، كما في الخيال تأخرت طلته، تأخرت في الحقيقة، وكأنه شعر أن قدرًا ما ينتظره، حبًّا سيجرفه ويغرقه، طوفانًا يجلس بهدوء وينتظره ليثور، ربما كان يشعر بمصيره فآثر الهروب، هربت من أرض الواقع وسرقني النوم على فراشه، كنت أنتظره حتى أفل نجمي حين أيقن أن الضوء خلا بوعد لم يقطعه.

أغلقتُ عيني ونمت دون أن أشعر، لكن بعد وقتٍ لا أعرف مدته، سمعتُ الباب يُغلق فاعتدلتُ بسرعة، ومسحتُ على شعري لأخفي عنه أثر النوم.

كأنه أحسَّ بوجود أحدٍ، سمعت صوته يسأل:

- أنتِ يا دادة فاطمة هنا؟

ابتلعتُ ريقي قبل أن أقول: «لا».

رأيته شبحًا يحاول أن يسند يده إلى شيءٍ كيلا يقع، ظننت بسبب الظلام، لكن وعي صادق لم يكن حاضرًا.

اختفى كل شي سوى صوت أنفاسه، فارتفعت وتيرة تنفسي، حركت يدي لأصل إليه، لم يكن خوفًا من الظلام التام بقدر رغبتي في إيجاد ركن من ضوء، حين لمست يدي ذراعه أمسكتُ به كقطة خائفة، أغلقتُ جفوني لأقع في ظلام آخر، رائحته أسكرتني، لم أكن أعرف حينها أنني أقف أمام رجل، لا أمام صادق، ولا أمام قلب أذابني وأحالني إلى شيءٍ وهاج يُضيء حُبًّا، جئته من بلاد أخرى طالبة ذراعيه، من وطن آخر أبغيه وطنا من جزيرة نائية أبحث عن مرسى، كنت أريد الحب الذي صوره لي عقلي، أن يفتح صدره لي ويُدخلني أكتشفه وأكتشف ذاتي معه، أن تُصهرنا ضمة، أن نذوب ببعضنا راضيين عن مصير نجهله ولا يشغلنا إلى من سنتحول، جئت أريد

الحب الذي حلمت به معه، هو من اختار هذا الطريق لي أن يكون الصائد والمصيدة، وأنا فأرٌ مسكين اقترف الخطوات جيدًا ليُكسر فكه. لم أكن أعرف الحب الآخر، ولم أكن أعرف أن هناك طرقًا غير الضمة يمكن التعبير بها عن الحب، وحين كانت ترتفع أحلامي كامرأة ناضجة، كان عقلي يصور لي أن يقترب من أذني ويهمس بشيءٍ من صدره فيرتفع الموج في صدري، ويطبع بشفتيه كلمة فيُعلمني نُطق لغته.

مرت أصابعه على وجهي ففتحت عيني بسرعة وانتفضت، حاولت رؤية وجهه لكن الظلام أبى، شعرت به يتحرك خلفي، يفك ضفيرة شعري ببطء، لمست أصابعه عنقي ثم تحركت للأسفل قليلاً لتفتح الفستان من الأعلى ويُكشف ظهري، رغم علمي أنه لا يرى مني شيئًا لكنني شعرت بوخز في ظهري، شيءٌ ينبهني أن أُحكم ملابسي وأهرب، أركض بعيدًا، لكن من أهرب؟

منه بعد كل هذا الركض لأصل إليه

رسم بأصابعه على ظهري وقبل أن أتخيل ما يرسمه اقترب فالتفتُ إليه أحتمي فيه، كنت خائفة، ليس لأن سلاحي وقع، ولا لأنني فجأة شعرت ببرد ينبهني بخطأٍ سيقع، ولم يكن خوفًا منه أيضًا، شيء يُشبه الخوف من المجهول لأنه مجهول وليس لأنه يستحق الخوف، لأنكِ لا تستطيعين تحديده كي تُحجِّميه.

فكرتُ أنه حتى لو خطأ سيحدث، أليس زوجي يا خالتي؟ كان هذا مبرري، أما هو فلا أعرف، ربما أفقده الظلام صوابه أو لعب خمر القرب في رأسهِ.

خرج صوتي له مرتجفًا: «أنا خائفة».

حين خرجت الكلمة كاملة أقفل فمي بفمه، لم تكن هذه صورة القبلة التي رسمتها، ظننت أنها ملامسة خفيفة لشفتين، فقط ليختبر بها مقدار اللهفة، أو نبث بها مقدار الحب، طريقة لنتلامس، لنُصبغ بلوننا، نخلق لونًا جديدًا.

وضعتُ يدي على صدره لأبعده، كنت أحاول تحريك جدار الزمن بارتعاش يدي، دفع الوقت بعيدًا أو جذبه ليعود، حاولت منعه، لكن خفت أن أعود بلا شفاه.

حين وضع جبهته على جبهتي عاد داخلي أمل أنه هو، الرجل الذي أحببت وليس الرجل الذي أمامي، وتذكرتُ في هذه اللحظة وأنا أتنفس بسرعة أخي إبراهيم، حين رأيته يُقبِّل صديقة وهو يودعها من بيتنا قبل خروج أهلها، شعرت وقتها كما لو أن مطرقة وقعت على عينيَّ، كما لو أن قيء العالم اجتمع داخلي، شعرت باشمئزاز وركضت حين خرج بها، وجلست جوار الفرن في وسط الدار وأنا خائفة، لم أغفر له فعلته، كلما حاول أن يلاعبني أو يُقبّلني يعاودني شعور الاشمئزاز منه فأبتعد، فسَّر الجميع سلوكي بغيرتي من زوجته لأنه كان يصب كامل اهتمامه عليَّ والآن أصبح لي شريكة فيه، لا أعلم لِمَ لَم أخبرهم أنني رأيتهما وهما متلامسان، وهو يضع يد على خصرها واليد الأخرى خلف رأسها، رأيته وهو يتناول منها، لقد أكلها أمامي، ربما لأنني بفطرتي شعرت أن ما فعلاه لا يَجب أن يعرفه الجميع وتوقعت أيضًا أنه لو عرف أحدٌ ما فعله أخي سيُعاقب هو وزوجته، ربما خفت عليه فعلاً أو خجلت أن أقول، لا أعرف سبب صمتي تحديدًا، لكن منذ ذلك الموقف وأدركت أن هناك أشياء لا يجب الفتك بسرها، يجب أن تبقى في الخفاء، أن تُدفن داخلنا ولا يعرفها أحد.

كنتُ أعرف أن هناك شيئًا يحدث ولا يجب أن يحدث، لكنني لم أستطع تحديده، أعرف أن فك ضفائري كارثة وقربي منه ذنب لا يُغتفر والشعور

الجميل الذي وُلد داخلي والذي جعلني أصمت ولا أدفعه مصيبة كبيرة، لكنني أجهل سبب كونه مصيبة.

وضع أصابعه في شعري، سألني بصوت ثمل: كم «عمرك؟».

خرج صوتي مبحوحًا: «خمسة عشر عامًا».

اقترب بشفتيه من عنقي وهمس: «كاذبة».

ظلَّ يقول كاذبة حتى أغمضتُ عيني، حتى ذُبتُ كقطعة سكر، لم يبق سوى صوتي وأنا أقسم: «والله خمسة عشر عامًا».

لم أفهم وقتها أنه لم يكن يكذبني، لذا لم أتوقف عن القسم. شعرتُ أنه في لحظة ما سيسقط، ثقل رأسه على كتفي، كنتُ سأضع أصابعي على وجهه، ألمسه، وجهه القريب من وجهي كان دليلاً على أن الأحلام تتحقق وأنه من الممكن أن نصل، لكن شعور أنه يفعل ذلك ولا يعرفني، أنه الآن يرتكب ذنبًاجعلني أبعده بقوة وكره وغضب ،وغيرة، بعدها أدركت أنني أبعدتُ صادق، حركت يدي في الظلام لأمسك يده وأجعله يقترب مرة أخرى، لكنني توقفتُ حين شعرتُ به يبتسم.

جاء صوته من بعيد: «أتعرفين كم عمري؟».

مَن يعرفه أكثر مني؟ من رآه حلمًا مثلي؟ من جمع الأمنيات كلها وكتب عليها اسمه كما فعلت؟

وقفت أمامه، سقطت الدموع من عيني، لم يشعر، لم أقل، جمعتُ شعري بيدي في جهة واحدة، قلتُ بثبات: «اثنان وعشرون عامًا وثلاثة أشهر».

سأل متفاجئًا: «وكيف عرفتِ؟».

قُلت والدموع لم تتوقف: «أخمن».

- تكذبين مرة أخرى؟
- لا أكذب لأول مرة.
- ما اسمك ؟
- لم يعد لاسمي أهمية منذ عرفتُ اسمك.
- لم تأتي إلى هنا لتنظيف البيت، أليس كذلك؟
- جئتُ لأي شيء له علاقة بك.

- إذا كنتِ لا ترغبين في أن تخبريني من أنتِ، ولا ترغبين أيضًا في اقترابي، إذن لِمَ جئتِ ؟

الحقيقة أنني توقعتُ أنه حين يراني سيفتح لي يديه ويعيدني إلى مكاني بين ضلوعه، سيقول: «آمال زوجتي!»، ولا تسألي كيف سيتعرف عليكِ وهو لم يركِ قبل الزواج، ولو كان رآكِ، كيف سيفرح بكِ وقد هرب منكِ!

حين ذهبتُ إليه، كنت أعرف أنني سأقف بمحاذاة رجل كامل أنني سأبارزه بضعف جسدي وقلة ما أملك، تخيلت كل شيء، لكن بالنهاية قُلت لنفسي إنه بالتأكيد سيعرفني، يا ضيعة عمر آمال إن لم يعرف!

قلتُ بعد صمتٍ: «لا أعرف يا سيدي».

- أرسلتك حكمت، أليس كذلك؟ هل يسكن أهلك بالقرب من هنا؟

- لا مكان لي، طردتني الدروب فجئتك.

- أتكتبين؟

- لا، لكن أفعل إذا كنتَ ستقرأ.

- أريد رؤية وجهك.

شعرتُ به سيتحرك بي جهة النافذة فأمسكت يده ليقف: «غابت الشمس، اسمعني».

صوته كان نائمًا وهو يحرك يده الأخرى على شعري حتى وصل إلى نهايته أسفل من خصري بقليل.

- هل قضيتِ عمركِ كله في إطالة شعركِ؟

- ألا تحب الشعر الطويل؟

- أحبه.

أغلقتُ فستاني من الخلف، ولأنني تركت يده كاد يسقط، فتأكدت أنه

ثمل، وحزنتُ لأنه يفعل شيئًا حرامًا.

ضربتِ بيدك على صدرك: «تقصدين يشرب خمرا! أعوذ بالله».

- كانت هذه المرة الثانية في حياته قبل هذا اليوم، المرة الأولى يوم سافر قبل الفرح، وهذا كله عرفته فيما بعد.

- هل أخبرتِه وقتها أنكِ آمال؟

- لم أكن لأفعل وهو في هذه الحال، غير أنه سقط مني على الفراش في لحظتها، خلعتُ له حذاءه وتمددت جواره حتى الصباح، طوال الليل وأنا أنام على الجانب الأيسر وأنظر إليه كأنني أطبع صورته داخلي، حبه لعنة، إلى الآن لا أفهم لِمَ أحببته بهذه الطريقة، لكن مَن تُحب المرأة منا غير زوجها؟ شعرتُ وأنا أتأمله أن كل خلية بي تقول له: «ادخل قلبي باسم الله لا ضرر عليك ولا ضرار».

حين دخل النور من النافذة وقفت بسرعة وأغلقتها، سحبتُ الحجاب والملاءة السوداء لففتُ بها جسدي وخرجتُ قبل أن يستيقظ. قررتُ أن أذهب إلى بيت السيدة حكمت لأحضر ملابسي والمال الذي جمعته من خدمتها ومن الخياطة وأعود إليه، أصنع له الفطور وأخبره بكل شيء.

كان الجميع ما زال نائمًا، لكن الدادة فاطمة استيقظت من الصوت الذي أصدرته وأنا أجمع ملابسي.

اعتدلت مخضوضة حين رأتني: «أين كنت يا آمال؟».

ألقيتُ نفسي في حضنها: «ضُميني يا دادة».

- بسم الله، أحدث شيء؟ قالت حكمت هانم إنه لربما احتاج إليك صادق بيه في شيء، لكن أكلني قلبي عليكِ.

ابتسمتُ وأنا أبتعد: «لا، لكنني وجدتُ الطريق الذي جئتُ من أجله، سامحيني يا دادة مضطرة إلى أن أذهب، لكن أظن أنني سأتي إلى هنا كثيراً».

- أنا لا أفهم شيئًا، هل أغضبكِ أحدٌ هنا؟

- على العكس والله، بل أكرمتموني ولن أنسى أبدًا أي لحظة عشتها هنا. لكن يجب أن أذهب.

- ولو سألتني عنكِ حكمت هانم؟

- لا تقولي شيئًا، سأتي إليها بكل تأكيد.

مددت يدي بمفتاح بيتها: «خذي مفتاح بيتك يا دادة».

طبقت يدي عليه: «لا اتركيه معك، ربما تحتاجين إليه يومًا، والله لا أريدك أن ترحلي، لكن أنتِ أدرى بحالك مني، ستتركين فراغًا كبيرًا يا آمال».

قُلتُ بثقة وأنا أبتسم: «لا تخافي، سأعود».

خرجتُ من البيت الذي فتح يديه لي، تأملته قليلاً من الخارج، رغم سعادتي لكن قلبي كان يؤلمني لأنني لن أحمل كمال بعد أن اعتدتُ ذلك كل صباح، لم أركب سيارة، بل سرتُ الطريق منتشية، وقفتُ أمام عربة خضار في طريقي حين تذكرتُ أن المطبخ ينقصه أشياء، أذَّن الظهر عليَّ وأنا أدفع للرجل حق الخضار، فكرت أن أشتري فولاً ساخنًا وطعمية لكن يدي كانت بدأت تؤلمني مما تحمله، أخذتُ الطريق سيرًا لعلي أرى شيئًا ناقصًا هناك فأتذكره، خصوصًا بعدما أيقنتُ أنني لن ألحق الفطور أبدًا وأنني حين أصل سأصنع الغداء.

وصلتُ قبل أذان العصر بقليل، وكان إحساس أن يصل الإنسان إلى البر ويضع قدميه على اليابسة أخيرًا وصولا إلى مبتغاه، وضعت الأشياء أرضًا لأطرق الباب رغم وجود مفتاح معي، كنت خائفة أن يرفضني، لكنني لم أفكر في شيء سيئ، قلت إنني بعد وقتٍ طويلٍ أتذوق السعادة ولن أسمح لأي شيء أن يقلقني. لم يفتح فوضعتُ المفتاح بالباب وقبل أن أفتحه سمعت صوت امرأة خلفي تسأل: «هل أنتِ الساكنة الجديدة؟».

سألتها: «هل تسكنين هنا؟».

أشارت إلى الشقة المقابلة: «أنا جارتك، سبحان الله الأستاذ صادق ترك الشقة ظهرًا ووجد المعلم منصور مستأجرًا غيره عصرًا، أرزاق».

رددتُ الكلام وراءها بلا وعي: «ترك الشقة!».

- سافر لندن العقبي عندك، لكن لم تخبريني عن اسمك، وأين عائلتك؟

- لندن؟

- هل أتيتِ لتسألي عنه؟ لا تؤاخذيني رأيتُ معكِ ثيابًا ومفتاح البيت وهو أعزب فظننتك مستأجرة جديدة، هل أنتِ أخته أو قريبته؟

تحشرج صوتي وسقطت دموعي مني وأنا أردد: «سافر؟».

جلستُ على الأرض مكاني، هدَّني التعب، ها أنا ركضتُ الطريق كاملاً لكنني لم أصل.

وضعت يدها على رأسي وسألتني بفضول: «هل سافر دون أن يخبركم؟ أنت أخته، صحيح؟».

لا أعرف كم جلست ولا متى اختفت تلك المرأة، تركت الخضار وسحبت الثياب من ربطتها ونزلت.

قلتِ وأنتِ تمسحين على يدي: «يا عين خالتك، طول عمري أقول إن هذه الفتاة لا حظ لها».

- ليست مسألة حظ، وقتها فكرت أن الله لا يحبني، وأن الحياة نفسها ترفض وجودي، لكن الآن أقول لكِ، كان هناك طريقٌ آخر عليَّ السير فيه، من أجل ذلك، أغلق الله هذا الطريق، اختفى صادق، ظهر يومًا واحدًا في حياتي، ملأني به ثم اختفى.

- شُغلت عليكِ، لكن حين أخبرني الشيخ درويش أنكِ في مكان جيد في المحروسة، اطمأننتُ قليلاً، لا تعلقي على الكلام الذي سأقوله، لكن بعد رحيلك عرفتُ أنني تعلقتُ بكِ، وأنني كنتُ أحتمل حياتي لوجودك فيها،

طلَّقني جمال بعد وفاة الباشا بأسبوع واحد، لأن عطاياه انقطعت بموته، ولم أحزن وأيضًا لم أخبره أن الباشا أوصاهم بإرسال مبلغ لي في بداية كل شهر، قُلت ماذا كان يفعل لي غير الضرب والإهانة، ورأيتُ أن المثل الذي نقوله «ظل رجل ولا ظل حيطة»، غير كامل، ليس أي رجل، أحيانًا يكون الجدار أحن. أخطأتُ يا آمال، حرمني الله العيال

ومنحني إياكِ، هذه هي الحياة، فقدتِ أمكِ ورزقتِ بي، وبدلاً من أن أستغل الفرصة، تركتها خوفًا، مَن منا يحصل على كل شيء كاملاً؟ دنيا ولا تدوم لأحدٍ.

قُلتُ: «اكتشفتُ هذا الأمر متأخرًا، أن الحياة لا تدور حولي أنا فقط، وأن فقدي لأشياء يعني أن غيري سيمتلكها، أن حزني سيكون سعادة لغيري، اليوم الذي فقدت فيه مصر صادق، امتلكته لندن، واليوم الذي فقدته فيه بالتأكيد استقبلته أنثى غيري، أي إن اليوم الذي بكيتُ فيه، ضحكت فيه أخرى، هذا يحدث لأن الحياة يجب أن تسير، وهي تدور حولنا كلنا».

- وماذا فعلتِ بعد خروجك من هناك؟

- شعرتُ بالضياع يا خالتي، خرجت إلى الشارع المزدحم وأنا أتنفس من فمي كأنني محمومة، شعور أن يتكلل ركضك بصدمة أنك ما زلتِ في بداية الطريق، لم أكن أبحث عن صادق، كنتُ أبحث عن خلاصي، عن شيءٍ يُنقذني من الضياع، عن طريقٍ لا يخون، يشير إليَّ بصدق من قلبه تمامًا، القلوب لا تكذب.

بدوتُ نملة، السيارات لا تكف عن المرور، أصواتٌ في كل مكان، ووقفتُ وحدي ضئيلة في منتصف الشارع، حين مرَّ بي جماعة من الناس التصقت بحائط البناية، خِفت أن يحطموني وهم لا يشعرون.

كنتُ قد خسرتُ، تذوقتُ مرارة الخسارة، ولا تسأليني عمَّا خسرته، لأنه ليس شخصًا ولا شيئًا، أنا مثلاً لم أفكر أنني فقدتُ صادق في هذه اللحظة، رغم أنني لم أكن أفكر في شيءٍ فإنه ظلَّ داخلي شعور امرأة عاشقة فقدت

حبيبها بأنها لم تفقده بعد، وأن الحياة سترأف بها وتضعه في طريقها على سبيل المفاجأة التي تخلع القلب فرحًا، لكنني خسرتُ حدثًا، شيءٌ ما ترك في حلقي طعم البكاء.

سرتُ في الطرقات كالضائعة حتى أقبل عليَّ الليل، لا بيت لي ولا مأوى أركض إليه.

هل زحفتُ لأصل إلى بيت الدادة فاطمة؟ لا أذكر، لكن بطني ينقبض كلما تذكرت، كأنني زحفتُ عليه، كأنه استقبل الطريق ليصل إلى نهايته، كرهته؟ لم يكن كرهًا، ربما حقدًا، الأمر يُشبه أن تكوني مستعدة تمامًا، أن تسقطي أمام قدمٍ تُقبلينها بكل حب، تتدربين على الأمر كي يبدو حبًّا لا ذلاً، تسيرين حاملة كفن كرامتك على يدك بكل سعادة، وحين تصلين تنظر إليكِ الحياة على أنكِ بعوضة لا كرامة لها، حتى ذُلُّك تأنف منه، تخيلي أن توافقي على

الذل وترفض الحياة!

لم أكن أعرف وقتها أن هذا الموقف هو النقطة الفاصلة في حياتي، صفحة حين أقلبها ستبدأ قصة جديدة، في هذه اللحظة تحولتُ من آمال إلى أمل، هكذا، بكل سهولة، المواقف التي تقتلك لا تستأذن قبلها، وحقك أن تختاري، إما أن تستسلمي للموت، وإما أن تفاجئي الحياة باسمٍ جديد وشخصٍ جديد وقصة جديدة، تمدي يدكِ لها كعلامة للبدء من جديد.

هل حصلتِ على إجابة سؤالك يا خالتي؟ هل عرفتِ ما الذي أوصلني إلى ما أنا عليه الآن؟

***

توقفتُ عن الحديث حين شعرتُ بركلٍ في بطني، صرخت وأنا أنظر إليكِ: «أنا ألد!».

سحبتِ حجابك من فوق رأسك، كوَّرتِه ووضعتِه في فمي، رفعتِ الفستان وأنتِ تقولين: «اضغطي اضغطي، فُتح كيس الماء».

نمتُ على ظهري من شدة الألم، ضغطت بأسناني كيلا أصرخ، بين الدقيقة والأخرى تقولين لي: «هل جعلتك المحروسة ورقًا؟ ولدتك أمك في هذا المكان وبلا مساعدة، وبعد أن انتهت حملتك في ثيابها وجاءت إلينا، وفي اليوم نفسه أشعلت الفرن للخبيز، هيا اضغطي».

كأن عظام جسدي السفلى تُكسر، ولحمي يتمزق، أحسست لحظتها أن الروح التي ستُخلق تُؤخذ مني، نظرتُ إلى السماء كانت الشمس قد بدأت تغرب، الله في الأعلى يراني، يخلق مني روحًا أخرى في هذا العالم الواسع، يأمرها أن تخرج مني، خلقني لأحمل أمانة في رحمي والآن جاء وقت خروج الأمانة، اختارني سببًا يمنح من خلاله الحياة لعباده.

غاص قلبي بي حين شعرتُ بخروج شيء، ضغطت حجابك بأسناني، روحي كأنها ترتفع وتخرج، شعرتُ بالتعب فاسترخيت، صرخ الطفل فأغلقتُ عيني وأنا أبتسم.

هذه العملية المعقدة، جسدٌ داخل جسد، ينمو، يتحرك، يتنفس، ثم يخرج بطريقة أغرب من وجوده، روح انفصلت عن روحي، وجسد كنت الوحيدة التي أشعر به، حب خُلق داخلي لحظة معرفتي بوجوده.

يا حبيب القلب!

قلب الأم الذي قضى ليالِيَ يدعو الله أن يجعل حظ طفلها أفضل من حظها، ألا يذيقه ألمًا ولا يبكي عينيه أبدًا، أن يرأف به وبقلبه، يجعله كما يحب ويرضى، قلب الأم الذي أحبه دون أن يراه، جاءت اللحظة التي تقول له الحياة

فيها: «متِّع عينيك».

فتحتها على صوتكِ وأنتِ تقولين: «إنه ولد يا آمال، ولد».

تقولينها بسعادة، هل كانت فرحتي ستقل لو كانت فتاة! هل الحب الذي ملأني سيتبخر لحظة معرفتي أن ما أحببته فتاة؟

قلت لكِ بإجهاد: «رزق الله كله جميل، والحمد لله الذي لم يحرمني من هذا الشعور قط».

ابتسمتُ حين رأيتك تضمينه لصدرك.

قُلت: «أظن أن هذا أول طفل تضمينه هكذا».

- وأنا أيضًا، الحمد لله الذي رزقني هذا الشعور، حتى لو لم يكن مني. شدي حيلك يا آمال، سنقوم حين يطل الليل، تحملينه خلف الحجاب ونصل إلى بيتنا ولا نلتفت، الله يستر.

وضعتُ يدي على بطني حين شعرتُ بالألم، سألتِني: «هل اخترت له اسمًا؟».

قلت وأنا أنظر إليه: «حسن، سأسميه حسن».

***

من أحاديث الشيخ درويش:

«يا جزاء الصابرين على شوكِ الأحداث، والسائرين الطريق بلا درع يحمي من التعثرات، والمنتظرين فرجًا رغم الأبوابِ المُغلقة، والمحتمين بدعوة من ذئاب المواقف.

يا موفّي الصابرين أجرهم ومُلهم السائرين الصواب، ومُفرّج كرب المنتظرين، ومُستجيب دعوة الداعي إذا دعاك».

ها نحن في البيت أكلت وأكل الطفل، قربته من جسدي حتى يأكل، معجزة أخرى، أن يجعل الله الجسد الذي حمله، الجسد نفسه الذي سيطعمه، في أول الأمر شعرتُ بشيءٍ غريب حين لمسني، ألم خفيف مصاحب لرهبة، نظرتُ إليه وأنا خائفة، هادئًا الآن لكن لن يبقى وقتًا طويلًا حتى ينكشف أمري، صوت بكاء الطفل كيف سأداريه؟

نظرتُ إليكِ: «ماذا سنفعل يا خالة؟».

- وهل خالتك تعرف من أين جاء هذا الطفل لتعرف ماذا سنفعل! وإذا كنتِ تظنين أن هناك رجلًا واحدًا في هذه القرية سينصفكِ، فأنتِ مخطئة،

البلد كلها قائمة قاعدة لا سيرة لها سوى حديثك، والرجال يظنون أن روحًا شريرة مستك.

- وماذا قُلت يا خالتي؟ ما الخطأ الذي ارتكبته؟ الجميع يجب أن يعرف أنهم شاركوا في قتل الخالة سميرة، وأن هناك ألف سميرة تموت كل يوم. والله لا قدرة لي على الضحك، وهل المطالبة ببناء مدرسة للبنات جعل روحي شريرة؟ اسمعيني أنتِ، هناك شيءٌ مفقود بيننا وبين الرجال، لفترة طويلة مارسوا حقوقهم وطمسوا حقوقنا، منعونا من التعليم ومن الكلام ومن التعبير، خالفوا الدين الذي أوصاهم بنا، ولا أعرف سبب تصرفهم، والآن الحملات التي تنادي بحقوق المرأة ستأخذ منحنى آخر، لن يطالبن بحقوقهن فقط، بل سيطلبن المساواة مع الرجل في الحقوق والواجبات، وربما تصل المطالبة بالمساواة فيما شرعه الله مثل الميراث، دون علم أن الله أنصفنا في الميراث، وأن المرأة التي تأخذ نصف الرجل تأخذه لها وحدها، أما الرجل الذي يأخذ ضعفها فإنه يصرف منه على بيتٍ فيه امرأة أخرى، لأن المرأة غير مطالبة بدفع مالٍ في بيت زوجها.

الحال ستنقلب، وأنا كل ما أريده هو أن يعرف كل طرف حقوقه وواجباته التي تتناسب معه.

- لماذا تشترين وجع الرأس يا آمال؟ يعرفونها أو لا يعرفونها، ما خصنا نحن بذلك الهم؟

تنهدتُ وأنا أقول في تعبٍ: «لم أشترِه، هو صعد وجلس على أكتافي».

- ومن سيبني المدرسة؟

- نساء القرية، ربما لا أعرف، أشعر بأن بناءها سيكون تكفيرًا عن ذنبٍ ما.

نظرتِ إلى حسن: «وهذا الطفل، من أبوه؟».

اعتدلتُ ووضعته جواري: «سأكمل لك بسرعة، لأنني أشعر أنه لم يعد هناك وقت، أين وقفت في الحديث؟».

- حين دخلتِ بيت فاطمة، ماذا حدث بعدها؟

- لا شيء، لم أنم، بكيتُ حتى انتفخت جفوني، كان صوت القرآن مرتفعًا من القهوة أمام بيت الدادة فاطمة، يقرأ سورة مريم، وحين وصل إلى

«قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَـٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا»، ارتفع صوت بكائي حتى كدت أموت والله، وظللت أرددها حتى نمت مع مجيء الصباح، ظننتُ أنني لن أستيقظ أبدًا.

هذه المرة فهمت معنى كلمة رفضني، ولم أكن حزينة بسبب رفضه لي، وإن كان الأمر خلق جُرحًا لن يندمل ولن يحاسب على نتيجته غيري، وإن كنت شعرتُ بطعن متوالٍ في كرامتي، وإن كنتُ بكيتُ ليلتها وأبكي كلما أتذكر.

استيقظتُ على صوت زينب وهي تسألني في خوفٍ عن سبب وجودي.

كنتُ نائمة على كنبة أسفل النافذة، جلست أمامي حين جلستُ وأنا أمسح وجهي.

سألتني بترقب وهي تقترب: «ماذا بك يا آمال؟».

بكيتُ وأنا أضع رأسي على صدرها، حاولت أن أقول لها كل شيء، لكن كل شيء خرج في كلمة: «خسرت يا زينب».

مسحت بيدها على وجهي، صمتت قليلاً ثم سألتني: «هل طردتك السيدة حكمت؟ لا أظن، إن قلبها أبيض ولا تفعل ذلك أبداً».

اعتدلتُ وأنا أقول بلهفة: «خذيني معك يا زينب، خذيني إلى السكن الذي تعيشين فيه مع صديقاتك، وأنا سأدفع معكن في إيجاره والله، الدادة فاطمة سامحتني في هذه الماكينة، سآخذها معي وأصنع الشيء الوحيد الذي أجيده».

- اهدئي يا آمال وقولي لي ماذا حدث.

- خذيني أرجوكِ، لا يهم ماذا حدث، لكن أخرجيني من هنا.

- حاضر والله، لا أظنهن سيعترضن، لكن اهدئي.

بقينا صامتتين ننظر إلى بعضنا حتى أذان العصر، كل نصف ساعة تقرب مني الطعام وأرفضه.

صليتُ وبقيتُ في غرفة زينب أبكي، تذكرت كل حدث سيئ في حياتي، موت أهلي، ضرب جمال لي، سجني في مكانٍ لا يُشبهني وحين رأيتُ ضوءًا واقتربت منه احترقت.

في الصباح أخذتني معها، لم أقل شيئًا سوى أنني حلفتها بالله ألا تقول شيئًا للدادة فاطمة ولا تقول لها إنها رأتني حتى، أخذنا الماكينة معنا وتركت حجابي بدلاً منها.

لطمتِ على وجهك: «خلعت حجابك يا آمال».

- لا تلوميني يا خالة إذا كان لي عندك خاطر، خلعته مثل زينب ومثل صديقات زينب، مثل بنات الجامعة التي حُرمت منها، ومثل البنات اللاتي سيلتقيهن صادق، لم يكن هناك سبب كبير ولم أقتنع بالحركات التي كانت تطالب بخلعه من أجل التحرر، لأنه لم يكن قط سجنًا لي، ولا تقولي إن الكتب السبب، لأنني أيضًا لم أقتنع بما كتب في كتاب «المرأة في الشرق» الذي دعا المرأة إلى التحرر وخلع الحجاب للمساواة بالرجل لأنني فكرت وقتها إذا كان الحجاب الذي سيمنعني من التساوي بالرجل، لِمَ لا أحلق شعر رأسي مثله لأكون مثله؟ ما دام الأمر يعتمد على المقارنة في الشكل. ولم تزعزعني المجلات النسائية التي وصفت الحجاب بالرجعية مثل مجلة الفردوس ومجلة مرآة الحسناء ومجلة فتاة الشرق، ومن بعدهم مجلة المصرية ومجلة المرأة الجديدة التي أصبحت الدعوة فيهم واضحة وصريحة، لم أقتنع لأن الحجاب يوضع على الرأس لا على

العقل. والله كان هناك سبب أكبر ، سبب لا أعرفه، لم أكن مقتنعة لكنني فعلت، كأنني كنت ناقمة على كل شيء، ومعترضة على ما أنا به، ولم أجد شيئًا أفعله سوى ذلك، لأنني لم أقوَ على قتل نفسي فبدلتها.

«عزيزي القارئ، إن كنت تقرأ هذه النسخة على شكل كتاب مطبوع فتأكد من أنك تقرأ نسخة مسروقة وليس لمن طبعها الحق في البيع والشراء.. وهذه النسخة بالأصل هي نسخة إلكترونية تم تجهيزها من فيلق مكتبة ضَماد[!] الإلكترونية على تطبيق تيليجرام! فتأكد من أنك تحمّل هذه الرواية وتقرأها من قناتنا الرسمية. نعتذر على المقاطعة، قراءة ممتعة..

هل تعرفين لماذا لا نقارن شيئًا بالرضا؟ ولماذا نعتبره أثمن ما يمكن أن يمتلكه إنسان؟ لأنه الشيء الوحيد الذي يعبر به من الأزمات دون أن يتغيَّر، تمر الأزمة به وهو راضٍ مرتاح البال، متأكد أن الله لن يتركه، وأنا في ذلك الوقت لم أكن متأكدة، لأن الشيء الوحيد الذي تمنيته فقدته مثل كل شيء، لا تلوميني يا خالة، ماتت آمال لحظتها، تركتها هي وحجابها وأفكارها وهدوءها أمام المواقف، وخرجت امرأة أخرى، لا أريدُ لومًا على خطأ فعلته لحظة غضب.

***

[!] للانضمام إلى القناة الرسمية أدخل اليوزر التالي في محرّك بحث تيليجرام: @twinkling4

قبل أن أضع قدمي في الشقة التي تقع في شارع البستان في باب اللوق، قالت زينب التي ظلَّت صامتة الطريق كله، كل ما تفعله هو تبادل حمل الماكينة معي:

- نحن هنا ثلاثة، وستكونين الرابعة.
- زينب، من فضلك قولي لهم إن اسمي أمل، وانسي اسم آمال.
- لدينا حديثٌ طويلٌ أنا وأنتِ، ادخلي أولاً.

لا أعرف من أين جاء اسم أمل، لكنه كان يليق على الصِغَر الذي أشعر به.

كان يسكن معها في الشقة عصمت وفوزية، حدثتني عن عصمت قبل ذلك اليوم حين كنا نسير معًا في شوارع القاهرة، عصمت فتاة غاضبة وناقمة على كل شيء له علاقة بالرجال، لكنها في الوقت ذاته ترتدي بنطالاً مثلهم وشعرها قصير جدًّا مثلهم. أغلب حديثها تبدؤه بكلمة «لكنني أرى» في محاولة منها لوضع رأيٍ تحته اسمها لا أكثر.

ابنة أبيها الوحيدة الذي عاش عمره كله يتمنى أن يرزقه الله بالولد، لكن لسوء حظه أو لحسنه، رزقه بعصمت.

وفوزية، الفتاة الحالمة، تسقط في رسائل الحب فاقدة الوعي وتنتظر الرجل الذي سيقف عند محطة الترام ويقول لها في محاولة لبدء حديث:

«بونسوار يا هانم»، لكنها لن تتهمه بأنه قليل أدب ولا يفهم في الذوق، هكذا يبدأ الحب في الروايات التي تقرؤها.

وزينب، بها صفات من عصمت وصفات من فوزية.

كنت أعرفهما من كثرة الحديث عنهما، وكل ما كانتا تعرفانه عني من زينب أنني أجيد الحياكة.

شقة صغيرة في عمارة لصاحب الأسطى راضي والد عصمت، لذا وافق على إعطاء ثلاث فتيات بمفردهن شقة، كان والدها يتصرف معها على أنها رجلٌ وهي أحبت الفيلم وأكملت فيه.

لم يكن في الشقة إلا فوزية، التي كانت تنام على ظهرها على الأريكة وتقرأ شيئًا، اعتدلت حين رأتنا، توقعت أن شعرها طويل وملامحها ناعمة وتوقعي كان صحيحًا.

قالت لزينب: «قلتِ إنك ستأتين ليلًا، ألم تذهبي لطنط فاطمة؟ ومن هذه؟».

أمسكت ذراعي وأجابتها بعد أن وضعت الماكينة على أول شيءٍ قابلها: «هذه أمل، صديقة عزيزة لي، ليس لها أحدٌ هنا وستعيش معنا، على الأقل حتى ننتهي من الجامعة وبعدها يحلها حلَّال ».

اقتربت مني بسرعة كأنها تستكشفني: «وأنتِ يا أمل في أي جامعة؟».

- لم أتعلم.

ضحكت: «الحمد لله أن عصمت ليست هنا وسمعت هذه الإجابة، كانت ستصبح كارثة».

وضحت زينب وهي تخلع حذاءها: «لكنها تقرأ وتكتب وعقلها يزن بلدًا كاملة».

جذبتني من يدي: «تعالي اجلسي، يبدو أن حكايتك حكاية».

لم تتركني زينب أجلس، قالت لها إنني سأرتاح وأخذتني للغرفة التي تقع جهة الباب، غرفتها هي وعصمت، بها سريران، لكنني في نهاية اليوم نمتُ على فراشٍ واحد مع فوزية في الغرفة المجاورة.

ساعة ونصف الساعة عبارة عن محاولات من زينب لتفهم مني ماذا حدث، ولم يكن حدث شيء يُحكى لأخبرها، أخذتُ منها عهدًا ألا يأتي اسمي مرة

ثانية أمام الدادة فاطمة، قُلت إنني أريد أن أبدأ حياتي كيلا أُنهيها بطريقة لا يرضاها الله، وإنه رزقني عمرًا لأعيشه حتى يأتي أمره.

جاءت فوزية بشوربة ساخنة وهي تقول: «اشربيها وقولي لي رأيك».

ذكرتني بأمي فاطمة رحمها الله، وبالدادة فاطمة أيضًا، كأن الحنان ترثه النساء منذ لحظة الولادة.

سألتني فوزية: «وهل قريتك بعيدة يا أمل؟».

- جدًّا، لدرجة أنني لا أستطيع العودة إليها.

- ولماذا جئتِ إلى القاهرة؟

- لم يعد لي أحدٌ هناك.

- يا حبيبتي! لكن لا تحزني، يمكنك اعتبارنا أهلك، قلبي فُتِح لكِ.

خرجنا ثلاثتنا على صوت الباب وهو يُغلق وبعده صوت مرتفع يقول: «يا أهل البيت، ألا تعرفون ماذا يحدث في الخارج؟».

سألت فوزية: «ماذا حدث يا عصمت؟».

وقفتُ أتأملها، فتاة ترتدي بنطالًا في وقتٍ تحارب فيه النساء لكشف وجوههن لا أكثر، لكن عصمت مسنودة من رجل، والدها، هو يريدها رجلًا ووافقتْ.

- الدنيا مقلوبة، وقررنا نحن الطلاب بأن نأخذ خطوة لننهي هذه المهزلة، ألسنا عصب الأمة كما يقولون؟ آن لبريطانيا أن تسمع مطالبنا.

صمتت قليلاً وهي تنظر إلي: «لكن مَن الحلوة؟».

ردَّت زينب: «سأخبرك بكل شيء، أخبرينا ماذا يحدث أولاً».

وضعت يدها على الماكينة تستند إليها: «يا زينب يا فوزية هذه فرصتنا لنترك علامة مثل الرجال تمامًا، ألا نلدهم؟ ألا نربيهم؟ ألا نعلمهم القيم؟ ألا نجعلهم رجالاً؟ وحين يتحدثون عن دورنا في الحياة، لا يرون لنا مكانًا سوى البيت والمطبخ.

صرَّح السير صمويل هور أن دستور 1923 غير مصرح للعمل به في مصر ودستور 1930 ضد رغبة الأمة، وقصد أن يقول ذلك في الوقت الذي تحتفل فيه مصر بعيد الجهاد، يظنوننا عبيدًا، الآن قرر الطلاب الخروج في مظاهرة، الطلاب تشمل الرجال والنساء، والنساء قبل الرجال، هل يفرق الاحتلال بيننا في المعاملة! هذه بلدنا ومن حقنا أن نشارك في أي شيءٍ يخصها».

ردت فوزية: «في الأصل عدد الطالبات النساء قليل جدًّا، مالنا ومال المظاهرات، هل سنستطيع الدفاع عن أنفسنا إذا ضُربنا؟ نتركهم للضرب».

قالت عصمت باشمئزاز: «أعرف أنني سأسافر بلدانًا لأقنعك بشيءٍ، أقول لكِ؟ ادخلي اصنعي لنا طبق بامية واتركي الأمور التي لن تفهميها».

ردت باستفزاز: «وهل ستخرجون إلى المظاهرة دون طعام؟ بالتأكيد لا، إذن أنا دوري مهم جدًّا بالنسبة إليكم».

ألقت عصمت عليها مفرشًا موضوعًا على المقعد بعصبية قبل أن تركض فوزية إلى المطبخ وهي تضحك.

جلست ووجهت كلامها لزينب بسخرية: «وأنتِ طبعًا لن تأتي معنا، لأن طنط فاطمة تخشى عليكِ مثل عيونها تمامًا».

قُلتُ لها: «إذا كان ينفع، سآتي أنا معك».

وقفت وهي تقول بحماس: «ينصر دينك، لا تهتمي بهما، لكن ما اسمك؟».

وجدتُ ضالتي، بعدما انتهت المظاهرة عرفتُ لِمَ ركضت هذا الطريق، أنا كنتُ أبحث عن ذاتي، أبحث عن أمل الحرة، أمل المطالبة، أمل التي لها صوت وتصرخ به في الساحات، ووجدتها.

خرجتُ أنا وهي، ولم أهتم بحديث زينب ومحاولة منعي من الأمر، وتبدد شعوري بالحرج بعدما وجدت طلاب الجامعة كلهم يخرجون منها وينضم إلينا طلاب المدارس مثل مدرسة التجارة المتوسطة ومدرسة السعيدية، لستُ طالبة لكنني مصرية وهذا ما كان يجمعنا، كنا نطالب بسقوط الحكومة وأعلنا

موقفنا تجاه تصريح هور، ورأيتُ الفراشات في كل مكان يا خالة، امتلأ العالم بالألوان، صرختُ مثلهم، صرختُ احتلالنا واحتلالي، صرختُ مصر وصرخت آمال، وخرج الصراخ مني بكاءً بصوتٍ مرتفع تحوَّل بسرعة إلى سعادة لم أتذوقها من قبل، رائحة الحرية تشبه رائحة شاي أمي، ورأيتني بأجنحة كبيرة وأحلق من فوق، أشير إليهم إلى كوبري عباس، بعتُ الدنيا وبعتُ صادق واشتريت فتاة جميلة، صرختها تزلزل الخوف وصوتها كلمة حق، فتاة تعرف إلى أين تحديدًا يجب أن تسير، هذه الفتاة هي أمل.

تحول الصراخ بحرية إلى صراخٍ بخوف حين سمعنا الطلقات النارية، وعرفتُ هذا أن كل شيء في الدنيا له مقابل، سقط من الطلاب جرحى وشهداء منهم طالب بكلية الزراعة اسمه محمد عبد المجيد مرسي وطالب بكلية الآداب مع زينب اسمه محمد عبد الحكم الجراحي، تأججت الثورة بنا مرة أخرى حين أخبرنا طالب اسمه محمد بلال وكان طالبًا بكلية الطب عن حال الطلاب المصابين.

استشهد أيضًا طالب اسمه طه عفيفي، ومن هنا عرفتُ أن محمد بلال ليس طالبًا عاديًّا، بل سبب من أسباب سكب الغضب في نفوس الطلاب وحثهم على المظاهرة، طالب بأن يُشيع جثمان طه عفيفي وزميله في جنازة شعبية تليق بهما، وتقدم بعريضة لوزير المعارف لكنها رُفضت.

فخرجنا غاضبين في صباح اليوم التالي إلى أقرب الثكنات الإنجليزية لنصل إلى قصر عابدين، لم يتعب صوتي قط، بل ارتاح بعد تعب طويل من سجن الصمت، لكنها انتهت بالقبض على مئات الطلبة منهم إبراهيم شكري.

موقف آخر جعلني أحترم هذا البطل هو أنه وبمساعدة زميل له سرقا جثمان طه عفيفي ووضعاه في مدرج المحاضرات، ولا تعرفين ماذا حدث بعدها، اهتزت الوزارة كلها لاختفاء الجثمان وفتشوا منازل الطلبة واشترط منهم أولًا تصريح رسمي بالجنازة ولم يقل عن المكان إلا بعد مكالمة من مصطفى باشا النحاس يؤكد له أن وزارة الداخلية وافقت، وقامت الجنازة كما أردنا.

لا أقول لكِ على إحساسي وأنا أبتلع المعلومات بلعًا، لم تكن آخر مظاهرة أشارك فيها، لأن طلبة الجامعات لم يتوقفوا عن الخروج في مظاهرات، نخرج ونهتف بصوتٍ عالٍ: «اليوم حرامٌ فيه العلم»، «يحيا الوفد ولو فيها رفد». عرفني الكثير منهم وأغلبهم من كلية الآداب.

هل تعرفين حزب الوفد؟ أقسم إنكِ تعرفينه اسمًا فقط، السيدة هدى شعراوي ومطالبها؟ مصطفى باشا النحاس؟ ما يفعله الإنجليز كل يوم من انتهاكات؟ كنت أسأل هنا وهناك وأصاحب هذه وتلك وأنضم لأي تجمع فيه ما يزيد على عشرة رجال وكأنني أعوِّض ما فاتني، أرأيت كيف أصفرَّ وجهك؟ العالم واسع يا خالة فوق ما تتخيلين، واسع ونحن هنا في هذه القرية ندفن رؤوسنا في تراب الأرض وكل مشكلاتنا تدور حول العمدة وظلم شيخ الحصة ولُؤم شيخ الخفر، مَن حملت ومَن شاء الله أن يمنع عنها هذا

الرزق، مَن تزوجت ومَن تأخر زواجها، لعلمك هذه أيضًا خطة يمارسونها وهو أن القيكِ في مشكلات لا حصر لها، كي تنسي المشكلة الأكبر.

المسجون الذي سيموت جوعًا سيبحث عن الطعام أولاً ثم يفكر في الحرية، لذا يمنعون الطعام والشراب ويخلقون مشكلات، لنُجهد في حلها ولا يتبقى طاقة للمشكلة الأساسية.

قرِّبي مني القلة كي أشرب، جفَّ حلقي.

***

من الحكايات الموجعة عن الأوطان، أن يكون وطنٌ جميلٌ جدا لدرجة أن يطمع فيه الآخرون، ولا يريدون اتخاذه وطنًا، بل عبدًا، وتزداد المشكلة سوءًا أن يكون الوطن تعلَّم منذ لحظة نشأته الكبرياء، لن يرضخ حتى لو اتسع القفص.

«أيها السادة، مصر للمصريين، وبإمكاننا أن نموت لنكسر قيدها ونُعيدها حرة، أو نموت ونحن نحاول، ليس لدينا اختيارات أخرى».

صوت محمد خليل وهو يقف أمامنا.

تعرفتُ إليه عن طريق عصمت، طالب بكلية الآداب أيضًا، لقاؤنا الأول كان في اجتماع صغير لتوزيع المنشورات، كان موهوبًا في الكتابة، ويكتب مقالات بعباراتٍ تُبكي تتوزع على جامعة الملك فؤاد كلها، لذا كان هو المتحدث كل اجتماع.

قلتِ: «لا تقولي إنكِ أحببته».

- والله يا خالة كنت قد نسيتُ الحب تمامًا، شغفني حب الوطن، الحب الذي لا ندم بعده، كان -وإلى الآن- أملي أن يعود وطني حرًّا، لقد صدقت كل عبارة سمعتها، أن مصر للمصريين، ومصر لم تعتد قط أن تفتح يديها لمحتل وتتقبله، يمكث عامًا، عامين، قرنًا، ثلاثة قرون، في النهاية يخرج

صاغرًا، نحن لا نقبلها، هذه الكبرياء التي عهدناها عليها منذ احتلال الهكسوس لها حتى الاحتلال البريطاني.

لم أكن أعرف شيئًا سوى أنني في الصباح أخرج معهم إلى الجامعة في الأيام التي حددوا فيها مظاهرات، أو يتواصل معي موزعو المنشورات عن طريق عصمت لأنضم إليهم، وفي المساء أعود لأرى عملي، صنع الفساتين لفتيات الجامعة، وقد ذاع صيتي هناك، أصبحت الست أمل، وبعد عامين أصبح البيت مزارًا لشراء الفساتين، أصبحن يأتين إلى البيت ويخترن من الذي صنعته سابقًا أو يطلبن تصميمًا معيّنًا، وتمنيتُ أن أفتح محلًّا للملابس أمام الجامعة، كان البرقع قد خُلع وانتشرت موضة الفساتين الطويلة بالأكمام وكنتُ أتعرض لسخرية عصمت، عصمت التي تخرج إلى الجامعة ترتدي فستانًا مجبرة، لكنها في خروجها العادي ترتدي بنطالًا، ورغم أنها تتعرض للانتقادات لكنها لا تهتم، لدرجة أن سكان الحي اشتكوها إلى أبيها، وكان يقول ابنتي وأنا حر فيها.

ولو سألتني لماذا تمنيتُ فتحه أمام الجامعة، لن أجيب بمثالية وأقول لأكون جوارهم دائمًا وأتواصل معهم، سأقول لأنني شعرتُ بالنقص، وأشعر به كلما وجدت فوزية أو عصمت أو زينب يذاكرن، كنتُ الوحيدة التي تجلس بلا مذاكرة فكنتُ أنكفئُ على الماكينة أو على كتابٍ لأشعر أنني مثلهن لا أكثر.

سألتني زينب مرة: «ألا ترين الفساتين التي ترتديها بعض الفتيات يا آمال؟ أقصد تلك التي تبرز الوسط وتكون قصيرة إلى حدٍ ما، وتكون محشوة بالشبك أو الجونلات. سلبت عقلي، لا أرى فيها ما يعيب، أتعرفينها؟».

وقد أصبح الحديث بيننا عن الفساتين، والسؤال إذا كنتُ انتهيتُ من فساتين صديقاتها، بعدما حاولت بكل الطرق أن تثنيني عن طريق عصمت، لكنني كُنتُ قد اخترتُ طريقها بإرادتي.

***

توفي الملك فؤاد بقصر القبة، وكنتُ أعرف أن هناك صفحة مهمة من التاريخ قد انطوت معه، حزن الجميع عليه، لكن ما لبثنا أن انشغلنا بتولي ابنه الملك فاروق العرش، ولا تعرفين ما حدث في مصر وقتها، كأنها كلها قد احتفلت، كان الاحتفال به مهرجانًا متواصلاً لم ترَ البلاد مثله من قبل، وجاءت الجموع من أقصى أنحاء البلاد واحتشدوا في العاصمة، فقط ليروا موكبه في أثناء ذهابه إلى البرلمان أو إلى الصلاة، وتزينت الشوارع والميادين والمباني العامة والخاصة، حتى القصر احتشد فيه المهنئون وهذا لم يحدث من قبل، وملؤوا السرادق الكبير الذي أقيم في ساحته لاستقبالهم وصافحوا الملك كلهم، أنا نحن فاستبشرنا خيرًا.

لكن بعد الاحتفالات، قام حزب الوفد بالمطالبة بإجراء مفاوضات مع بريطانيا، وكنا أنا ومحمد وعصمت نثق بهم كثيرًا ونرى أن هناك شيئًا عظيمًا سيحدث خلالهم.

لم توافق بريطانيا على المفاوضات إلا بعد أن قامت الثورات، لكنها اشترطت أن تكون المفاوضات مع كل الأحزاب، ووافقت كل الأحزاب ما عدا الحزب الوطني، الذي رفع شعار «لا مفاوضة إلا بعد الجلاء».

مسحتِ بيدك على يدك الأخرى وأنتِ تقولين: «أنا لا أفهم شيئًا يا آمال».

قلتُ وأنا أحاول اختيار الكلمات: «أقول لكِ ماذا حدث قبل المعاهدة بين مصر وبريطانيا، وأننا لم نسعد كثيرًا بها، رغم أنهم اعترفوا أن مصر دولة

مستقلة، فإنهم ما زال لديهم الحق في التدخل في شؤوننا، كما أن جيوشهم ستظل في الإسكندرية ثماني سنوات من تاريخ المعاهدة، وألزمتنا ببناء ثكنات وهذا سيكلف مصر فوق طاقتها ونحن بحاجة إلى إعادة بناء الجيش، فوق كل ذلك ما زالت جيوشهم في السودان بلا شرط».

وكان حديثي مع محمد لا ينقطع، نبدي آراءنا فيما يحدث وماذا علينا أن نفعل، وكنتُ أحب حديثي معه، لأن الحديث ذاته كان يشعرني أنني حرة.

محمد رجل حر، ولا أقصد بالحرية قدرته على قول رأيه لأن هذا مسموح لكل الرجال، لكن كان حرًّا لا يقبل القيود، ويحب تراب هذا الوطن كما يحب عينيه، كان دائمًا يقول لي: «حبنا لمصر غريب، ورمينا لأرواحنا فداءً لها صعب أن تجديه بهذه الطريقة في أي بلدٍ آخر، قلبي لا يلين إلا حين أتحدث عنها، ولا أشعر أنني أتنفس إلا حين أفكر في اليوم الذي ستحصل فيه على حريتها».

أحببت حديثه، كان أحيانًا ينتظرني بعيدًا عن البيت بحارة أو اثنتين، يسلمني المنشورات ويقول لي معلومة أو نصيحة ثم يرحل.

في ذلك اليوم أوقفني جندي إنجليزي، كنت أحمل المنشورات معي لأوزعها على طلبة المدارس والجامعات، لكن اعتدت أن أضعها في صندوق خشبي خاص بالخياطة وأضع فوقها أدوات الخياطة التي أستخدمها، قال لي بكلماتٍ مكسورة الأرجل يحاول أن ينطق بالعربية: «تسيرين في هذا الطريق يوميًا، أريني ماذا معك».

وقتها تذكرتُ مَن كان معنا وسُجن، وخجلتُ من نفسي لأنني خِفت وقتها، كان داخلي كره وبغض تجاهه ظهر في عيني، لم أكن أعرف مصيري، لكنني خفت حين فكرت أن يكون السجن هو النهاية.

مد يده ليأخذه مني لكن تجمَّع رجال القهوة حوله ، صاح واحد منهم: «هل سترفعون أيديكم على النساء أيضًا!».

حين تجمعوا عليه اختفيت، طوال الطريق وأنا أفكر في حكاية القرش صاغ التي حكاها لي محمد وقال إنها تسببت فى احتلال بريطانيا لمصر، قال إن إنجليزيًّا رفض أن يدفع قرش صاغ لسائق حنطور ركب معه وحين طالبه به وهو يتشاجر معه قتله الإنجليزي فقام رجال القهوة الذين رأوا القصة

أمام أعينهم بشن هجوم على البيوت التي فيها إنجليز فردت بريطانيا على الهجوم خفت أن يقتلوه فيزداد الأمر سوءًا.

قالت فوزية حين عرفت: «إذا كان عرف شكلك، توقفي عن توزيعها يا أمل، لن تكوني أغلى ممن سُجنوا، افعلى شيئًا آخر لا ضرر فيه عليكِ».

- لو عرف محمد سيمنعني من هذا الأمر.

- كأن اهتمامه بك زائد.

- وأين ترين محمد لتري اهتمامه؟

ابتسمت بخبث: «من حديثك أنتِ وعصمت، قولي لي يا أمل، لِمَ لا تتحدثين معنا عن الحب، معي أنا وزينب على الأقل، لأن عصمت أكيد لن تحب».

- ولِمَ؟ أليس لديها قلب؟

- لديها مشكلة.

- وما هي؟

اعتدلت وهي تلقي ضفيرتها للوراء: «تريد أن تكون شخصًا غيرها، فكري معي، لو قابلها رجلٌ وسيم وبه كل ما تريده أي أنثى، هي ستراه رجلًا وربما تحبه، لكن هو لن يراها امرأة لأنها تنسلخ من أنوثتها. لو وجدنا رجلًا يتصرف مثلنا ويرتدي فستانًا ويطالب بأن نصرف نحن عليه، هل سنقبله؟».

- يا فوزية! عقلك صغير مثلما تصفك عصمت، ولماذا سيطالب الرجال بأن يصبحوا مثلنا؟ وهم يأخذون حقوقهم بالثلاثة.

- والله لا أحد عقله صغير مثلكما، وما علاقة المطالبة بالحقوق بأن تتشبه بهم في طريقة الحديث وفي الملابس؟ هل حرامٌ أن نأخذ حقوقنا ونحن نساء؟

تنهدت قبل أن أجيب وسألتني: «دعينا من هذا الحديث، قولي لي لماذا تهربين من الحديث عن الحب؟».

استلقيتُ على الفراش وأنا أفتعل النوم: «نامي يا فوزية الله يهديكِ».

فوزية التي تقول إن هناك ضررًا على حياتي، حياتها مهددة.

هربت أمها من الصعيد بعد وفاة أبيها وهي ابنة سنة، مشكلة ثأر، ورغم أنها متأكدة أن الثأر لا يؤخذ من البنات أبدًا فإنها تقول دائمًا إنها تشعر بانقباض في قلبها كلما ذُكر هذا الموضوع.

تعمل أمها العمَّة أمينة في أحد البيوت مثل الدادة فاطمة، علَّمتها وكبرتها ولم تتزوج رغم أن عمرها كان صغيرًا حين وصلت إلى القاهرة.

أقول لها: «لم يحدث قط أن أُخذ ثأر من فتاة».

- وهل العالم يسير على المفروض؟

رغم خوفها لم تخاصم الحياة قط. ليِّنة كما ينبغي لامرأة أن تكون، تحب المطبخ وتحب الوقوف فيه، وأكثر المرات التي يضيء فيها وجهها تكون وهي تخرج «بصينية بطاطس في الفرن»، أو «حلة محشي»، وتسألنا عن طعمه، تنظر إلينا بحبٍّ ونحن نأكل ثم تأكل هي. الوحيدة التي ينقص البيتُ شيئًا حين تغيب، لأنها الوحيدة التي تفتح النوافذ فور أن تستيقظ لتدخل الشمس، تغسل وجهها وتتحرك بالبخور في أنحاء البيت، ثم بعد ساعة يمتلأ البيت برائحة الطعام.

***

شكَّلنا ثلاث مجموعات، في كل مجموعة عشرة أعضاء، ومنعني محمد من توزيع المنشورات بعدما عرف ما حدث.

لكن كان يكفيني أن أجتمع معهم وأرى حماسهم وأسمع أخبارًا وكأنني إنسانٌ يحق له أن يعرف، وأقول كأنني إنسانٌ لأنني حُرمت من هذا الحق ولأول مرة أحصل عليه.

سألني محمد وكنا نسير قريبًا من الميدان: «ما الخطوة القادمة بالنسبة إلى جمعيتك؟».

سألته بعدم فهمٍ: «أي جمعية تقصد؟».

- أقصد التجمعات التي تحدث في بيتك.

ابتسمتُ وأنا أحرك رأسي بلا مبالاة: «وهل جعلتها جمعية؟ هي مجرد تجمعات مع النساء، يحكين مشكلاتهن ونحاول المساعدة في حلها».

- لا أعرف لِمَ أشعر أن لديكِ مشكلات لا تستطيعين حلها.

- هذا ما يحدث حين يزداد الأمر سوءًا، يهرب المرء من مشكلاته ليحل مشكلات الآخرين.

- وما مشكلاتك ؟

- أشياء لا حلول لها.

- وما هي هذه الأشياء؟

- ليست أشياء معينة، أسئلة لن تجد لها إجابات، فتتوقف عن إلقائها كيلا تهدر طاقة وكيلا تشعر بالإحباط حين يعجز الجميع عن إشباع فضولك.

- لا تحاولي أن تكوني لغزًا يا أمل، هذا الأمر مرهق بالنسبة إلى الرجل.

- لم أفهم.

- لا يهم، لكن اعلمي فقط أن هذا قد يجذب إليكِ مَن يسمعك.

- الحزن يجذب!

- لا، الجمال، وأنتِ حزينة بشكلٍ جميل.

توقفتُ عن السير وغيَّرت الموضوع: «لم أعد أحتمل حرارة الشمس، هل نعود؟».

فتح الزر الأول من قميصه وهو يقول: «الشمس اليوم لا تُحتمل».

ونحن عائدين أصبح حديثنا عن مصر، أذكر أنه قال لي: «مصر يا أمل ستتحرر، بنا أو بغيرنا، اليوم أو غدا، في النهاية ستتحرر، نحن فقط نتمنى أن تذكرنا بخيرٍ وتقول مرَّ عليَّ شبابٌ أحبوني وأفنوا أرواحهم من أجلي».

سألته: «أتطمع في أن يذكرك التاريخ؟».

- لا عيب في ذلك، وأنت لماذا تفعلين هذا؟

فكرتُ قليلاً ثم قلت: «لا أعرف، وأظن بدافع الحب لا أكثر، لأنني لا يهمني إذا ذكرني التاريخ أم لا، أتمنى فقط أن تتكلل المحاولات بالنجاح».

- كلنا يحركنا الحب.

قال جملته الأخيرة وهو ينظر إلى عيني مباشرةً.

فوزية ذات الأحلام الوردية حين سمعت من عصمت عن تلميحاته لي، لم تجعلني أنم، قالت: «تخيلي فقط، مناضلان يجمعهما الحب، عنوان

جذاب في كل الجرائد، أو نكتب «الحب والرصاص»، أو «في رحلة البحث عن الوطن وجدنا الحب»، آه يا أمل، ستكون قصة جميلة».

كانت ستكون قصة جميلة بالفعل، لكن من خارجها، هل كان سيسمح لي أن أخرج معه في المظاهرات؟ كان سيتركني في البيت لأن رجولته لن تسمح له أن تخرج زوجته وتصرخ وتنادي وتوزع المنشورات، رغم أن هذا ما أعجبه بي في البداية، قال لي: «أنتِ جامحة»، وكان سيروضني لو كنا اجتمعنا.

وأقول «لو» لأنني امرأة متزوجة، لم أنسَ، وأصبحت هذه مأساتي، ليس لأن هذا سيجعلني امرأة بلا زوج إلى الأبد، بل لأن الإنسان يكره القيد حتى لو كان بشيءٍ يحبه.

سألتِ: «وهل عرض عليكِ الزواج؟».

- بعد حديثي معه بشهرٍ واحد، قالها بكلماتٍ مقتضبة، قال: «أرى أن هدفنا واحدٌ يا أمل، لِمَ لا نجعل الطريق واحدًا أيضًا؟»، وقلت: «لا»، ما زلت أشعر بلذة كلمة لا في لساني، أتعرفين ماذا تعني كلمتا نعم ولا، ليس فقط قبول ورفض، لكنهما تعنيان الحرية، حريتي في أن أقبل أو أرفض، لا، قلتها وأنا سعيدة رغم أنني كنت مجبرة على قولها، لكنني لم أترك مجالاً لعقلي أن يشوِّه الأمر في عيني، كذبتُ على نفسي في أنني قلت لا بإرادتي.

قالت لي عصمت حين عرفت:

- رغم أنني أعز محمد لكنني أوافقك في قرارك، كنا سنفقدك.

قلت في غضب: «أريد أن أصفع هذه البنت عصمت، حديثها لا يعجبني أبداً».

ضحكتُ وأكملت: «بفضل عصمت يا خالتي أصبحنا نقيم تجمعات في البيتِ للنساء، نتحدث معهن عن حقوقهن، وأنا شجعتُ الفكرة، لكي يتحرر

الوطن يجب أن يتحرر شعبه أولًا، والنساء مقيدات، تعلمن واجباتهن ولم يخبر من أحد عن الحقوق».

هل تخرج المرأة للتعليم؟ هذه كارثة في عرف الرجال، رغم أنه لا شرع يوافق تفكيرهم.

هل تقول المرأة نعم ولا؟ هذه مصيبة من مصائب الزمن، رغم أن هذا عكس ما تعلمناه في ديننا.

الرجل يعرف من الشرع حقوقه فقط، استعبد المرأة ناسيًا أن تعديه على حقوقها تعدٍّ على حقوق الله، لأن الله كلَّفه أن يهتم بهذه الحقوق وهو أكلها.

لذا رأيتُ أنه من المهم أن ننشئ جمعية تحدث فيها النساء عن الحقوق بما لا يخالف الشرع.

المرأة التي خلقها الله سكنًا جميلاً للرجل، وخلق بينهما أفضل الأحاسيس البشرية وهو المودة والرحمة، كلفه بأن يهتم بشؤونها وكلَّفها بأن تُجيد أن تكون سكنًا، وهذا منطقيٌّ لأن الساكن يجب أن يهتم ويدافع عن البيت الذي يسكنه، والبيت يجب أن يوفر للساكن دفئًا وحبًّا، مَن الذي خلق بيننا حربًا إذن!

رأيتُ أن تحرير المرأة من هذه السلطة أمر ضروري، لا لأنها سلطة لأن ذلك شيءٌ يسعدنا أن يكون هناك مَن يهتم بشؤوننا كنساء، بل لأنها سلطة لا تؤدي دورها.

أتذكرُ حديثًا قالته لي عصمت لحظة صفاء، كانت سارحة تنظر إلى النيل، ومن المرات المعدودة التي أجدها تتكلم فيها بتعبٍ، قالت: «أتعرفين يا أمل؟ تعبتُ من ممارسة دور ليس دوري، تعبت من عدم تقبلهم لي كما أنا، تعبت من محاولات إثبات أنني شخصٌ آخر، هل تعرفين أن اسمي علا؟ لا أحد يعرف الأمر، سجلوني بهذا الاسم لكنني لا أنادى سوى بعصمت، أشعر أحيانًا أنني أحارب كل شيء، أحارب أبي وتفكيره، وأحارب المجتمع

الذي زرع هذا التفكير وأحارب نفسي لأنني جئتُ بصورة لا يريدها وأحارب علا التي ليس لها ذنبٌ في شيء، أحارب أنثى تجلس داخلي وتنتعل كعبا عاليًا وتريد أن تترك شعرها للرياح فقصَّته».

لذا مِن أجل علا قررنا إنشاء الجمعية، مِن أجل تفكير والد علا الذي قتلها، من أجل آمال المسكينة، من أجلك، أنتِ التي عشت تظنين أن المرأة يمكن ألا تنجب أما الرجل لا يمكن أن يكون عنده مشكلة أبدًا، من أجل النسوة اللاتي

دفعن بكِ إلى الزواج من أي رجل لأن سنك كبرت، من أجل كل مطلقة ينظر إليها المجتمع نظرة سيئة، رغم أن أشرف الخلق تزوج مطلقة، من أجل كل امرأة أعطاها دينها حقها وسرقه منها الرجل، من أجل كل امرأة ضُربت أو أُهينت لأنها الجانب الضعيف، كل امرأة أماتوا ثقتها بنفسها، كان يجب أن نتحدث، أن نقول: «يا معشر الرجال؛ نحن أمهاتكم وبناتكم وعماتكم، وخالاتكم، نحن الأنثى التي ترق أمامها قلوبكم، تضعون برحمها نطفة ليخلق الله منكما جسدًا اشتركتما فيه، لِمَ قد يكسر الرجل منكم ضلعه! لِمَ قد يهين جسدًا حمله!».

وقفتُ أمامهم وقد أخذتُ نفسًا طويلاً، قلتُ:

- أيتها السيدات اللاتي أفنين العمر في خدمة الرجل، زوجًا كان أو أخًا، بلا تقدير بفعلٍ أو قولٍ، أيتها السيدات اللاتي بدلًا من أن يكن شيئًا جميلاً يُعيد صفو الحياة للرجل، أصبحن شيئًا يُستخدم ثم يُلقى بلا كلمة شكر واحدة، إنني أقول لكنَّ، من اليوم لا تشعر الواحدة منكن أنها بمفردها، إننا جئنا إلى هذه الدنيا من أرحامِ نساءٍ كما جاء الرجال، أي أن المكان الذي حملنا واحد، لم يُخلقوا من الرأس ولم نُخلق من القدم. والله سنقاتل حتى نحصل على حقوقنا كاملةً أو نعيش الباقي من الحياة ونحن نحاول، إننا نطلب حقنا في الحرية، نطلبه منا لا منهم، لأن لا أحد لديه الحق في أن يتحكم في مصيرنا سوانا.

من اليوم، من هذه الساعة، بل من هذه اللحظة، ستقسمن على ألَّا تفعلن سوى الواجب فقط لا نقصان فيه ولا زيادة عليه، في حالة أن الفعل سيُقدَّر وفي حالة حصولكن على ما كتب لكنَّ من الحقوق.

من الآن لا مجال لأن تصبح الواحدة منا رمزًا للتضحية، لن يصنع لكِ أحدٌ تمثالاً.

قلتِ وأنتِ تبتسمين: «طلعت داهية يا بنت أختي!».

- لم نترك توزيع المنشورات، لكن محتواها اختلف، أصبحنا نكتب مقالات ونفرقها على النساء، أقصد أنا أكتب، المرأة غير المتعلمة في

المدارس، ألا ترين هذا انتصارًا لي عليهن؟ تركن لي أمر الكتابة، حتى فوزية المسالمة أعجبها الأمر.

بعد ثلاثة أيام من رفضي لمحمد، أرسل إليَّ رسالة مع عصمت، بدايتها تهديد كأنه يخرج غضبه مني، منتصفها إشارة إلى أنني لن أصل إلى شيءٍ ذا قيمة، ونهايتها يطلب مني برفقٍ أن أعيد التفكير.

أشرتُ إلى قلبي وأنا أقول: «لكن هذا أقسمتُ عليه ألاَّ يفعلها مرة أخرى، لأنني تذوقتُ ما قد يفعله حب رجل في امرأة، ولأنني امرأة متزوجة».

نسيتُ صادق تمامًا، لكنني كنتُ أتذكره كلما جلست فوزية جواري ووصفت لي حبيبها الجديد، كل ثلاثة أشهر تحب رجلاً مختلفًا، ووقتها أتذكر صادق، أتذكر شعره، ذقنه حين لمس جسدي، تسري بروحي رجفة كلما تذكرتُ وأحيانًا أبكي.

المهم كيلا أطيل عليكِ.

كنا نجلس نحن الأربعة نفكر في أول مقال سيُكتب، اقترحت عصمت أن يكون عن الحجاب ورفضتُ، لأنني كما قلت لك لا أرى الحجاب قيدًا، بل أراه تكليفًا، حاولت إقناعها أن قطعة القماش لا تربطها في أذرعنا ونقيد بها أنفسنا.

قالت: «الرجل لا يرتديه».

- والرجل قد يظهر جسده من الأعلى، هل نفعلها مثله! قضيتنا ليست الرجل يا عصمت، نحن القضية، نريد أخذ حقوقنا لا نريد المساواة به.

- هذا ما أقوله، وهو أننا يجب أن نستر أنفسنا على عكسهم، هذا القيد الذي أتحدث عنه.

- إذا كان الستر قيدًا، فالعري أيضًا قيد ما دام إلزامًا، وإن كان انسياقنا لأمر الله بارتدائه قيدًا، فإننا قد نقول إن انسياقنا وراء أهوائنا والمطالبة بخلعه أيضًا قيدٌ.

- كيف يكون خلعه قيدًا!

- وكيف يكون ارتداؤه قيدًا؟

- تدافعين عنه وأنتِ خلعتِه أصلاً!

آلمتني الكلمة والله، دافعتُ عن نفسي: «بالنسبة إليَّ، لا علاقة بين خلعه وبين حريتي، لأنني خلعته ولم أحصل عليها، وإن كانت قد ارتكبتُ ذنبًا تجاه عقيدتي، هذا لا يعني أن أنادي الجميع بارتكاب هذا الذنب.

اسمعي يا عصمت، أول شروط الحرية هو إظهار الاحترام لكل الناس، واحترام أفكارهم، لأن إظهار الاحترام يعني أنني أبدي رأيي، ولا يصح أبدًا أن أشير إلى أمرٍ في عقيدة مخالفة عني وأقول عنه إنه قيد أو إنه لا يصح وأنادي بإلغائه، ومناداتك بخلع الحجاب إهانة لكل المسلمين، لأن في كتابهم أمرًا واضحًا بارتدائه، إذا كنتِ لا تريدين الامتثال للأمر، فلنا رب يحاسبنا جميعًا، لكن أن تشيري إلى شيءٍ في كتابهم وتطالبي بمنعه، فأنتِ تمنعينهم من حريتهم في إظهار شعائر دينهم، أنطالب بالحرية ونسرقها من غيرنا؟

ما أعرفه عن الحرية، هو أن أفعل ما أنا مقتنعة به وأراه صحيحًا، ما دام هذا لا يضر غيري في شيء».

تذكرتك وأنا أتحدث، وتذكرت ضرب جمال لكِ بلا وجه حق، فكان أول شيءٍ كتبته عن ضرب المرأة.

رأيتُ أن هذا أحق بالكلام عنه.

***

العمة سامية التي تسكن في الشقة المقابلة لنا، لديها ابن اسمه حسن وفتاة تصغرني بثلاثة أعوام، يعود زوجها كل يوم الساعة الرابعة عصرًا، يحمل على يديه بطيخة أو لغة لحمة أو كيلو طماطم، المهم أن يده دائمًا تحمل شيئًا، وهي تفتح باب شقتها الرابعة بالدقيقة تنتظره.

أول تعامل لها معي حين أوقفتني وأنا أفتح باب الشقة لأدخل، تعرفت إليَّ وطلبت مني أن أساعد ابنها حسن في دراسته.

امرأة بيتها مفتوح، ليس لأنها تستقبل ضيوفًا، بل لأن مَن يجاورها يعرف دائمًا ماذا تفعل، مثلاً في الصباح دائما تنادي ابنتها نجلاء أن تناولها نصف ليمونة كي تعصرها على طبق الفول، وإذا طبخت بامية سمعنا صوتها تتأفف: «هل علمتك تقميع البامية هكذا!»، وبعد الغداء نسمع صوتها: «الشاي يا حاج سعد».

لذا وهي تتحدث وتعرفني بنفسها أردت أن أقول لها إنني أعرفها جيّدًا وأشعر أننا تحدثنا من قبل.

وضعت يدي في شعر حسن ذي السنوات السبع وأنا أبتسم: «يمكنك المجيء وقتما تحب».

أجابتني هي: «الله يبارك لك يا بنتي، ألا قولي لي، متى تكون عصمت بنت المعلم هنا؟».

وأخذنا سؤالها نكتة تلك الليلة.

فوزية وضعت حبتين من العنب في فمها وهي تقول: «أكيد سألت كي ترسله في الأوقات التي لا تكون فيها عصمت في البيت».

وقفت عصمت في غضبٍ وقالت: «هل انتهت القصص ولم يعد غير هذا الموضوع! والله أترككن وأنام».

أمسكت يدها وأجلستها: «لا يكن عقلك صغيرًا».

- سأكسر رأسه إذا رأيته.

- الحمد لله أنني أنقذت رأسه، لن يأتي وأنتِ هنا.

حسن كان يناديني بـ «أبلة أمل»، وإذا كان يتحدث مع أحد عني يقول: « هل تقصد أبلة أمل الجميلة؟»، يضيف لفظ الجميلة دائمًا.

- لماذا تقول إنني جميلة يا حسن؟

- أمي تقول إن عينيكِ جميلتان، وتقول عليك البنت ذات العينين الواسعتين.

ابتسمت: «وأنت، ألا تراهما جميلتين؟»

- هل أقول؟ أليس عيبًا؟

اتسعت ابتسامتي: «لا يا حسن، ليس عيبًا».

- أحب شعرك أكثر، وقُلت لأمي إنني أتمنى أن يكون شعري طويلًا مثل شعرك، لكنها نهرتني وقالت إنني لستُ فتاة، لماذا خلق الله الفتيات بشعرٍ طويل؟

سرحت مع سؤاله، إذا كان يجوز أن نسأل عن الحكمة، فإن سؤاله له إجابة واحدة، ويتفرع منه أسئلة كثير، مثل لماذا خلق الله المرأة جميلة، لماذا خلقها أرق من الرجل، لماذا خلق صوتها أجمل من صوته، والإجابة هي، لكي يقع في حبها ويحتمل التعب ليصل إليها.

وأنا رغم أنني امرأة، سرتُ الطريق لأصل إليه، ومع ذلك لم يتقبلني.

لن أحزن مرة أخرى، ولن أبكي أيضًا حتى لو تذكرتُ شعوري وقتها، شعور لا أرضاه لألد أعدائي.

أحيانًا كان يرحل الجميع، تذهب زينب إلى الدادة فاطمة وربما قضت ليلتها هناك، وتذهب فوزية إلى أمها، وربما باتت عصمت ليلتها في بيت أهلها، لكن المرة التي كانت تفعل فيها ذلك كانت تأتي تسب وتلعن منذ الصباح بسبب موقف أو اثنين لوالدها معها، وكان حسن يأتي لينام هو معي، أصبح قريبًا مني وبدأت بتحفيظه القرآن، كلما أمسكت المصحف تذكرتُ الشيخ درويش وأحاديثه التي كان يقولها وهو مغمض العينين وكأنه يشعر أنه يرى الله ويحدثه، هو الشخص الوحيد الذي خلق فيَّ شعورًا أنني يمكن أن أشعر بالله معي وحولي وداخلي، أراه في كل شيء، في الأزمات التي تُفرج، والكرب الذي يُكشف والرحمة في قلوب العباد، في يأسنا الذي يتحول إلى أملٍ فجأة وضحكتنا التي تأتي بعد بكاء.

***

من أحاديث الشيخ درويش:

حتى الذين أسرفوا على أنفسهم ناداهم، لم يقل يا مذنبون، يا مقصَّرون، قال يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله، شرَّفهم بأن نسبهم عبادًا له.

وزاد في الطمأنينة لهم بأنه سيغفر الذنوب جميعًا.

إذا كانت هذه رحمته بمرتكب المعاصي، فكيف جزاء المُطيع الصابر؟

إذا ذكر على نفسه أنه هو الغفور الرحيم مع المُقصَّر، فكيف رحمته بالسائر في طريقه بلا التفات؟

«قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ».

بعد غياب شهرًا كاملًا عن رؤية محمد، وجدت حسن يطرق الباب ويعطيني رسالة، قال إن شابًّا أوقفه وطلب منه أن يُعطيني إياها...

- هل هذه رسالة غرامية يا أبلة؟

قلت له بعتاب: «لا يجب أن تتحدث في مثل هذه الأمور يا حسن، ما زلتَ صغيرًا».

- لكنني أعرف كل شيء.

ابتسمت له: «وماذا تعرف؟».

- أعرف أن الرجل منا، يحب فتاة جميلة منكن.

ضحكت لوصفه نفسه بالرجل، أكمل: «وأن شعور الحب يُشبه الدغدغة بأصابع ناعمة في القلب».

- حسن! عيب.

- ماذا قلتُ يا أبلة؟ ألا أقول لكِ ما يخطر في قلبي؟

جلستُ وأنا أستند بركبتي اليمنى إلى الأرض لأقترب منه: «أحب أن أسمعك دائمًا، لكن هناك بعض الأشياء التي لا يجب إظهارها حتى لو كانت جيدة».

لم تكن رسالة غرامية، أو لم أستطع التحديد وقتها، كانت من محمد، كتب فيها:

«أما بعد..

وددت أن أقول عزيزتي أمل، لكنني أعرف أنك ربما تغضبين، فكرتُ كثيرًا الأيام الماضية، لم أعد أستطيع التركيز في دراستي أو في الطريق الذي كنتِ شريكة لي فيه ولو لفترة قصيرة، ولم أكن قبل يومنا هذا أعتقد أن الحب يمكن أن يُضعف رجلًا مثلي، لذا فقد قررت أن أنهي كل ما فات وألتفت لحياتي، وأردتُ أن أعتذر منكِ، في كل الأحوال أنا يا

أمل لا أضمن شيئًا، حياتي على كف عفريت، ومع ذلك لا أستطيع ألا أقول لكِ، إذا تغيَّر رأيك فسأسحب اعتذاري وأبدأ معكِ صفحة جديدة، تكون أجمل وأرجو ألا تنتهي».

- -

عرفتُ بعد انتهاء امتحاناتهم بشهرين، أن عمه وجد له عملًا في صحيفة.

وسيعمل محررًا سياسيًا، فرحت له، هذا المكان الذي يستحقه.

قُلت لعصمت حين عرفت منها: «محمد ابن حلال ويستحق كل خير».

كانت كأنها تتشاجر مع رغيف العيش الذي تأكل منه: «ابن حلال ومحظوظ أيضًا، يستطيع منذ اليوم أن يعبر عن رأيه، تخيلي لو قلنا إنني أستحق هذا العمل مكانه، هل سيوافقني المجتمع أم سيراني أنثى مكانها المنزل؟»

ردت فوزية بهدوء: «ما مشكلة البيت معكن؟ إنه المكان الأمن الوحيد الذي يأمن فيه الرجل والمرأة معًا، هل ستعتبرونه عارًا!».

تركت عصمت الأكل والتفتت لها: «ولم لا يجلس به الرجل ونعمل نحن؟».

- لأنه مجبر أن يصرف على بيته، هذا من قوامته أن يتكفل بمصاريف بيته، أما المرأة ليس هذا دورها، ولأن من مثلك يا عصمت يحارب ليعمل في المكاتب وفي أماكن بها راحة ويظن أنه بهذا الأمر سينافس الرجال، لماذا لا تحاربن لتعملن بدلًا من الرجال في تكسير الحجارة وفي رفعها وفي بناء المنازل؟ لو نزلتن للعمل وجلس الرجال، ستصبح نصف المهن على الأقل بلا عامل واحد، لا تخدعي نفسك.

- فوزية! سأغرقك بطبق الملوخية والله العظيم..

وضعت فوزية ملعقة الأرز في فمها وهي تقول بلا مبالاة: «كوني صريحة مع نفسك، هناك أشياء تصلح للرجال ولا تصلح لنا، وأشياء تصلح لنا ولا تصلح لهم، خلقنا الله فراشات رقيقة، خذي من الحياة ما يناسب طبيعتك كأنثى، لسنا في حرب مع أحد، لو خيَّرت الرجل نفسه بين التعب والراحة سيختار الراحة».

- هذه إجابات من خلق بلا طموح مثلك.

- وما هو طموحك أنتِ؟ أن تنافسي الرجل وتثبتي ذاتك؟

- لا، أريد أخذ حقوقي منه، حتى لو كان غرضي المنافسة، هل هذا عيب؟

- العيب أنكِ وضعت الرجل مقياسًا لنجاحك تصلين إليه أو ترتفعين عنه. ألا ترين أنكِ بذلك تعترفين أنه أعلى دون قصدٍ؟

تدخلت قبل أن ينقلب الحوار إلى شجار: «زينب تأخرت، أليس كذلك؟».

قالت فوزية قبل أن تتركنا وتدخل غرفتها: «وأنتِ فكري في موضوع محمد، الولد لا غبار على أخلاقه، لا تسيري خلف عصمت».

قلت بسرعة: «والله البنت فوزية لديها كل الحق، لا أرتاح لعصمت هذه أبدًا».

بما أنكِ لا تحبين عصمت، سأقول لكِ شيئًا عنها ربما يغير تفكيرك، كنا نجلس أنا وفوزية في غرفتنا كالعادة، ثم سمعنا طرقًا للباب ودخلت، ابتسمت بتردد ثم تحركت ببطء جوار الفساتين المعلقة، لمست واحدًا منها وهي تقول: «أشعر بالأرق منذ ساعتين وفكرتُ في أن أرتدي فستانًا وأرى نفسي به، ما رأيكما؟».

نظرنا أنا وفوزية إلى بعضنا بعدم فهمٍ ثم حركت لها رأسي بالموافقة. كانت بدأت تطيل شعرها ولم تركض خلفه بالمقص كعادتها حتى وصل إلى كتفيها، ارتدته ودخلت لنقول رأينا، كانت جميلة فوق ما تصورنا، وابتسمتُ

لأنني التمستُ حكمة الله في خلق المرأة بهذا الجمال، كأنها وردة، كان مختلفًا عن الفساتين التي ترتديها وهي ذاهبة إلى الجامعة، كأن رضاها غيَّر فيه شيئًا.

قالت بتردد: «سأشتريه يا أمل».

وبقينا أنا وفوزية بعد خروجها نضحك قالت: «سبحان مغير الأحوال، ماذا حدث في الدنيا يا أولاد؟».

- هي جميلة، والفستان أظهر جمالها.

- وأنتِ ألن يتغير تفكيرك؟

قلت لها بعدم فهمٍ: «ماذا تقصدين؟».

- أقصد تفكيرك عن الحب يا أمل انظري إليَّ مثلًا، حين يرحل رجل أبحث عن غيره، لأن قلوبنا ستموت لو لم نفعل، وأمامك زينب هائمة في عبد القادر زميلنا لكنها لا تفصح عن الأمر.

حين صمتت سألتها وأنا أضحك: «ولِمَ لم تذكري عصمت كمثال؟».

- هذه إن أحبت ستكون أعجوبة من عجائب الدنيا بعد الأهرامات.

ضحكت لكن ما لبثتُ أن نظرتُ إلى السقف بحزنٍ.

سألت: «ألا يعجبك حديثي؟».

- أفكر فيه، لديكِ حق، نحن نموت من دون الحب، لكن ألم تفكري أننا أيضًا نموت بسببه؟

- لا أعرف لِم أشعر أن هناك رجلًا في حياتك لكنك لا تفصحين.

قلتُ وأنا أبتسم لها: «أنا أيضًا أشعر أن هناك رجلًا في حياتي لكنني لا أجده».

في اليوم التالي حين كنتُ بمفردي بالغرفة، ضعفت وكتبت له رسالة

أعرف أنه لن يقرأها، كل حرف كتبته كان ينغزني في قلبي، ألقيت الرسالة بجوار أخواتها، حاربتني الأفكار من كل جهة، وتذكرتُ فجأة ما حدث لي في حياتي، لكن حين تذكرتُ صادق وما فعله بي، ركضت دموعي خلف بعضها تتسابق، ثم بدأ صوتي يعلو، أغلقتُ فمي بيدي بسرعة، نظرتُ إلى الوسادة الصغيرة وفكرتُ أن أضعها على وجهي وأكتم صوتي، لكنها كانت على بُعد ذراعٍ مني وكنتُ منهكة بالقدر الذي يجعلني أرى أن هذه المسافة طويلة جدًا. فكرتُ قليلًا لِمَ لا أترك صوتي يخرج؟ يحمل بيده كل ما يؤلمني ويركض في الفضاء، لِمَ لا أمارس حقي كإنسان يُكسر أحيانًا ويبكي أحيانًا وينهار أحيانًا، فبكيتُ بصوتٍ مرتفع، ما إن أفلتُ الصوت لم أستطع التحكم به مرة أخرى، خرج راكضًا ولم أمنعه، نسيتُ ما يُبكيني وانتبهتُ إلى البكاء نفسه، ركزتُ مع صوتي، دموعي التي لا تقف، اهتزاز جسدي، رعشة يدي.

رأيتُ خيال عصمت وفوزية خلف الباب، لم تدخلا، خافتا مني، رحمتا ضعفي وتركتاني أمارس بشريتي.

كم كان الشعور حلوًا وأنا أعطي الحق لصوتي وبكائي وحزني في الظهور، كنتُ سعيدة لأنني أبكي في العلن، لا أخفي جرحي، وهما تعرفان أنني أبكي وأنهار وتقبلتا الأمر، شعور حلو عشت به ما يقارب الساعة، وحين خلا رأسي مال على الوسادة، لم أنم، كنتُ خفيفة وثقيلة، مُنهكة وحرة، حزينة ومرتاحة، مجروحة ومُتقبلة، أشعر بالرغبة في ضغط قلبي لكنني أتدارك أنه لم يفعل لي شيئًا فأتركه منزويًا خلف الضلوع، منكمشًا من الألم، يُظهر تجاعيده ويميل بتعب.

خرجتُ إليهما ما إن وضعتا الطعام، ابتسمت، ضحكت، ألقيتُ النكات، وضحكنا، ومرَّ الموقف كأنه لم يحدث.

***

من أحاديث الشيخ درويش:

«والله لولا كلمتك أنك ستوفي الصابرين أجرهم بغير حساب، لثقل علينا الصبر.

وعلمنا أن انتظار الفرج منك عبادة، لرفضنا استقبال الأيام. ويقيننا أن بكاءنا أمامك، سيجرُّ معه عوضًا جميلًا، يُغير سبب الدموع من بكاء ألم لبكاء استقبال خبرٍ مفرح لبكينا مرتين، مرة للألم ومرة لظننا أنه لن يمر.

ونعلم يا الله أن البكاء أمامك عبادة، والطلب منك عبادة، وتفويض الأمر إليك عبادة، وانتظار الفرج عبادة، ونحنُ نعبدُ بقدر علمنا، فارزق والطف بقدر رحمتك».

قُبض على محمد بتهمة التحريض على عمل ثورة وعمل اجتماعات خارجة عن القانون، حتى الحديث أصبح ذنبًا وتهمة، إن لم نمت من الرصاص، سنموت من الصمت، هذا القانون الذي يعاقب الصوت، وهذا الشعب الذي خلقه الله بكبرياء زائدة ولم يتعلم كيف يصمت.

كلنا كنا محمد، لم أهدأ، أصبحت ألقي الأوراق التي كان ينشرها في كل مكان، وأنا أحمل على يدي فستانًا أوصله إلى إحداهن، وأنا مع زينب نسير بهدوء على النيل، وأنا مع فوزية في النادي الذي أصبحت تصطحبني إليه

عنوة، لأن لسان محمد لن يصمت حتى وهو خلف القضبان، ولأن محمد ترك خلفه ألف ألف محمد.

انغمستُ في المشكلات دون قصد، هناك أمل في السودان، وأمل في فلسطين، وأمل في دور الأيتام، كل مشكلة تأخذ من قلبي شيئًا، تترك العالم وتسكن داخلي.

يتغير العالم من حولي وأنا كما أنا، تخرجوا من جامعتهم، رفضت الدادة فاطمة بقاء زينب معنا في الشقة ما دامت الدراسة انتهت وأصبح سكنها معنا صعبًا، تقضي لياليها في بيت السيدة حكمت وتأتي لزيارتنا أحيانًا، حتى عصمت أحوالها تبدلت، وصُدمنا أنا وفوزية في ذلك اليوم حين طلبت من فوزية أن تعلمها كيف تضع الكحل.

رأيتُ أن علا انتصرت على عصمت في النهاية.

مازحتها وأنا أنوي كتابة المقال الجديد: «ما رأيك يا عصمت في أن يكون موضوع المقال عن المساواة بين الرجل والمرأة؟».

سألتني: «كيف نتساوى إذا كنا جنسين مختلفين، المساواة تكون للنوعين المتشابهين، أما نحن فبيننا اختلاف، المساواة في كل شيء ظلم لكلينا، كل جنس منا له واجبات وعليه حقوق تتناسب مع طبيعته.

خبطتُ بيدي على رأسي وأنا أشهق: «يا مثبت العقول، ماذا حدث لعقلك يا بنت!».

ابتسمت في خجل وقالت: «ماذا حدث لعقلي يا أمل؟ قولي لي أنتِ ماذا حدث؟»

حاولتُ إغضابها: «يعني ليس لديكِ مشكلة في خدمة الرجل؟».

- هو أيضًا يخدمني، ألم يخلقنا الله لنكون معًا؟ ولكي يسَّهل العلاقة بيننا كتب على كل منا واجبات؟ هو يخدمني وأنا أخدمه، يطيعني وأطيعه ما دمنا لا نطلب من بعضنا منكرًا.

- وكوب الشاي الذي كنتِ تتشاجرين عليه وتقولين يجب على الرجل أن يفعله لنفسه!

- صدقيني حين يصل الأمر إلى الحديث عن كوب الشاي، اعرفي أن المشكلة أكبر ويعلقون الشماعة على كوب الشاي الذي لا يأخذ خمس دقائق في صنعه.

هل هناك أجمل من أن تصنعي الشاي لرجلٍ تحبينه؟ وهل هناك أجمل من كلمة «تسلم إيدك» التي يقولها وهو يأخذه منكِ؟

رغم أنني لم أكن أرفض كلامها قط ومقتنعة به، لكن الذي كنا نحاول لأجله هو أن نحصل على كلمة «تسلم إيدك»، لم نكن نحارب لنمنع صنع الشاي لهم، هل تعرفين الفرق؟

نريد أن نقول إنه يجب أن يكون هناك مقابل نحصل عليه، حتى لو كلمة لطيفة، لأن الحياة بيننا لا ينبغي أن تقوم على الأوامر، هو يأتي من عمله تستقبله بكلمةٍ حلوة وطعام طيب، هي تفعل فيستقبلها بابتسامة وامتنان يزيل التعب عنها.

أرأيتِ، كل لحظة هناء تفضي بي إلى هنا، إلى مشكلة في هذا العالم الواسع.

***

أحبت عصمت، جذبها رجل تعلمت من أجله تقليم الأظفار وارتداء الفساتين وإطالة الشعر ورسم الكحل وانتعال الكعب العالي، لم تقل لنا شيئًا لكننا عرفنا، هناك أشياء لا يمكن إخفاؤها، مثلما يقول حسن: «القلب يطبع على الوجه يا أبلة»، لهذا لا يخفى الحزن ولا تخفى السعادة.

تناديني فوزية: «ألن تغيري رأيك وتأتي معي إلى النادي؟».

أضع حسن حجة لي: «لا، حسن سيسمِّع سورة القمر اليوم».

- أكل هذا الولد عقلك.

- أحبه والله يا فوزية، ثم إنني لا شغل لدي غيره.

همست قبل أن تخرج: «عرفت من أكل عقل عصمت».

ابتسمتُ لها: «تقصدين أكل قلبها».

- لا يهم، المعنى واحد.

سرقتني أفكاري وحسن يغلق عينيه ويسمي الله ليبدأ السورة، وبعدها أغلقت عيني حين وصل إلى: «فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ، فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ».

وتذكرتُ الشيخ درويش وحديثه حين وصلت عند هذه الآية، قال لي: «هنا السؤال، وهذه الإجابة نادى ربه فأجابه ربه».

ثلاثة أشهر مرت على هذا الحديث وبعدها اختفت عصمت، عادت لتسكن مع أهلها، دون أسباب، اختفت هكذا، وحين عرضتُ على فوزية زيارتها فرفضت، تعللت أنها ذهبت مرة واستقبلها والد عصمت بطريقة سيئة ومن وقتها أقسمت ألا تدخل ذلك البيت مرة أخرى، أما أنا فقلبي لم يتركني لأفكاري، ذهب بي إلى بيتها أمسك حسن يدي أمام باب الشقة.

- خذيني معك يا أبلة أمل.

تركت يده وأدخلت أصابعي في شعره وأنا أقول: «سآخذك مرة أخرى. احفظ دروسك حتى أعود».

ووجدتني أمام باب بيتها، أرفع يدي وأطرق، فُتح الباب لتظهر امرأة بكامل حجابها، عرفت أنها أم عصمت، نظرت إلى وجهي تستكشفني وقبل أن تسألني مددت يدي إليها: «أنا أمل، صديقة عصمت».

من سلامها ليدي عرفت أن عصمت أخبرتها عني، قالت بحفاوة: «تعالي يا بنتي ادخلي، خطوة عزيزة».

- الله يعز مقدارك.

شكت لي وهي توصلني إلى غرفة عصمت أنها لا تأكل ولا تخرج من البيت أبدًا، فتحت الباب أمامي لتخبرها أنني جئت لزيارتها ولما لم أسمع صوت عصمت دخلت.

خرجت وأغلقت الباب خلفها وأنا اقتربت من جسد عصمت الجالس على مقعد ينظر إلى النافذة.

وضعت يدي على كتفها وقد لاحظت أنها قصت شعرها مرة أخرى، التفتت لي وهي تبتسم: «توقعت أنكن ستنسيِّنني».

سألتها: «لِمَ تركتِ الشقة؟».

تنهدت: «لا شيء مهم، استراحة مقاتل، هدنة بسيطة ونعود لساحة المعركة».

ضحكت وأنا أقول: «اشتقت إلى حديثك والله».

- ما أخبارك أنتِ وأخبار المخبولة فوزية؟

- بخير، ينقصنا وجودك.

لم تكن بخير، لاحظت حركة عينيها الهاربة، كانت تحاول السيطرة على يدها المرتعشة، لوهلة توقعتها ستذوب على المقعد وتختفي، أو ستنفجر ولن نجدها مرة أخرى.

محاولات إظهار قوتها بدأت تقل كلما مر الوقت، حتى سقطت برأسها على صدري وهي تبكي.

لم أسألها عن شيء، تركتها تخرج ما بها، تحدثت بعد قليل وقالت: «أبي الذي أصر على مناداتي بعصمت، ليتلاعب على أنوثتي، كنتُ عصمت رغم وجهي الأنثوي وكفي الصغيرتين، اسم في المنتصف، كيلا يُلام من أحدٍ، لا هو ملك الإناث ولا هو ملك الرجال.

لم يُرزق بغيري ولم يُرزق بولد كما أراد، وضعتني أمي أنثى فاعترض هو

وحولني إلى رجل.

ملابسي، عطري، قصة شعري كانت اختياره، ولا أعلم كيف، لكن أعجبني ممارسة دور غير دوري أو بالأحرى تعجبني ابتسامته وهو راضٍ.

وأنا بعمر العاشرة حين تهجَّم جارنا عليه، أمسكتُ طوق جلبابه وصفعته.

منذ ذلك اليوم والرجل في داخلي تطاول وخرج ولم أستطع إدخاله مرة أخرى. منذ ذلك اليوم وأنا الملكة المتوجة لأبي، أقصد الملك المتوَّج.

قبل الجامعة كان أصدقائي جميعهم رجال، لم ترضَ أنثى واحدة أن تصاحبني وأظن بسبب ملابسي الغريبة كما يقولون، في ذلك الوقت ابتعتُ زجاجة عطر أنثوي وربطة شعر، حين رآها بشعري نظر إليَّ بخيبة ودلف إلى غرفته.

بعد بضع ثوانٍ رجُ صوته المنزل: «عصمت!»، للمرة الأولى يخرج صوتي رفيعًا كأنثى: «أجل يا أبي».

وقفتُ أمامه، كان ينظر أرضًا وسألني: «ألديكَ إخوة؟». هززت رأسي أن لا.

- أينجب أبوك إناثًا؟

قلتُ بسرعة لأدفع التهمة عنِّي: «بالتأكيد لا».

- ما الذي تضعه في شعرك؟

- طال فقط.

رفع رأسه في غضب: «إذن قُصه».

حلقته كله، لم أترك شعرة واحدة ورضي أبي.

أحد أصدقائي ضمني بقوة حين رحل الآخرون، كما يضم رجل أنثى، وشعرتُ بالاشمئزاز، كيف يضم رجلُ رجلًا آخر هكذا!

في غمرة تعثر جاء خالد، جاء رجلًا بكل ما تحمله الحروف من معنى فبدوت صغيرة أمامه، بدوتُ أنثى!

لم ألمح صغر يدي إلا حين وضع أصابعه بها، حين مرَّ بأصابعه على رقبتي طال شعري، طال حتى وصل إلى خصري، حين همس: «علاء» في أذني، شعرتُ أن نساء الأرض تجمعن بي.

لم أهتم لخيبة أبي، حتى إنني صرخت في وجهه حين طلب مني قص شعري: «أنا أنثى، أنا عُلا يا بابا، لست ذكرًا، محادثتك لي كأنني رجل لن تغير هويتي، خلقتُ أنثى، حصلتُ على الشهادة التي تريدها أنت وأنا امرأة لستُ ذكرًا، ارفع رأسك لأنني ابنتك لا ابنك، لا تنسَ أنني أنثى».

لم أهتم لدمعة سقطت من عينيه، كيف يطلب مني قص شعري وخالد يحبه!

صوتي، جسدي وحتى ملامحي كيف أبددها باسم!

حفرة الأيام كانت واسعة، واسعة لدرجة جعلته يقع من يدي، لأنني أنثى، أصابعي الناعمة أفلتته.

بعد مرور أشهر على وقوعه مني، بعد مرور أشهر على خصام أبي لي، ناداني أبي بابتسامة وللمرة الأولى: «عُلا».

أجبته بثبات: «عصمت يا أبي، اسمي عصمت».

تركتها كومة من الأعضاء على الفراش، تنتفض كعصفور مُبلل.

يا الله أنقذ النساء أرجوك.

***

العالم مجنون، يتحدثون عن حربٍ عالمية أخرى، سيعم الخراب في كل مكان، وسنفقد عقولنا كيف سنصمد!

أعرف أن التفكير في عالم هادئ وجميل نوعٌ من الحماقة، لكن تقبل البارود والقنابل قتل للإنسانية، ماذا يريد العالم منا؟

قُتل ملايين في الحرب العالمية الأولى، والآن ستبدأ الثانية وكأن روح الإنسان شيءٌ لا قيمة له.

آلاف الفلاحين خُطفوا من بيوتهم غصبا ليُشاركوا في الحرب الأولى وأعرف أن آلافًا غيرهم سيُؤخذون غصبًا للمشاركة في الحرب الثانية، ماذا سيفرق لديهم أن يموت شخص واحد، فيُكسر سراج أسرة، تترمل امرأة ويتيتم أطفال، نتائج الحرب مؤلمة، وتقبل كل هذا قتلٌ آخر.

أقف أنا وفوزية التي أخذتها غصبًا إلى قلعة صلاح الدين، ننظر منها إلى مسجد السلطان حسن ومسجد الرفاعي ومسجد ابن طولون، صامتة كانت، وفعلت خيرًا، نحن الآن هنا، من يعرف أين سنكون غدًا؟

وضعت يدها على كتفي بعد ساعةٍ من الصمت: «ألن تخرجي من هذه الحالة يا أمل؟».

- لم أدخلها بإرادتي، هذا هو المكتوب ونحن نسير عليه.

قالت بيأسٍ: «وماذا بيدنا لنفعله؟ أنتِ تحملين مأساة العالم في رأسك».

نظرتُ إلى المباني من الأعلى، أخذتُ نفسًا طويلًا وأغلقتُ عيني.

فتحتها حين نادت وسألتني: «هل ستأتين معي إلى النادي غدًا؟».

أنا أحمل مأساة العالم في رأسي!

لهذا السبب أنا ثقيلة، أترنح من ضغط ما أحمل ولا أصل.

في المساء لم تتوقف محاولاتها في إقناعي بالذهاب معها والتعرف إلى فؤاد، حبيبها الأول والأخير، قالتها وهي تضحك لأنها تعرف أنها تكذب، وأنا افتعلتُ الضحك معها.

غمزت: «سيكون معه صديقٌ له».

أكملت حين لم تجدني مهتمة: «ربما يُنسيكِ هذا الرجل الذي تبخلين علينا باسمه».

- ليس هناك رجل، قُلت لكِ مرة إنها محاولة يائسة لخلق قصة، والقصة لا تكون قصة دون أبطالٍ، ولا تستحق القراءة دون لغزٍ، والرجل الذي أحبه هو اللغز، أي إنه عبارة عن كلماتٍ لو جاءت رياحٌ شديدة سيُبعثر.

سألت وكأنها فهمت: «ولكن لم يبدو حقيقيًا؟».

- كلنا حقيقيون في قصصٍ ما، وغير مرئيين في قصصٍ أخرى.

حركت يدها أمام وجهها وكأنها تخشى على عقلها من كلامي فنشَّته: «ما علينا، هل ستأتين معي؟».

صمتت قليلًا ثم ابتسمت بمكرٍ وهي تقول: «لا تخافي، صاحبه حقيقي».

- حقيقي إلى أي مدى؟

- أقصد أنه ليس بطلًا لقصة، بل رجل له قدمان يسير عليهما، لكنه رجلٌ للنظر من بعيدٍ فقط.

سخرتُ منها: «عروسة في فاترينة؟».

- لا يا حلوة، بل ثعبان داخل قفص، لا تمدي يدك.

- هذا يعني أننا سنستخدمه في قصة أخرى.

نفخت: «هل أكلت القصص عقلك؟!».

تضاحكتُ: «لن أخفي عنكِ الأمر، أكلت قلبي والله يا فوزية».

اقتربت مني كي تُذيب المسافات بيننا، وهذا يعني أنها تُريد أن تحصل على سرٍّ، سر كبير يُشبع فضولها سألت وهي تهمس: «ألم يحدث ولمرة واحدة أن جذبك رجلٌ؟».

نظرتُ إليها بطرف عيني: «لم أجد رجلًا ثعبانًا من قبل».

قالت وقد فهمت أنني أسخرُ منها «آه فهمتُ، تجذبك الثعابين؟ إذن خذي حذرك، الثعابين لا تُجيد سوى اللدغ».

- إذا كان في قلبي فأنا موافقة.

بدت الكلمة مُزاحًا، لكنها كانت حقيقية تمامًا، ليست حقيقية بقدمين كما تتصور فوزية، بل حقيقية تجرح، تترك أثرًا داميًا، بالفعل أُريد لدغة في قلبي، لدغة قوية تنفضه فيقع منه صادق، صوت أنفاسه ظهر في أذني مرة أخرى. تحدثتُ بسرعة مع فوزية كي يخجل ويختفي، إننا أمام عيني فوزية ولا يصح أن يظهر هكذا، أن يهمس، أن يخلق حرارة على عنقي.

سألتها: «ماذا سترتدين؟».

أجابت ولم أسمع، هذه يده مرة أخرى تفك أول زر، أغلقتُ عيني دون أن أعي ذلك ثم فتحتهما بسرعة، إنه يُسيطر عليَّ، الله ينزع تلك الليلة من عمري، الله يقطعها كما نقطع الصفحات ونلقي بها في النار ونراها تحترق وتتحول إلى رمادٍ أسود، إنني أريدُ لدغة قوية، لعلها تثقب قلبي ويخرج مع الدماء.

أسمعها تسألني ماذا سأرتدي، أريد أن أجيب، لكن لساني ينعقد، أحاول أن أحارب شعوري به، لكنني لا أريد فقد شعوري به، في الحقيقة أريد أن أغلق عيني وأتخيله وأعيد تخيله حتى يتذكره عقلي ولا ينساه، لكن المنطق

يقول إنني يجب أن أنساه، سأغلق عيني هذه المرة فقط وبعدها لو ظهر لي سأغضب عليه كما تفعل الأم وسأطرده شر طردة، لكن هذه المرة والمرة التالية والتالية إلى أن أموت سأسمح له فيها بأن يسرقني، بأن يُعيد رسم اسمه على جسدي، هذه المرات فقط.

كيف ننسى رجل القصة، إذا كانت حياتنا بلا معنى من دون حروفٍ؟

كيف سنخنقه ونلقي الكلمات في بحرٍ واسع، ونضع قفلًا كبيرًا على الأمواج كيلا يهرب؟

لكن يمكن أن نخنقه بطريقة أخرى، اللغة واسعة ولا تبخل على مُحبيها، سنخنقه بالتشكيل، سنضع شدة ثقيلة عليه ونكسر ضلعًا فيه ثم نفتح ذراعيه كي نضمه قبل أن نقتله بالسكون، هكذا يحتم الأمر، أن يكون الموت مأسويًّا لكن بطريقة لا تجعلنا نبكي، لأننا بالنهاية سنحصل على ضمة.

تظن فوزية أن الرجل يُنسي الرجل مثله، لكن لا أحد يمحو أحدًا، أنا أعرف ذلك جيدًا، ربما يحدث في حالةٍ واحدة، إذا قررتُ أنا أن أستبدل آخر به، وهذا يعني أن هذا الآخر يجب أن يكون أكثر شفافية وأكثر وضوحًا، الاثنين معًا، لأن لا شيء يخربطنا مثل المتناقضات، سيُخربطني ثم سيُعيد جمعي وحينها سأكون امرأة أخرى قادرة على الحب.

في اليوم التالي خرجتُ معها، قالت ونحن نسير في طريقنا للنادي: «أنا لا أمزح والله يا أمل، لا تحاولي الاقتراب منه كثيرًا، فؤاد يمدحه لكنني أعرف الرجال أكثر منكِ، هو جيد من بعيد، جيد لقصة لن تدوم أكثر من شهر، وأنتِ وقوتك إما أن يفتح قلبك على الرجال بعده وإما أن يكون مثل رجل القصة الذي تتحدثين عنه، حدث لا يُنسى».

- هل هو خارق لهذا الحد، لدرجة أن يكون حدثًا لا يُنسى؟ هل لدغته مؤلمة؟

ابتسمت حين وجدتني أبتسم، قالت: «سأقول لكِ سرًا لكن أقسمي أولًا على ألا تُخبري أحدًا.

نظرتُ إلى السماء وأنا أقول بطفولية: «أقسم».

- هل تذكرين عصمت؟

حركتُ رأسي كي تُكمل، قالت: «عرفت خالد عن طريقي».

قالت بسرعة لتبعد التهمة عنها: «لكن والله حذرتها منه، قُلت لها إنه يستلذ هذه القصص فقط لكنه يتركها مفتوحة، وهي أكملت، ماذنبي أنا؟ تعارفا وأحبته، وأنا حذرتها ألا تُحبه، وكنت متأكدة أن عصمت من المستحيل أن تحب، لكن هذا ما حدث، وأحذرك مثلما حذرتها، تعرفين يا أمل أننا بحاجة إلى مثل هذه القصص كي نعيش، كي نتأكد أن قلوبنا ما زالت قادرة على أن تعزف، لكن الحمقاء هي من تُكمل، القصص المفتوحة لا خوف منها.

قُلتُ وقد جف حلقي: «كنت أعرف أنها كانت شاردة لهذا السبب».

- سرقها.

فيما بعد سأعرف ماذا تعني كلمة سرقها، إنها أكبر من مجرد كلمة، إنها فعلٌ كبير، يتطلب أن يضع المرء قلبه أسفل عجلات القطار إذا خسر رهانه، الغبية راهنت على قلبها وجسدها، وخسرتهما معاً.

سرقها.. بعض الكلمات تشرح أكثر مما تُخفي.

حين أحبَّت أطعمت قلبها له، لم تكن تعرف أنه كان ينبغي لها أن تمنح قلبها فقط لتسترده إذا ساءت الأمور.

وهو لم يعلمها، أكله.

وقعنا في الصمتِ، بدا العالم كله صامتًا لدرجة أن صوت كعب الحذاء وهو يضرب في الأرض كان مرتفعًا.

وضعتُ يدي على الفستان من خصري إلى الأسفل، حركة مُعتادة نفعلها حين نقترب، كنتُ أعرف أنني أخون صادق، وأنني امرأة متزوجة لا يصح لها

أن تبدأ قصة جديدة وهي على ذمة رجل، رجل غائب، لكن يكفي كونه رجلًا كي يُصبح مانعًا قويًا، غياب الرجل لا يجعله شفافًا، هل سأبرر فعلتي؟ لا والله كنتُ موقنة أن قلبي حمل صادق داخله وأوصد أبوابه، كانت ستصبح تجربة بلا قلب لذا فهي ليست خيانة بمعناها الكامل.

لن أكذب عليكِ، الليلة التي سبقت ذلك اليوم ملاتُ قلبي ضغينة تجاهه، قُلت أيحق للرجل الخيانة وأنا لا! كأنني في محاولاتي اللامنطقية في التساوي ونقص به في الحقوق والواجبات.

أردتُ أن أتساوى مع الرجل في النذالة الدين أيضًا، كأنني أردتُ أن أقول أنا أيضًا أستطيع أن أكون ناقصة أخلاق ولنرَ من منا سيفوز بجائزة انعدام الحياء والأدب.

وأنا أرتدي ملابسي في الصباح فكرتُ أيضًا أنها تجربة لن تضر، سأتعرف عليه أجعله يحبني وأكسر قلبه، كيف يبدو قلب الرجل وهو مكسور؟ تساءلتُ. هل ينزف ويشعر بالدماء أسفل قميصه لكنه لا يجسر على النظر إليها لأنه ينكرها ولو رآها سيموت من الصدمة؟

لهذا السبب فقط ذهبتُ معها، كي أرى قلب الرجل كيف يُكسر.

رأيت فوزية تشير إلى رجلين يجلسان إلى الطاولة الثانية من جهة يدي اليمنى، خطوة واحدة والتوت قدمي حتى كدتُ أسقط لولا أنني أمسكتُ بها، هل شرحتُ لكِ كيف يقع جبل على قلبٍ صغير ويفقد القلب حقه في أنه يتلوَّى مثل سمكة خرجت من ماء؟ لا أظن، سأخبرك عن هذا الشعور بجملةٍ أخرى؛ رأيتُ صادق.

***

كأنهم رفعوا الشاي المغلي من فوق الكانون وصبوه على قلبي مباشرة يا خالة، قلبي المسكين انكمش على نفسه حين ذاق الحريق، تقلَّص حتى وصل إلى حجم حبة فول وكاد يسقط مني، لكنني رغم ذلك سرتُ معها تجاههما، سبحان من جعلني أقف ثابتة، أضع حقيبتي الصغيرة أمامه ثارًا

القلبي المحروق الذي وضعته في مكان قصير كيلا يراه، جلستُ وأنا أبتسم، لم أنظر إليه، كنتُ سأسقط على قدميه أقبلهما لو كنت فعلت، كنتُ سأقول له متضرعة: «أهذا أنت؟ أجئت بعد أن انقضى العمر بحثًا عنك؟ جئت بالنهاية يا حبيبي»، سمعتُ صوته يحدِّث فوزية فصرخ قلبي، لطم، تخبط في أضلعي كطيرٍ جريح، قتلني بصوته وأحياني بصوته، نسيتُ للحظة أنني لم أعد آمال، آمال التي هجرها ولم يغادرها، آمال التي لا يعرفها ويعرفها، وحين تذكرت تجاهلته.

أكذب يا خالتي، لم أتجاهله، لكنني أشفقت على قلبي، كان ينبض بخفوت، خفت أن يتوقف، خفت أن تقتله الصدمة، لم أكن سعيدة، لم أكن حزينة، لم أكن خائفة، لم أكن شيئًا، الصدمة أفقدتني الشعور، كنتُ فارغة، لدرجة أنني حين حاولتُ ابتلاع ريقي لم أستطع، كأن شيئًا ما يُدفعه للخارج، هل تعرفين هذا الشعور؟ أن تنادي كل يوم بحرقةٍ نجمة ما، وفجأة تسقط السماء كلها؟

- اليوم شديد الحرارة، كأن الشمس سلطت غضبها علينا.

جاء صوت فؤاد من بعيد يُكمل حديثًا بدؤوه من دوني.

قال: «منذ زمنٍ وأنا أريد رؤيتك، من الجيد أن يرى الرجل منَّا أحيانًا ندّه. ليرى نفسه فيه، لكنني لم أكن أعرف أنني سأكون جميلًا هكذا».

قُلت: «سآخذ من حديثك الإطراء وأتجاهل عود الثقاب الذي أشعلته لبدء حرب».

ضحك: «لستُ مؤهلا للحرب معك، أردتُ الإطراء فقط».

سألني صادق: «ماذا تعملين في الحياة؟».

صغَّرني، كأنه أراد أن يقول ما فائدتك في الحياة، غامت الدنيا في عيني، أنا التي كانت كل فائدتي هي أنني زوجته، أنا التي رأيتُ أن القصة التي تجمعني

معه في سطرٍ قصة ممتلئة بالأعاجيب وتستحق أن تُصبح كنزًا أدبيًّا، ووقتها صغَّرني أكثر، جعلني أقل من أن أكون زوجته وأقل من أن أنجح دونه.

خرج صوتي مبحوحًا: «أصنع زينة المرأة ملابسها».

- كأن عملك في الحياة يدور حول المرأة فقط، صاحبة جمعية لحقوق المرأة، وعاملة من أجل المرأة.

- لا نختلف كثيرًا، أنتم أيضًا حياتكم تدور حول المرأة، سواء للإيقاع بها أو الزواج منها.

قال بصوتٍ له مغزى: «المرأة قضية مهمة».

- المهم نتائجها، بعض القضايا تأتي بصاحبها إلى حبل المشنقة.

تدخَّل فؤاد وهو يضحك وكأنه ينهي الخلاف بيننا: «القضايا المهمة نبذل لها نحن المحامين كل جهدنا».

ستار الثبات كان يهددني بالسقوط، وأنا تشبثت به بكل قوتي، كيلا أبكي، زوجي أمامي، لكنني لستُ آمال الغبية، أنا أمل الحرة.

- لا فرق، أليس كذلك؟ أنا وهي مثال للهزيمة.

وقعت عيني على يد فوزية وهي نائمة في يد فؤاد يتهامسان وتضحك.

سألني كي يقطع الصمت: «سمعتُ أن لك مشاركات سياسية».

لم أنظر إليه، أجبت: «ما دمت أعيش على هذه الأرض، إذن من حقي المشاركة في أي شيءٍ يخصها».

- حدثني فؤاد عنكِ كثيرًا، قال إن فوزية لا تتوقف عن الحديث عنكِ الحقيقة أردت رؤيتك بسبب ما سمعته.

- أما أنا فلا أعرف عنك شيئًا، كان الفراغ سيقتلني فأتيت معها.

ابتسم: «لا بأس، اسمي صادق، أعمل بمكتب محاماة فادي بيك الجواهري، و...»

قاطعته: «لكنني لستُ مهتمة بمعرفة شيءٍ عنك».

- عفوا؟

لم أهتم بالصدمة التي ظهرت على وجهه وقلت: «أقصد يكفي معرفة اسمك».

- ألا تحبين التعرف إلى الناس؟

- أنت عرفتني بلا إذنٍ سابق مني، والآن تعرَّفني بك دون إذنٍ أيضًا، وكأن دخول حياتي أقل من أن يؤخذ إذنٌ له.

- ظننت أن جلوسنا الآن إذنٌ لذلك.

- وأنا وضحت.

- لم تجيبي عن السؤال، ألا تحبين التعرف إلى الناس؟

- تعرَّف بأي معنى؟ تقصد مناقشة عابرة مثل التي نحن فيها الآن؟

- ولم تظنين أنها مجرد مناقشة عابرة؟ لم تفترضين أننا لن نتقابل مرة أخرى؟

- تخمين.

- لا يليق اليأس بمناضلة مثلك.

- ليس يأسًا، كان هناك احتمالان وأنا اخترت أحدهما.

- لا تدرين ماذا سيحدث غدًا.

كان لديه كل الحق، لا أحد يعرف ما سيحدث غدًا، ربما تهب العواصف وتغدر الأمواج بالمركب، ضميري الذي بكى أمامي يومها وقال: «هذا زوجك

الذي ركضتِ الطريق كله لتصلي إليه، بينكما خطوة»، ولم أقترب منه من فرط التعب. تعلمت هذا من الحياة، ألا نأمنها أبدًا.

ملامحه جميلة عن قرب، رغم أنني كنت أسرق نظرات دون أن يلحظ، أنفه طويل وشفتاه رفيعتان، لديه حسنة صغيرة أسفل حاجبه الأيمن وأخرى على وجنته اليمنى، تأملته، لكن لا أعرف كيف كانت أمل حاضرة بي أمامه، كيف ماتت آمال؟!

وقف فؤاد ممسكًا يد فوزية، استأذن منا: «سنقف هنا سأريها المراكب، لن نبتعد».

لم تنظر تجاههما كثيرًا، سألني: «هل تخرجتِ من كلية الآداب مثل فوزية؟».

رفعت عيني به وقلت بثبات: «لم أتعلم، مطلقًا».

- معقول هذا الكلام!

- ولم تظن أن العالم كله يسير على وتيرة واحدة، هناك الغني وهناك الفقير، العاقل والمجنون، الصادق والكاذب، والشيء لا يُعرف إلا إذا وُجد ضده.

تقدم النادل ووضع كوبين من الليمون البارد أمامنا.

أشار إليه جهة فؤاد ليأخذ الكوبين الآخرين لهما.

لم يبعد نظره عني، سألني: «لكن هناك أماكن لا يصل إليها الإنسان إلا إذا سار خطوات قبلها».

- كلنا نسير على المكتوب.

قرَّب الكوب مني وأمسك الآخر بيده، سألني وهو يشرب منه: «ما ظنك فيما سيحدث للعالم بعد هذه الحرب؟».

- لو نجونا لن يتوقف عن الحروب.

قال وهو ينظر إلى الجهة الأخرى: «الإنسان أكثر الكائنات شرًّا. أتعرفين دولة مثل ألمانيا، تدمرت اقتصاديًّا بعد الحرب العالمية الأولى، كارثة اقتصادية تسببت في تدمير مدخرات الطبقة المتوسطة، لدرجة أن الأطفال في الشارع كانوا يصنعون من النقود أشكالًا بدلًا من ألعابهم، والنساء يرتدين فساتين من الأموال الورقية، تعرضت ألمانيا لواحدة من أسوأ الكوارث الاقتصادية والتضخم المفرط في التاريخ».

انتبهت له بكل حواسي، وهو أكمل: «لأن حكومة ألمانيا طبعت الكثير من الأموال واقترضت نقودًا لتمويل أحلامها بغزو أوروبا، وكانت خطتها أن تسد الديون من مصادرة الأراضي وفرض تعويضات على الحلفاء المهزومين، لكن بعد انتهاء الحرب تراكمت الديون عليها، وأصبحت برلين مثقلة بديون لدول أخرى بناءً على معاهدة ڤرساي، والآن انظري ألمانيا بقيادة هتلر من أكبر أسباب الحرب العالمية الثانية».

تنهد ثم قال وهو يُقرِّب كوب الليمون من فمه: «لا أحد يعرف ماذا سيحدث غدًا. من يمكنه تفسير سلوك الإنسان ورغبته في قتل غيره، التلذذ في امتلاك أرضٍ ليست أرضه، سعادته بالتدمير والتكسير والخراب».

قال حين لم يجد مني تعليقًا: «نأمل أن نخرج منها على خير».

تركت روحي خلفي ونحن نودعهما، لم أرفع عيني به وهم يتفقون على ميعادٍ آخر، ولم أملأ قلبي أملًا كيلا يموت مثل المرة الماضية، ألف سؤالٍ خُلق داخلي وأنا أتحرك مبتعدة، أفكر في حياتي دون صادق لو شاء القدر وكانت المرة الأخيرة التي أراه فيها.

في الحكمة من ظهوره واختفائه، من سحبي من هدوء القرية إلى صخب المدينة، لكن ولأنني أدرتُ ظهري للحياة، كنت أعرف أنني سأراه مرة أخرى، لأنني لم أُظهر أمامه أنه أمنيتي الوحيدة في الحياة، ولأنها علمت أنني لن أموت بعده، فلن تستخدمه أبدًا ضدي.

هكذا أرادت الحياة، أن أقابله مرة أخرى، لكنها مختلفة في كل شيء، حتى أنا.

كان مُرهقًا أن أجاهد كيلا أُظهر افتتاني به، كنتُ سأكون أضحوكة أمام فوزية، هذا الرجل الذي لا أحد أحبه مثلي، ولا أحد يعرفه كما أعرفه، أنا التي كتبها القدر على اسمه، أنا التي سرقتُ منه ليلة كاملة تخصها، وكان يجب أن أقول وقتها إنه ليس كما تصف، بل رجلٌ عادي، لا ميزة له سوى أنه هو...

هزتني فوزية في كتفي ونحن نسير وهي تغمز: «أألقى عليكِ شِباكه؟».

قُلت بتعبٍ وإصرار: «لستُ سمكة».

- لا تغضبي، وجدتك شاردة فأردتُ أن أجعلك تتحدثين.

نظرتُ إليها وأنا أحاول أن يبدو سؤالًا عاديًّا: «ماذا تعرفين عن صادق؟».

***

طرقٌ للباب، يد صغيرة، عرفتُ هذا من الطرق، فتحت، دخل حسن برأسه وهو يبتسم: «كيف حالك يا أبلة أمل؟».

اقتربتُ منه وأنا أُقبِّل وجنته اليمنى: «أنت وحشت أبلة أمل، لكنني زعلانة منك، هل لأنك أخذت الإجازة من المدرسة لا تسأل عني أبدًا؟».

- كنتُ سآتي الأسبوع الماضي.

همس: «لكن كان هناك ضيوف عندنا، أتعرفين من؟ حضرة الأفندي محمود ووالده المحترم توفيق بيه، لا تقولي لأحدٍ بأنك تعرفين، أتيا ليريا أختي».

ضحكت له: «لن أخبر أحدًا أبدًا».

- ولا حتى أبلة فوزية، أنا قُلت لكِ لأننا صديقان.

- وبما أننا صديقان لم توقفت عن المجيء لحفظ القرآن؟

- مشغولٌ يا أبلة والله، سأتي بعد ثلاثة أيام، لأوصل إليكِ الأخبار الجديدة. ابتسمت لأنه أصبح يتحدث مثل الكبار وسألته: «وما الذي يشغلك؟».

- ألا تعرفين ما يحدث في البلد؟ إن لم يتحرك الرجال أمثالنا فمن سيتحرك؟

همس وهو يجذب يدي ليقترب من أذني: «إنني اتفقتُ مع زملائي الرجال في المدرسة أن نخطف أي جندي إنجليزي نراه، كي ننقص أعدادهم ولا يستطيعون الانتصار علينا».

مدَّ يده لي بجوابٍ قبل أن أجيب على تفكيره الطفولي: «سألني أمين البوسطجي عن العنوان، فأخذته منه وقلت له سأوصله أنا»

توقعت أنه لفوزية، غمز وهو يعدل طربوشه: «أنا لا أخفي عنكِ شيئًا، هل هناك رجلٌ وسيمٌ مثل محمود أفندي في حياتك؟».

أمسكته من أذنه: «وهل يصح أن يسأل شاب محترم مثلك، مازموزيل مثلي هذا السؤال؟».

- كنت سأحكي لكِ شيئًا جديدًا عني، لكنني لن أقول.

ابتسمت وتركت أذنه: «شيئًا جميلًا؟».

- لا تكوني طفلة يا أبلة أمل، ماذا ستكون حكايات شاب مثلي؟

كان الجواب لفوزية فعلًا، ناديتها وهي في المطبخ، قلت لها بسخرية وبصوتٍ مرتفع: «أظن أن إدخال التليفون سيكون أسهل من الجوابات».

كان يومًا ممتلئًا بالمشاغل، جاءت زينب لتخبرنا عن خطبتها من عبد القادر، وبطبيعة الحال كان من المستحيل أن أذهب، اعتذرت منها وهي تفهمت، جاءت سيدة لرؤية الفساتين عندي، وجلستِ بقية اليوم على ماكينة الخياطة لأنهي طلب سيدة أخرى.

جاءت فوزية بتردد وسألتني: «أتأتين معي النادي غدًا؟».

قلتُ بثبات: «لا».

- وإن كان صادق طلب رؤيتك؟

وقع الثبات وضعفت، لم يكن لديَّ خطط واضحة، قابلته ثلاث مرات بعد ذلك اليوم أوصلني فيهما مرة إلى المنزل، ووقعت في حبه مرة أخرى، انزلقت قدمي في الحفرة نفسها، ساعتين في النهار، تنعم فيهما أذني بصوته، وتأخذ عيني نصيبها الحلو من الدنيا برؤيته.

لن أنكر أنني صدمت من الاختلاف الكبير بين الشخصية التي رسمتها كبيرة وبين الرجل الذي بدا واضحًا من تصرفاته أنه يحاول التقرب مني، أتضحكين؟ لا تصدقين حديثي؟ والله الذي لا أحلف به كذبًا حتى لو السكين على رقبتي، هذا ما حدث.

لكن بعدما أرحل وأتركه وأغلق علي باب الغرفة، تدور أمال بها من فرط السعادة، وتنظر أمل إلى الموقف بطرف عينها وتتأفف، لم أجن ولم أفقد عقلي يا خالة والله، هذا ما حدث وأحكيه لكِ بالتفصيل.

ليس هذا فقط، بل لأنني رفضت أن أذهب للقائه مرتين، جاء ثلاثة أيام خلف بعضها الساعة الخامسة مساءً وجلس في القهوة أمام البيت، ينظر إلى الأعلى لعلي أطل عليه، كنت أراه من خلف الستار ويا لها من لعبة جميلة، نركض خلف بعضنا، لكن كان هذا الجزء الأجمل منها، أن أكون أنا المطلوبة هذه المرة، لذة ليس بعدها لذة، هذا هو الرجل الذي ركضت طريقًا أطول من الحياة كي أجده، هو الرجل الذي يركض خلفي ولم أسمح له بأن يجدني.

أمسكت القلم وكتبت له وأنا في سعادةٍ بالغة:

«الأستاذ صادق...

اسمعني، أنا لا أحب أن تركض خلفي بهذه الطريقة، وهناك أشياء كثيرة أرفضها، مثل أنك بالأمس وقفت النهار كله أسفل البيت، رأيتك من الشرفة، لا يصح مثل تلك الأمور، وأرجو ألا تتكرر».

أرسلته مع فوزية، سألتني وهي تأخذه من يدي: «لا أريد أن أتدخل، لكن اشرحي لي، هل تهربين منه فعلًا أم تطبخينه على نارٍ هادئة، أنا لم أعد أعرف إذا كنتِ طيبة أم خبيثة».

ابتسمتُ لها: «إن كنت لن أتعبك، مري على السيدة نيَّرة وأخبريها أن تأتي لأخذ فستانها».

قبل أن أرسله فتحت الرسالة الأولى وقرأتها، ولم أتوقف عن الضحك، هل تأمنين الحياة؟ لا تسير كما نخطط دائمًا، وكنت أفكر إذا كان أعجبه التحول من سيدي صادق أفندي إلى الأستاذ صادق! لا يهم، أعجبني أنا الأمر، وشعرتُ بكرامتي تُرد إليَّ وهذا أجمل شعور قد يمر على قلب إنسان.

توقفتُ عن الحديث حين بكى حسن ابني فجأة، أخذته وألقمته صدري، لم يزل الشعور المنسوج من ألمٍ خفيف يأتي كلما أرضعته، وكنتُ أظن قبل ذلك اليوم أن الألم سينتهي عند الولادة.

مسحتُ بيدي على وجهه، سألتِ وأنتِ تنظرين إليه: «هل أنت مجنونة يا آمال؟».

أسندتُ رأسي إلى مسند الكتبة الخشب، قلت بإرهاق: «احمدي الله أنني جنتك ببقايا عقل».

اسمعي يا خالة، هذه الحياة نعيشها لمرة واحدة، لكن هذا لا يهم، لأنها غير باقية، قدرها سيأخذها إلى الفناء، سواء أخذتِ منها كل ما ترغبين، أو

لم تمنحك شيئًا، هل هذا سيغير من حقيقتها؟ في النهاية ستقف الحياة صاغرة تسمع «ولِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ؟»، ولن تجيب.

أدخلتموني لعبة، ولعبت، وأنا اليوم لن أهرب من قدري، سأواجهه، ليس لأنني شجاعة، بل لأنه ليس هناك اختيارٌ آخر، واعترافي شجاعة.

- قلبي ليس مرتاحًا.

- ماذا سيفعل سعيد؟ سيقتلني؟

- وهل هو أصغر من ذلك؟ تقولين إن مصر مقلوبة، من سيهتم إذا قتلك؟

قلتُ لأنهي الحديث: «لا أحد يهرب من قدره».

- قولي لي، لم تقابلي صادق مرة أخرى؟

ابتسمت وأنا أغلق عيني لأنني تذكرت وجهه: «قابلته، جذبني الحنين من قلبي، بعد مرة سمعت فيها صوته في التليفون، كانت فوزية تتحدث مع فؤاد، وكنتُ مع حسن، جاءت أمه قبلها بنصف ساعة تشكو لي من تصرفاته ومن شكوى المدرسين منه بسبب حديث أكبر من سنه، حينها مدت فوزية يدها بسماعة التليفون: «مكالمة لكِ».

- لي أنا؟

أخذت السماعة من يدها، وحين جاء صوته جف حلقي، وعرفتُ من ضحكة حسن أن الدماء اختفت من وجهي ثم ضُخت مرة واحدة، وضعت فوزية يدها على وجهي وقالت له وهي تضحك: «بسرعة يا حسن، هناك طبق بسلة في المطبخ، هاته نسخنه على وجه أمل».

سمعت ضحكة صادق في الهاتف لأنه سمع تعليقها، أخذت الهاتف وركضت من أمامهم وأغلقت الغرفة علي.

قال بعد دقيقة من الصمت: «لم تهربين مني؟».

قُلت بعدما ابتلعت ريقي مرتين: «ولم أهرب منك؟».

- أنا أسألك يا أمل.

- لا أهرب ولا يحزنون.

- يعني لو طلبت أن أقابلك غدًا، لن تمانعي؟

كان صوته يشق قلبي نصفين ثم يمر بينهما فيلتئم، ولم أستطع فعل شيء سوى الموافقة.

لا أنسى أبدًا لهفته حين رآني، ولا ضغطه يدي حين فتحتها له للسلام، ولا لمعة ظهرت في عينيه حين ابتسمت، حرّك المقعد لأجلس عليه، وجلس أمامي، متوترًا كان، يوزع ابتسامات لكل شيءٍ من فرط السعادة.

- أنا ممتن لكِ لأنكِ وافقتِ.

- كانت فوزية ستأتي معي.

اقترب وهو يضع كلتا يديه أمامه: «لكنني أردت رؤيتك بمفردك».

- وأنا أتيت بمفردي.

- اسمعي يا أمل، إنني صادقٌ مثل اسمي، ومؤمن أن أقصر مسافة بين أي شيئين هي المسافة المستقيمة، لا أريدك أن تخافي مني ولا أن تهربي مني مثلما تفعلين.

- ما زلت تقول إنني أهرب!

- لأنني أعرف أن رفضك ليس نفورًا.

نظرتُ جهة النيل فأكمل: «لا أريد أن أبدو وقحًا، لكن قبل ثلاث ساعات فقط كنت في المكتب ونتحدث أنا والزملاء عما يحدث في مصر بغضبٍ بالغ، وخصوصًا بعد أنباء لم تؤكد بعد أن حكومة علي ماهر باشا رفضت طلب بريطانيا في إعلان الحرب على دول المحور، ولو كانت الأنباء صادقة فلا أظن أننا سننجو من هذا التيار، لكن حين تذكرت أنني سأراكِ اليوم

ابتسمتُ في منتصف الحديث، حديثي يبدو جريئًا أكثر من اللازم، لكنني أشعر أنكِ الشيء الوحيد الذي أستطيع به مواجهة كل ما يحدث دون قلق».

لم أتجاهل حديثه قصدًا، وجدتني أسأله: «هل أنت متأكد مما تقوله؟ قد يرفض علي ماهر باشا فعلًا؟».

تنهدتُ أفكر بصوتٍ منخفض لكنه سمعني وأنا أقول: «هذا يعني أنهم قد يدخلوننا هذه الحرب مرغمين».

- لا تستبعدي شيئًا.

سألني حين وجدني صامتة: «هل تكتفين من عملك؟».

- أحبه، لا أجد تعبًا فيه، جزء أدفعه وجزء تدفعه فوزية والحياة تسير.

- كيف استطاعت العمل بالإصلاح الزراعي؟

لم أجب عن سؤاله لأنها أصبحت موظفة في ذلك المكان بعد واسطة من رجل كانت تحبه، قلت فقط: «فوزية لا تحب العمل، ولو وجدت من يتكفل بها ستتركه».

- عرفت أنكما تسكنان معًا في شقة بمفردكما، ألا تجدين في الأمر صعوبة، أو غرابة؟

واجهته بجسدي كله: «ولو أن هناك فتاة وحيدة في هذا العالم، هل يجب عليها أن تموت؟».

- لكنكما بحاجة إلى رجل يحميكما.

- يحمينا من رجل مثله، لو أنه ليس هناك خوفٌ من الرجال عديمي الضمير لن نكون بحاجة إلى رجل».

- بالفعل الخوف من الرجال معدومي الضمير، لهذا أقول إنكما بحاجة إلى رجل.

- إذن أرى أنه من الأفضل إصلاح أنفسكم.

ابتسم وقرَّب كفيه من بعضهما: «لسنا موكلين بإصلاح العالم يا أمل، المهم أن نحافظ على ما نمتلكه».

- تقصد المرأة! وهل أصبحنا شيئًا تمتلكونه؟

- لا أرى عيبًا في ذلك، هو أيضًا يصبح ملكًا لها، والامتلاك هنا يعني أن كليهما ينتمي إلى الآخر وبحاجة إلى الآخر، لا أقصد حرية التصرف أبدًا.

- لا يتحدث الجميع مثلك.

- أنا مسؤول عن نفسي فقط.

- ومسؤول عن إصلاح أي وضع سيئ تراه.

- أنا متكفل بذاتي وبكل من ينتمي إلى اسمي، لأولادي فيما بعد، أما أن أغير كونًا كاملًا، فأعلن عجزي أمامك.

- ومن سينتمي إلى اسمك فيما بعد؟ أليست امرأة يجب عليك المطالبة بحقوقها؟

- يجب عليَّ إعطاؤها حقوقها عندي، لا شأن لي بباقي النساء، ولكن أي حقوق التي تدافعين عنها؟

قُلت وأنا مدهوشة من سخف السؤال: «حقها في أن تتكلم، في أن تصمت، في أن تقبل، في أن ترفض، حقها في التعليم، في العمل، في أن تكون كيانًا منفصلًا لا تحتاج إلى أحد، مثلكم، لا تحتاجون إلى أحد».

- لو تقصدين من جهة المال، بالفعل لا نحتاج إليكن، فيما عدا ذلك حاجتنا في وجودكن معنا واضحة ولا يستطيع أحد إنكارها.

- ولا أظن أن أحدًا منا سيتضرر لو أصبحت هي الأخرى لا تحتاج إلى ماله.

- سيحدث ضرر ربما تفهمينه فيما بعد يا أمل، ولكن ليس بسبب المال ذاته، بسبب ما سيترتب على الأمر، أنتن تبحثن عن شيءٍ آخر غير الحرية، لا أنكر أن المرأة هنا ظلت لسنواتٍ مستعبدة، وأقول إنني سعيدٌ بخروجها من سجن وضعت به، لكنني لستُ معها أبدًا في بعض ما تحاولن فعله، أنا مع هذه القضية قلبًا وقالبًا، ولكن السؤال الأهم في قضية تحرير المرأة، هل تُنادين حقًّا بتحريرها أم تُنادين لتكون ندًّا للرجل؟ هل ترغبن بالتحرر لتكون إنسانًا عليه واجباته وله حقوقه؟ أم لتتحول إلى ثائرة تجاه كل ما هو مذكر وكأننا بحلبة مصارعة ولا بد من منتصرٍ واحد.

هل تردن امرأة تستطيع أن تأتي بأجيال سوية فكريًّا أولًا، أم تلك التي يضعون صورها على المبيعات وأغلفة المجلات؟ لأنكم تعتقدون أنها حرة في إظهار جسدها.

لمح غضبي منه فهدأ وهو يقول: «أنا مع كل ما يضمن للإنسان حقوقه ويدفع بنا إلى مجتمع نستطيع العيش فيه معًا مطمئنين، لكنني ضد المغالاة، وضد فك قيد إنسان لتقييده في شيءٍ آخر، اتركينا من هذه القصص يا أمل، جئت بك من أجل شيءٍ آخره».

- لم تأتِ بي، أتيتُ بإرادتي.

ابتسم ابتسامة واسعة: «طلبتُ مجيئك، هل تعترضين على هذه الجملة أيضًا؟ اتركينا منهم، حدثيني عنكِ أنتِ».

وهذه المرة لم أكن خاوية، كان لدي حديث كثير، وهناك تعريف كبير لي، لم يتوقف عن الحديث عن نفسه، قال كل شيء من لحظة ولادته حتى سفره إلى لندن لإكمال دراسته، وفاة والدته وهو صغير بسبب مشكلات في القلب، سفره بمساعدة أخته له ماليًّا، لكنه لم يذكر شيئًا عن فتاة مسكينة تركها خلفه ومن سخفها ذهبت وراءه لتبحث عنه.

- عرفتُ أنها ماتت لأنها كانت المرة الأولى التي يخرج فيها الطبيب من غرفتها وحين أدخل عليها لا تفتح لي يدها وتقول لا تخف. إنني أحفظ الأماكن بروائحها، والأشخاص بروائحهم، وأمي كانت لها رائحة الياسمين وربما ارتبط ذلك في عقلي لأنها كانت تزرعه بيديها وتهتم به بنفسها.

سألته: «وهذا المكان؟».

- له رائحة النيل، وربما ترتبطين في مخيلتي بالرائحة نفسها.

عدوى السلوك ممن نحب هي هديتنا منهم، أنا أيضًا أصبحت أرى الأشياء بروائحها، كلما شممتُ رائحة الخبز تذكرتُ أمي فاطمة، والبامية تذكرني بالعمة سامية جارتنا، رائحة البلاص ممثلًا بالماء تذكرني بكِ، أما صادق فلا أعرف، لا يغيب عن بالي ليذكرني به شيء.

استيقظت اليوم التالي وأنا أتنفس بصعوبة، حلمتُ بالخالة سميرة وكان وجهي بدلًا منها كالعادة، سحبت الغطاء على جسدي وضغطته، فتحت فوزية عينيها حين شعرت بي.

سألت بصوتٍ نائم: «ماذا حدث يا أمل؟».

اندسست أسفل الغطاء وأغلقت جفوني، اعتدلت بجسدها ووضعت يدها اليمنى على كتفي: «رأيت كابوسًا؟».

- لا، رأيت حقيقة.

الحقيقة مرعبة أكثر من الكابوس، لكن على الأقل تريح، لا ترهق العقل بالتفكير.

شعرت بشوقٍ مفاجئ إلى الشيخ درويش، وملأتني الرغبة في أن أعود للقرية لأسلم عليه، وقلت إنه من المستحيل أن يعرفني إذا رآني، وتخيلته يجلس على أريكته الخشب، بجواره العصا الخيزران، يجلس بمفرده ويناجي ربه بأحاديث حفظت منها بعضها.

قلتِ: «ذهبت إليه مرتين أسأل فيهما عنكِ، المرة الأولى قال لي آمال محفوظة من الله، لن يمسها سوء، وفي المرة الثانية قال آمال ستعود، ولم أذهب إليه مرة أخرى، حتى هو انقطع سؤاله عني، دعينا من هذا الحديث، وقولي ماذا حدث مع صادق».

- عشت قصة ولا في الأفلام، مقابلات كل يومين أو كل يوم، نظرة اللهفة في عينيه كانت أقرب لقلبي من كل شيء، كان إذا رآني جاء المسافة بيننا بخطواتٍ واسعة وكأنه يريد أن يهزم الوقت، وإذا رآني أضحك لمعت عيناه.

بعد ثلاثة أشهر مسك يدي للمرة الأولى، ولم أمانع، تركتها تستريح في يده، وسرنا الطريق من محطة الترام إلى مكاننا على النيل سيرًا كما يفعل العشاق، تخيلي أنني أحببت رجلًا واحدًا مرتين، مرة قبل أن أعرفه ومرة بعد أن عرفته.

قال لي بعد أن جلسنا: «ظننت أنني من فرط سعادتي في لندن لن أهنا أبدًا إلا هناك، والآن لا أعتبر نفسي تنفست إلا إذا رأيتك».

وكنت والله يا خالة قد نسيتُ تمامًا أنه زوجي، بل غرقت به كما تغرق امرأة تعرفت إلى رجل، لكن والله كنت إذا رأيته نسيت أنه زوجي، كان حبيبي صادق فقط.

هناك لحظات جعلتني مجنونة به، مثل لحظة كان غاضبًا مني وحين هدا قليلًا مدَّ يده لي وقال: «تعالي»، أمسك يدي وشعرت به يلين وظهرت لمعة خفيفة في عينيه ولم يخجل أن يقول: «أنتِ تتحكمين بي يا أمل»، أذابتني الكلمة حين خرجت من فمه. ولحظة أسند فيها رأسه إلى كتفي يشكو همومًا، وضعت وقتها يدي على وجهه فابتسم وقال: «والله ارتاح قلبي من لمستك». كان طفلًا وأنا انبهرت من فكرة وجود طفل كبير يعتبرني أمه.

غرقت بصادق، ونسيت كل شيء.

***

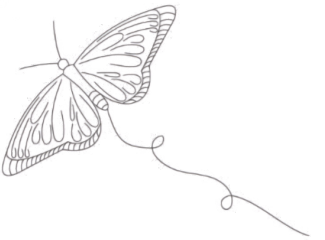

من أحاديث الشيخ درويش:

«وبلّغنا يومًا ترزقنا فيه الرضا كأن العمر مرَّ دون حزنٍ، وترزقنا فيه السعادة كأن الحياة عبارة عن مسرَّات، وترزقنا قولك: «إني أحبُّ عبدي»، كأننا قضينا الأيام في طاعتك.

جميلٌ وعوضك جميل، حقٌ ووعدك آتٍ، ونحن مؤمنون بك ننتظر».

كانت زينب تجلس معي في الشقة، تحكي لي عن عبد القادر وعمله الذي سيؤخر زواجهما، وكان قلبي ينتفض كلما ذكرت اسم الدادة فاطمة أو السيدة حكمت وابنها كمال.

قُلت لها: «لكنك تعرفين الحال في البلد، في أي لحظة قد تقوم حرب».

- وأنا لا ألومه، العمل لم يعد متاحًا للجميع، أعرف أن الذنب ليس ذنبه ومستعدة أن أنتظره عمري كله.

قالت وهي تضع العصير من يدها: «لم أقل لكِ كنت بالأمس عند عصمت، خطرت على بالي فقلت أزورها، هل تعرفين أنها قصت شعرها مرة أخرى؟ صُدمت حين رأيته، أدخلتني أمها لها ووجدت في غرفتها سبع فتيات، تحدثهن

عن الحقوق وعن استعباد الرجل لنا، فضربت رأسي بيدي وقلت إن هذه البنت لن تعقل أبدًا».

قلت بحزن ويأس: «والله أعلم بها يا زينب، لا أحد يعرف بما يمر الإنسان مثله، المواقف تغيرنا».

- لكنها لم تتغير.

- بالعكس، عصمت تغيرت، وحالها اليوم نتيجة للتغيير، ولا أعلم على من تلقي اللوم.

- حين أتذكر المرة الأولى التي رأيتك فيها وأقارن بين حالك اليوم، أدهَش من فعل الحياة معنا وقدرتها على تغييرنا.

- الإنسان الذي لا يتغير يعني أنه لا يمر بمواقف، والذي لا يمر بمواقف يعني أنه لا يعيش.

سألت: «فوزية تأخرت عند والدتها، هل ما زلتِ ترفضين النزول معها؟».

وحين أكملت سؤالها دخلت فوزية وهي تخلع حذاءها بتأفف: «الشوارع مقلوبة، هل سيمنعوننا من النزول أيضًا؟!».

سألتها: «ماذا حدث؟».

جذبت المنديل من شعرها وألقته وهي تجلس بتعب وتقول: «لا أعرف، قالوا إن هناك ضرباً بالرصاص في الحارة المجاورة لكنني لم أرَ شيئًا، وإن هناك جنديًّا إنجليزيًّا ضُرب بحجر كبير في رأسه، لذا قامت الدنيا».

- تسلم يد من ألقى الحجر.

- قالوا طفل، الله يأخذهم كلهم ويريحنا منهم.

ركضنا ثلاثتنا إلى الباب حين سمعنا صراخ العمة سامية، دخلنا البيت دون استئذان، لأن بابها كان مفتوحًا، صوت نواح من النساء ورجال صامتون، وحسن ممدد على الكنبة لا يتحرك.

اقتربت منه بدفع زينب وفوزية لي حين ركضا تجاهه، شيءٌ ما ثقيل جذبني للأسفل، أسقطني على الأرض حتى أصبحتُ قريبة من جسده.

كان وجهه مسحولًا وكأنه جذب منه على رصيف الشارع، نظرت إلى جسده كله، لم يكن هناك جروح سوى وجهه وكف يده اليسرى، سمعتهم يقولون إنه خُنق، لكن عم توفيق صاحب البقالة في بداية الشارع قال إن رقبته كُسرت لأن أحد الجنود دفعه على الأرض بقوة فقامت مشاجرة بين رجال القهوة وبينهم وأصيب رجل منهم بطلق ناري، قال إن اسمه حامد أفندي لكنني لا أعرفه.

وقفت العمة سامية جواره تولول رغم تحذير زوجها لها، ونجلاء بكت في حضن فوزية، وأنا لم أكن أعرف علاقتي به، إذا كنت أمه أم أخته، لكنه كان شعورًا مشابهًا، أعاد مشهده وقوفي بعيدًا عن جثة إبراهيم ولأنني لم أبكِ وقتها لأنني كنت صغيرة، منعت نفسي من البكاء لأنني كبرت.

قبل عدة أسابيع، كان زوج العمة سامية يقول إنه يتمنى الحرب لأنه يأمل أن يدخل الألمان مصر بدلًا من الإنجليز، كنت عندهم لأخذ مقاسات نجلاء من أجل فستان الزفاف.

سألته: «وما الفرق؟ الإنجليز احتلال والألمان احتلال».

- يمكننا تقبل أي محتل، لكن غير هؤلاء الكلاب.

- سيفعل الألمان الأفعال نفسها وسنكرههم مثلما نكره الإنجليز.

- أنا يا أمل يا ابنتي أقبل العمى ولا أقبلهم، مات أبي رحمه الله في مظاهرة ضدهم، وكان لا يحب أحدًا في حياته مثلما أحب الزعيم سعد زغلول، وأسماني سعد على اسمه، كنت ما زلتُ طفلًا حين مات، ومن يومها وأنا أشارك حتى تزوجت عمتك سامية.

ابتسمت: «خِفت عليها؟».

- خافت هي عليَّ.

سمعنا صوتها من المطبخ: «ماذا تقول يا أبا نجلاء! وهل عندي في الدنيا غيركم؟ الله يحفظكم وينجيكم من أذاهم، ولكن هل ستقوم الحرب فعلًا يا أبلة أمل؟».

المهم أن حربها هي قامت، وما كانت تخشى منه حدث.

رفضت أن أصالح الأيام، وشعرتُ أن الضربة هذه المرة شديدة، ولم أكن أعرف أنني تعلقت بحسن لهذه الدرجة، بت ليلتي باكية، لكن ليس عليه، على الحياة التي تعطيني يومًا سعادة ثم تصفعني بعده، وخِفت من إحساس اللامبالاة الذي أصبح يصاحبني الفترة الأخيرة، ومن أحزاني التي تنتظر ظهور حزنٍ جديد حتى تنقضَّ عليَّ معه كأنها ترحب به.

انقطعتُ عن العالم تمامًا، عن الشارع، عن الحياكة، عن صادق، حتى عن أمل، أستيقظ لأتأمل سقف الغرفة، ربما يدخل الطعام فمي إذا أجبرتني فوزية، ثم يأتي الليل فأنام.

***

جسدي يؤلمني، أتأمل المدينة الحزينة من فتحة صغيرة في النافذة، شيءٌ ما بها ما زال ينبض وكأنها تأمل خيرًا في غدٍ لا نعرف متى يطل علينا، وأنا، أنا منتهية تمامًا كأن روحي غادرتني.

تحرك صادق داخلي، فتح ذراعيه كأنه استيقظ، كنتُ قد حمدت الله أنني سكّنت ألمي به، عاد راكضًا يصفع الخلايا ويوقظها.

أمسكت الرسالة الثانية التي أرسلها، فوزية كانت تجلس أمامي بعينين منتظرتين إجابة، لكنني لم أتحدث.

«حبيبتي أمل..

حين مرَّ أسبوع على غيابك، لا إجابة على التليفون ولا رد على ما أرسله، غضبتُ من نفسي ومن انسياقها خلف شيءٍ لا تعرف حقيقة شعوره حتى، وربما تحملين شعورًا لرجلٍ آخر غيري،

حاولتُ أن أعيش يومي من دونك لكنني يا أمل نسيت ماذا كنت أفعل قبل أن أجدك، وأصبحت طوال اليوم أدور حول نفسي، أسكبها في العمل سكبًا، أشترك في أحاديث الرفاق حتى ولو لم أكن مهتمًّا بها، أسير في الطرقات وحين تأخذني قدماي إلى مكاننا عند النيل. يُحيَّل إليَّ أنني سأبكي، وندمتُ لأنني أظهرت ضعفي أمامك، رغم علمي أنك ستأخذين ضعفي وليدًا تهدينه فيصير عصبة من شعورٍ قوي، هل يُخطئ الرجل منا إذا أظهر ضعفه أمام قوته؟

وحين نطقت فوزية أخيرًا وأخبرتني أن الطفل الذي كنتِ متعلقة به لقي حتفه، وقفتُ وتركتهما وأنا أقطع الطُّرق كالثور الهائج، ثم أخذتني قدماي إلى أسفل بيتك، ولم تطلي يا أمل وتُطفئي شوقي إليكِ وحزني عليكِ.

ماذا سيحدث لو تخليتِ عن عنادك ووضعتِ رأسك على صدري؟ أنا بحاجة إليكِ وأعرف أنك بحاجة إليَّ، من تحاربين منَّا؟

تعالي يا حبيبتي، انسي كل ما يؤلمك، واتركي خلفك كل ما سيجعلك تفكرين، أريحي عقلك وسأفكر أنا بدلًا منكِ، لكن لا تهربي مني وتجعلي مني رجلًا هشًّا عرضة للسقوط».

وضعت الورقة جواري بملامح ثابتة، نظرت إلى فستان زفاف نجلاء المُعلق الذي لم يكتمل ولم أحِد ببصري عنه.

سألتني فوزية: «صادق شاب جميل، ولأول مرة أرى رجلًا خائفًا هكذا على امرأة، رأيت ذلك في عينيه، سألني عنكِ ككل مرة وهو ينظر الجهة الأخرى وكأنه يسأل مكرهًا، وحين قُلت له السبب رأيت الدموع في عينيه، كم رجلًا عرفت أنا؟ ربما عدد أصابعي، ولا مرة رأيت في عين أحدهم هذه اللهفة.

إن كنتِ تحبين صادق، لم تفعلين به وبنفسك هكذا؟».

سقطت دمعة من عين واحدة لي، العين اليمنى، ولم تتغير ملامحي، كان الفراغ يتسع حولي، وسقطت به، لم يعد لدي في الحياة كلها سوى صادق، وأنا لم أتعلم الدرس جيدًا، وهو ألا أجعل حياتي تدور حول شيءٍ واحد، فقده سيكون تعريفًا للموت.

عادت تقول: «لا تؤاخذيني يا أمل لكن لا تعجبني حياتك أبدًا، هل هناك عاقل يأتي الحب إليه ويرفضه! عشت معكِ سنوات وإلى الآن لا أفهمك ولا أعرف ما الذي يدور في رأسك، تكلمي معي، افتحي قلبك».

مسحت الدمعة التي سقطت ولم أجبها، كنت أفكر إذا كنتُ أرى صادق متهمًا، أقصد أنه السبب في خروجي من القرية وفتح باب العالم لي، ماذا كان سيخسر لو رفض منذ البداية أو حتى أعطى قلبه فرصة لربما أحبني.

قالت: «لستُ معك فيما تفعلينه في نفسك، كلنا بكينا على حسن، لكن ليس بهذا الشكل، فوقي لنفسك يا حبيبتي».

- قرَّبي مني الهاتف، سأتصل به.

صاحت وهي تركض تجاه الهاتف: «غير معقول!».

واتصلت به، وهدأ قلبي حين سمعت صوته، انفعل وغضب ولان ثم في النهاية قال لي بصوتٍ هادئ: «أمل أنا أحبك».

***

رغم أن فوزية الوحيدة بيننا التي لا تتوقف عن الضحك، لكنها أقلنا سعادة، لأنها تفتش عنها في كل شيء ولا تجدها، حتى ولو لم تظهر ذلك لكن المحاولات التي تبوء بالفشل تترك أثرًا.

اقتسمنا النافذة أنا وهي، في يد كلٍّ منا كوب شاي، تنظر إلى السماء حالمتين.

اعتدلت وجلست ثم قالت: «لم تقولي لي ماذا حدث بينك وبين صادق بالأمس».

اعتدلت مثلها وقُلت: «ماذا سيحدث؟ تقابلنا وتحدثنا قليلًا، فقط».

- أشعر أنه سيأخذ خطوة حقيقية تجاهك.

قبل أن أجيب سألتني: «كيف ترين فوزية يا أمل؟ هل أنا سيئة؟».

- من أي جهة؟

- من كل جهة، أقصد إذا كنت لستُ جيدة بصورة كاملة لتكتمل لي علاقة واحدة.

- لكنكِ ترهقين مشاعرك قصدًا، تخرجين من علاقة لتدخلي الأخرى، كأنها لعبة بالنسبة إليكِ.

- لكنني لستُ الشخص الذي يترك كل مرة، هم يعرفون أنها علاقة لن تدوم طويلًا ويتعاملون على هذا الأساس.

- ولم تدخلين في علاقة مع رجل من هذا النوع؟

قالت بأسف: «آمل به خيرًا».

أمسكت يدها: «هل أحببتِ من قلبك مرة؟».

- كل مرة.

ضحكت: «كاذبة».

- تقولين هذا لأنني لا أبكي حين يرحلون؟

- لا، بل لأن لا أحد لديه القدرة على الحب بهذه السرعة.

عارضتني: «أنتِ أحببتِ صادق من أول مقابلة بينكما، وهو أيضًا أحبك».

- لنفترض أنني أحبه، هذه حالة قد لا تتكرر معي بعده أبدًا.

تنهدت ثم رفعت قدميها على الطاولة: «ماذا سيحدث لو تزوجتِ أو تزوجت أنا، هل ستبقين في هذه الشقة بمفردك؟».

- لو تزوجت أنا ستذهبين إلى والدتك، ولو تزوجتِ أنتِ فأنا لي رب لا أعرف ما الذي سيحدث، لكن كل مرة كنت أقف في هذه الحيرة ولا أعرف ماذا سيحدث، لم تقف الحياة ولا مرة، كانت تسير وتحركني معها، وهذه المرة سيحدث الشيء نفسه، ربما تلقيني في مكانٍ آخر.

نظرت إليَّ خائفة وأنا ألتفتُ الجهة الأخرى سعيدة لأن كثرة الفقد قتلت داخلي الشعور بالخوف.

قال لي صادق مرة أن أكثر شيء ندم عليه في حياته هو أنه لم يحضر جنازة والده لأنه أوصى بذلك قبل موته، وآلمني قلبي عليه وعلى الباشا الذي لم يحضر وحيده جنازته، لا يستحق ذلك، وكان لدي شعورٌ أن غضب الباشا كان بسببي.

سألته: «ولم أوصى بعدم حضورك؟».

- موضوع قديم لا أحب الحديث عنه.

- لكنني لا أحب أن تخفي عني شيئًا.

- أنتِ أيضًا تخفين على أشياء.

- ولا شيء، أنت تعرف كل شيء، حتى الذي حدث قبل أن تقابلني.

- هذه المرة الثانية التي تقولين فيها جملة مشابهة، وكل مرة أشعر أنكِ تقصدين شيئًا.

- إذا أظهرت ما تخفيه عني سيُكشف لك ما أخفيه عنك.

- لا أخفي شيئًا صدقيني.

شعرتُ بالمرارة في حلقي، لأن الفتاة التي يجلس أمامها في عينيه بريق لهفة، هي الفتاة نفسها التي صنفها شيئًا ضئيلًا لا يُذكر، وأنا الفتاتان معًا.

سألني بعد صمتٍ: «هل أحببتِ من قبل يا أمل؟».

وغرقتُ في نوبة ضحك، حتى إنني وضعتُ يدي على جاكيته أمسكها كيلا أسقط.

- لم تضحكين؟

نظرتُ إلى عينيه وما زالت الابتسامة على وجهي: «السؤال مُضحك».

- وإذا كنتُ أريد إجابة عنه؟

- هذا يعتمد على أهمية الأمر بالنسبة إليك.

- مهم بدرجة غير معقولة.

- إذن لن أجيب.

تجعد جبينه: «يعني أنني الرجل الثاني في حياتك!»

- وما الذي يهمك في العدد، المهم أنك في حياتي؟

- لماذا تتحدثين بلا مبالاة كأنني لستُ رجلًا قد تقتله الغيرة عليكِ!

- تغار من رجلٍ كان قبلك وربما لن تقابله أبدًا؟ كلام غير منطقي.

- لا تُدخلي المنطق في الحب.

- هذا يعني أنني متاح لي أن أغار من المرأة التي كانت قبلي؟

- لم يكن هناك امرأة قبلك، لكن الأمرين لا يستويان، أنا رجل.

وقفتُ وكانت الشمس قد بدأت تغرب: «حسنًا يا سيادة الرجل، وأنا امرأة، المرأة تُخطئ لأنها بشر، ولا يحق لأحد أن يحاسبني على أخطائي، إما أن تتقبلني بها، وإما أن تتركني لوجه الله».

وقف وأمسك ذراعي في رفقٍ بالغ: «لم تغضبين يا أمل؟هل يغضبك أنني أحبك ولا أحتمل أن ينبض قلبك بحب رجل غيري؟».

نظر حوله ثم قال وهو يبتسم: «هل تمانعين أن نتقابل غدًا في بيتي؟».

كان ينتظر مني رفضًا لكنني نظرت إلى عينيه دون أن أرمش وقُلت: «ولمَ لا؟ اترك لي العنوان فقط».

ارتجف جفته لكنه لم يُظهر رد فعل كيلا أغضب.

شهقتِ حتى استيقظ حسن على صوتك: «وذهبتِ إلى بيته؟!».

حملته وأنا أضحك: «هل نسيتِ أنه زوجي؟».

أطرقتِ وأنتِ تستغفرين: «والله نسيت قصة مقلوبة على رأسها».

وأنا أقول: «هذا ما حدث معي بالضبط، كنت أنسى أحيانًا أنه زوجي، لكن لا تعرفين ما حدث يومها، هل تعرفين من رأيت يشتري سجائر قريباً من العمارة؟ خالي، سقط قلبي في قدمي حتى شعرت أنني انتعلته، رأيته يدفع للرجل مالًا ويأخذ السجائر، نظر تجاهي نظرة خاطفة ثم أدار وجهه، رفع جلبابه قليلًا وذهب، لم يعرفني، كان يعمل بوابًا في عمارة قريبة، لم أقف وأكملت طريقي لكنني تعرقت وشعرت أن قدميَّ تحجرتا ونسيتُ كيف أمشي.

- خالك! الله يخيب رجاه، لا يسأل عنَّا أبدًا وكأنه نسي أنه له أهل هنا، وأمي الله يرحمها ماتت وهي تقول إنها تركت لنا رجلًا! الله لا يوفقه.

- رغم أنني لم أره في حياتي إلا مراتٍ معدودة، فإنني شعرتُ بحنين غريب إليه، وكان هناك شعور حاربته، وهو أن أذهب إليه وأضع رأسي على كتفه أو أدخل جسدي بين ذراعيه، لا أعرف، التفتُّ ثلاث مرات قبل أن يختفي تمامًا.

- اتركينا من هذه السيرة حتى لا أسبه، أكملي، هل كانت الشقة نفسها؟

- لا، الشقة الأولى كان يؤجرها، أما الثانية ملك له، أعرف أنه حتى اللحظة التي وجدني فيها أمام باب شقته كان يتمنى ألا أذهب إليه، لأن النساء المحترمات لا يذهبن إلى رجلٍ في شقته، حين رأني رأيتُ في وجهه سعادة وخيبة، مد يده ليمسك يدي ويدخلني.

استقبلني صوت الجرامافون فركضت تجاهه وأنا أسأل بلهفة: «هل لديك جرامافون هنا! لم أكن أعرف».

طبق ذراعيه أمامه وهو يستند إلى الحائط الموضوع جهه الجرامافون: «يعني هذا أن زياراتك ستكثر؟».

ابتسمت: «لكن سيختلف المَزُور».

- ستجعلينني أغار منه أيضًا!

التفتُّ حولي لأرى الشقة، انتبهتُ لستائر لونها أبيض، قُلت: «ذوقك رائع».

- ذوق حكمت أختي.

تصنعتَّ الجهل بالأمر: «هل هي أكبر منك؟».

- أجل أكبر مني، ولها ابن إذا تحدثتِ معه ستحبينه فورًا.

تحشرج صوتي وأنا أسأله: «وهل أصبح يتحدث؟».

- ويسير أيضًا، سيكمل الأعوام الخمسة.

شيءٌ شبيهٌ بالألم هاجمني، لكنه لم يكن ألمًا خالصًا، كمال الذي حملته طفلًا أصبح يسير ويتحدث، وغدًا سيُصبح رجلًا إذا رأني لن يعرفني.

قال: «أريد أن أعرفك إليها، ستحبينها كثيرًا، وأنتِ يا أمل، ألم يبقى أحدٌ من أهلك أتعرف إليه؟».

- ومن قال إنني أريدك أن تتعرف إلى أهلي؟

- وهل ترفض فتاة أن يتعرف الرجل الذي تحبه إلى أهلها؟

- الذي تحبه!

- اقترب مني خطوة: «هل ستنكرين؟».

ابتعدتُ وأنا أسأله: «اتركنا من هذه الأمور، ألم تسمع خبرًا جديدًا بخصوص الحرب؟».

- لكنني أتيتُ بكِ من أجل هذه الأمور.

قال بسرعة قبل أن أُعلِّق على حديثه: «أقصد طلبتُ منكِ المجيء، هل هذا جيد؟».

ضحكتُ: «جيد».

- لم تشغلين رأسك بالحروب وغيرها؟

- لم يبق لي أحدٌ يا صادق، هذا الوطن هو كل ما أملكه، ولو نظرنا إلى الواقع فنحن لا نملكه لأننا وطنٌ محتل، وأنا لا أريد الاقتناع بأنني لا أمتلك أي شيء.

- وأين حياتك من كل ذلك؟ عرفتُ أنكِ تذهبين إلى دور الأيتام كل يوم جمعة، وأنكِ فيما قبل كنتِ تقضين كامل وقتك في كتابة أشياء تلقينها على النساء، قبلها كان وقتك يضيع في توزيع المنشورات وكأنكِ لا تهتمين إذا ألقوا القبض عليكِ، أين حياتك؟

- لم تكن هذه حياتي، ثم أصبحت، هل أرفضها؟ وفي النهاية لا أحد يهرب من قدره.

- لكن الحياة تفرض علينا أحيانًا أن...

قاطعته: «لا تفرض شيئًا، هي بالأصل قدر، شئت أم أبيت سيحدث، نحن من نسير عكس المطلوب لذا تُعاقبنا بإعادتنا للطريق الذي تريده هي».

- لكننا لا نعرف المطلوب كي نسير تجاهه.

- هنا تكمن متعة الحياة.

- أو أذيتها.

- لا تنظر إلى الأمور من ثقب إبرة.

صمت قليلًا ثم قال: «منذ متى وأصبحت النساء تتحدث بعقلٍ يفسر ويحلل، كنتن دائمًا رمزًا للمجاز، لا تنظرن إلى النار على أنها نار ستحرق وتُحوَّل كل شيءٍ إلى رماد، بل بمنزلة شيءٍ سيترك دفئًا ولو لبضع لحظات».

غضبتُ منه وقلت وأنا أحرك يدي بعصبية: «هذا ما تُريده أنت، وما يُريده جميع الرجال، أن نكون النظرة الحالمة، لكن أتعرف لماذا؟ كي تسفهوا من تلك النظرة، كي تجدوا عذرًا للتشكيك في عقولنا، كي يكون هناك مبرد لإقصائنا من لجان التحكيم والمناصب».

- مع من تحاربين يا أمل؟

قُلت بكراهية واضحة: «مع الجميع، ومعك أنت على وجه الخصوص».

- معي؟!

ضحكت فجأة: لا تخف، كرهنا أيضًا حب، تخيل أن أحبك حبًّا وأحبك كرهًا، أحبك بلا عقلٍ يُرشدني وأحبك بعقلٍ يرشدني إليك».

- لا تغالي في تعقيدك، هذا يوقعني بكِ أكثر.

- اسقط بي يا صادق ولا تخف، أنا أيضًا جربتُ السقوط الذي تتحدث عنه.

- سقوط يليق بالنساء.

- يليق بالمُحب.

- وهل أحببتِ من قبل؟

- لم لا تتوقف عن هذا السؤال، كأن في إجابته حياة أخرى لك.

- يهمني أن أكون أول من دخل قلبك.

وقفت أمامه، امتلأتُ برغبة كبيرة في أن أحرقه، كادت عيني تلمس عينه حين اقتربت من أذنه وقُلت: «وإذا أخبرتك أن هناك رجلًا سار على جسدي من قبل، لم يترك به خلية لم يلمسها».

أبعدني بقوة حتى كدتُ أقع، نظر إليَّ باشمئزاز: «قلت لكِ لا أتقبل المزاح في مثل هذه الأمور».

- أتحاول إقناعي أنك لم ترتكب هذا الذنب من قبل؟

- أنا رجل!

قُلت وكأنني لم أسمعه: «كان ذنبًا عليك، وحلالًا لي، أنت فعلته ولم تهتم بغضب الله عليك، وأنا فعلته مرضاةً لله، أضيفت خطيئة في كتاب حسابك، وأضيفت حسنة في كتاب حسابي».

- عمَّ تتحدثين؟

- لسنا سواء، رغم خطيئتي ما زلتُ قديسة، وستسمى خطيئة لأن لا أحد غيري يعرف أنها عكس ذلك.

بدا الخوف في عينيه واضحًا حين سألني: «هل هذا لغز؟».

- حقيقة والله، لكنك تُنكرها.

بدأ قلبي يركض في صدري وحين حاولت أن أمسكه أنهكتُ رئتيَّ فتنفستُ بسرعة، تمنيتُ أن تموت لحظات عديدة في حياتي، أو أن أنسى حياتي الماضية تمامًا، صرخت حين شعرتُ بعقلي يركض هو الآخر: «إن لم تنقذني سأجن».

انفجرت الدموع من عيني، كأنها أسطوانة ماء كُسرت، حاول أن يجمعني لكنني متأكدة أنه جُرح حين لمسني، وهذه قاعدة مهمة، لا تقترب من امرأة كسرتها.

عاد لي تركيزي وأنا بين أحضانه نجلس على مقعد واحد، كنتُ كعصفور بللّه المطر، أجلس على رجليه ويحاوطني بذراعيه معًا، منذ سنواتٍ عديدة وأنا أبحث عن هذا الشعور، أن أهدأ، أطمئن، أستكين، أغلقتُ عيني مرة أخرى، ابتسامة خفيفة ظهرت على شفتيَّ لكنه لم يرها. ضغطتُ بوجهي صدره وكأنني أردتُ أن أتسلل إلى داخله، شعورٌ غريب بالأمان وجدته بين ذراعيه، حين حركتُ يدي على قلبي لأتحسس حركته الهادئة، شعرتُ برأس صادق يتحرك، وضع قبلة صغيرة على شعري وقال بصوتٍ يشبه الهمس: «ظننتك نائمة».

ضممت نفسي أكثر داخله: «لا تخرجني من هنا».

عرفتُ المكان الذي أركض إليه إذا ما ضاقت، وليس هناك أفضل من أن يمتلك الإنسان مكانًا يركض إليه حين تعطيه الدنيا ظهرها، دقائق فقط في حضن صادق كانت كافية ليخرج من قلبي كل شعور أرهقه، شعرت بأنفه يدسها في شعري، ويده تضغط جسدي كأنه يخشى أن أهرب، وتمنيتُ أن تتحول الدقيقة إلى عام كامل، وألا تنتهي اللحظة أبدًا.

اعتدلنا أنا وهو حين سمعنا صوت الهاتف، سألني: «هل أجيب؟».

. وقفتُ وأنا أبتسم، ذهب تجاه الهاتف وهو ينظر إليَّ بعينيه اللامعتين، كان فؤاد، اتصل حين طلبت منه فوزية ذلك لأنها قلقت عليَّ.

عدلتُ شعري بيدي وأنا أتحرك تجاهه: «سأذهب كيلا تقلق أكثر».

- هل ستأتين هنا مرة أخرى؟

ابتسمتُ: «ما دام لديكَ جرامافون».

وبعدها يا خالة، الفتاة التي كانت تضع رجلًا تحت وسادتها، تغلق الضوء كيلا ترى شيئًا، وكيلا تخاف إذا ناداها مرة أو مرتين كما يفعل دائما قبل أن يسرقه النوم، لأنها كانت ترفض تصديق وجوده، تخفيه جيدًا، وحين تبكي تناديه بوهن ليفتح لها ذراعيه، يمسح بيديه على الجزء الذي يؤرقها، يقتل الفزع، يحارب الخوف، وبعد أن تأمن قليلًا، تغلق الضوء كيلا تخاف إذا ناداها بعدما تضعه تحت الوسادة.

نادته أمام العالم، وهذه المرة بلا خوف.

***

طلب محمد رؤيتي أكثر من مرة بعد خروجه من السجن بتسعة أشهر، وحين نفدت أعذاري ذهبتُ للقائه، تقابلنا في حديقة الأسماك، تلك كانت رغبته.

ولم أكن أتهرب منه لشيءٍ ذي أهمية، إنه صديقٌ عزيز، لكن قلقتُ من تذكره لي بعد كل هذا الوقت، كان يجلس عند الجبلاية وحين رآني وقف ليرحب بي، لاحظت فقده للوزن، عيناه أصبحتا أبرز، مد يده وسلَّم علي ثم جلسنا.

كان صامتًا ثم بدأ في عتابي، ثم صمت وكأنه تذكر أن عتابه قد يقلل من رجولته أمامي.

سألته مازحةً: «ما الذي ذكرك بي؟».

- لم أنسَ لأتذكر.

- ليس هناك داعٍ لهذا الحديث يا محمد.

أخرج سيجارة وأشعلها، أخرج دخانها ببطء من فمه وهو يقول: «عندك حق».

سألني بعد أن أطفأها بملل: «ماذا تفعلين هذه الأيام؟».

- لا شيء، لم يبقى سوى عملي فقط.

- قطعتِ روابطك مع الزملاء؟

- لو بيدي شيئًا أقدمه لفعلت.

- قولي إنك أصبحتِ مشغولة.

نظرت إليه أحاول أن أفهم ما يدور في عقله: «ماذا تقصد؟».

- أقصد الرجل الذي تقابلينه هذه الفترة.

- هل تراقبني؟! هذا غير لائق ولا أسمح به.

- لا، رأيتك مصادفة.

- لا أصدقك.

- أعرف، لو صدقتي حديثي مرة لعرفتي أنني أحبك.

- إذا استمر حديثك في هذا الأمر، سأعتذر منك وأرحل.

-هل تحبينه؟

- وما شأنك أنت؟! هذه حياتي.

- نسيتُ أنكِ حرة.

- محمد، كنا صديقين لفترة جيَّدة، لا تعكر صفو صداقتنا.

غيَّرت الموضوع: «قل لي ماذا تفعل أنت في حياتك؟».

- ماذا سأفعل، أوقفوا التعيين، ما زلتُ أبحث عن عمل، لا عمل، لا زوجة، لا شيء، وقريبًا لا وطن.

- لماذا تقول لا وطن؟ هل تظن أننا سندخل الحرب؟

- وهل في ذلك شك؟ سندخلها لا محالة.

انتبهت له بكل حواسي: «لكن لا شيء يؤكد ذلك إلى الآن».

- الإيطاليون في طريقهم لدخول مصر وسيدخلونها عن طريق ليبيا، أظن أننا سننتصر.

- ولو هُزمنا؟

- سيدخلون مصر، وحينها سنبدأ رحلة المناداة بخروج المحتل مرة أخرى، مصر انقطع نفسها في المناداة.

رجعت بظهري للوراء وأنا أنظر جهة اليمين أتأمل المارة وأفكر. سألته: « وماذا علينا أن نفعل الآن؟».

- لا شيء، ننتظر القرار.

- هل تعرف أن الناس يريدون دخول أي محتل آخر فقط ليخرج الإنجليز.

- هذا أشبه بالترويج السيئ الذي يقدم خدمة جيدة للشيء.

-لم أفهم.

- كأن تقدمي خدمة لخصمك دون قصد، مثلما حدث في أثناء ظهور مطابع الكتب في القرن السادس عشر وانتشرت آلاف الكتب وأقبل الناس عليها، فقام الكهنة بعمل قائمة أو دليل بأسماء الكتب التي لا توافق الكنيسة على نشرها وقراءتها، وبدلاً من أن تكون القائمة أداة للتحريم، أصبحت أداة للترويج، إذ إن الناس أقبلوا على الكتب التي تُذكر في القائمة، لدرجة أن الطابعون في ألمانيا كانوا يبعثون وكلائهم لكي يبحثوا عن الكتب الواردة بالقائمة لينسخوها، وأصبحت قائمة الكنيسة أكبر إعلان للكتاب وأكبر ضمان لرواجه. الغباء أحيانًا يخدم

من الجهة الأخرى، وكرهنا للإنجليز قد يدفعنا لارتكاب حماقات، مشكلة هذا الشعب أنه لديه حب خالص لبلده لكنه ليس لديه الوعي الكافي ليتصرف على هذا الأساس.

ذهب كلٌّ منا في تفكيره، وقلت لنفسي أن تقوم الحرب أفضل بكثير من الرعب بسبب الانتظار، أن نعرف المصير أفضل من تخيل ما قد يحدث.

وهو محق في وصف الشعب بأنه يفتقد الوعي، شعب مسالم يريد أن يعيش في هدوء، يريد أن يمتلك ما يكفيه ويعود في نهاية يومه يلقي بجسده بين ضحكات صغاره.

مرت ثلاثة أيام فقط ووصلت إلينا الأنباء بغزو الجيش الإيطالي من جهة شمال مصر، لم أقطع تواصلي مع محمد لأنه كان يوافيني بالأخبار، ولم أكن أغلق النافذة لأسمع ما يقولونه على القهوة، وعرفت أنهم استولوا على مدينة سيدي براني.

سمعت صوت عم توفيق من القهوة يقول: «هل كان فينا نفس لإخراج الإنجليز من مصر، ليدخل الإيطاليون أيضًا!».

- لن يسمح لهم الإنجليز بالدخول، ولّا فالحين فقط باستعراض عضلاتهم علينا؟

- الله ينتقم منهما معًا، هو كبير وقادر عليهما.

- لكن الولد محمود ابني يقول إن ضحاياهم أكثر بكثير من ضحايانا، أقصد من ضحايا الإنجليز الله يأخذهم ويريحنا منهم.

- يا عم قُل يخلصونا من الحرب ثم يأخذهم، وهل قال لك محمود أفندي من أقوى فيهما؟

رأيته يخرج دخان الشيشة من فمه ويقول: «كلهم ظلمة، لكنه قال إن الانتصار الأول الذي حققوه، لم يتركهم الإنجليز يسعدون به، الله يضرب الظالمين بالظالمين ويخرجنا من بينهم سالمين، يقول إن الإيطاليين

عددهم أكبر بكثير، لكن الإنجليز يقتّلون فيهم، وتحدث عن عملية سيؤديها الإنجليز نسيت اسمها، العلم نور يا عم توفيق ونحن على قد حالنا».

- هؤلاء جزارون، سيقضون على الأخضر واليابس، لكن ما دام الأمر في مصلحتنا نقول الله ينصرهم على أعدائنا وينصرنا عليهم في النهاية.

أغلقت النافذة على صوت طرق الباب، كانت العمة سامية، لم تدخل، قالت وهي تقف على الباب بأن أكمل فستان نجلاء لأنهم حددوا الفرح بعد شهر.

أنا جربت شعور اليُتم، ولم أتذوق شعور أن أفقد طفلًا لي، لكنني رأيته في عين العمة سامية يسقط دمعة، مسحتها بطرف شالها الأسود وهي تحدثني عن الاستعداد للفرح.

انشغلتُ في تتبع الأخبار وإكمال فستان زفاف نجلاء وحضورها كل يومين لترتديه أمامي وأضيف فيه ما ترغب، كانت هادئة وطلباتها بسيطة، ولم يكن بفعل الحزن، عَهدتها لا تتحدث كثيرًا، وفي المساء قد ألتقي بمحمد.

- وصادق؟

قلت متفاجئة: «لا إله إلا الله، هل نسيتُ إخبارك ما حدث! رأسي يؤلمني وتركيزي ضعيف، هل تذكرين المرة الأولى التي قابلت فيها محمد؟ قبل هذا كله وقبل الحرب، لم يتصل بي صادق ولو لمرة واحدة ولم يرسل رسالة ولم يطلب مقابلتي حتى وكنتُ أتعجب لذلك، لكن بعد يومين أعطاني فؤاد رسالة وأنا مع فوزية، كان صادق يقول فيها إنه عرف أنني كنتُ مع رجلٍ آخر، وحديث صعب يا خالة لم أحتمله اشتعلتُ غضبًا حين انتهيتُ من الرسالة، كان من المفترض أن أبكي لأنه في حديثه معنى بأنه خُدع بي، لكن النار تأججت في صدري، وكتبت له رسالة أيضًا، قُلت له:

«عزيزي صادق..

وصلت إليَّ رسالتك اليوم، جاءني بها فؤاد صديقك، لن أتحدث عن نظرته إليَّ ولا عن الطريقة التي ترك بها الرسالة لأن فؤاد لا يهمني، لكن لم تتهمني بأنني خدعتك؟ كنتُ مخلصة لك لآخر لحظة ولا أقصد إخبارك الآن أنني ما زلتُ مخلصة لك، لأنني لا أملك خيارًا آخر، ولأنك يا صادق الرجل الوحيد الذي أحببت، قُلت أيضًا إنني امرأة لعوب، كم مرة سأغفر لك؟ المرأة اللعوب لا تغفر يا حبيبي، تنتقل من رجل إلى رجل كما ينتقل بقدميها حذاء خلف حذاء، وأنت تعرف أنني مهتمة برجل واحد، والرجل الواحد هو أنت.

كيف استطعت القول إنه يمكن لأذرع جميع الرجال أن تتعرف عليَّ؟! وإنني ليس لدي مشكلة في زيارة منازلهم، أقسم لك —ولا تعتبره دفاعًا عن نفسي— لم يمسسني رجلٌ غيرك، ولم يضع رجلٌ غيرك رأسه ما بين رقبتي وكتفي. أعرف أن الحب أحيانًا يجعلنا حمقى، لكن وبعد اعترافي أن جذورك ثابتة بي وأن رياح خلافاتنا لا تُزيدها سوى رسوخٍ ولا تزيدني سوى تعلُّقٍ وحماقة، فأقول لك أيضًا إنني لن أمرر ما كتبته، وإنني والله لن أغفر لك إلا إذا ركعت أمامي وبكيت، وإنك والله ستركع وستبكي».

تأملت ما كتبته قليلًا ثم ألقيت الرسالة بعيدًا، قررت ألا أرسلها، لكن فوزية قرأتها وأخذتها لتعطيها لفؤاد».

قالت: « وأنا كنتُ أدافع عنه كالمغفلة! اتضح أن كل الرجال واحد، يتحدث عنكِ أنتِ بالسوء! فَشَر».

لم يجب على الرسالة إلا بعد يومين، اتصل بي وشعرتُ بالندم في صوته وأن الغيرة أعمته لكنني أغلقت الهاتف دون إجابة واحدة، وطوال الأسابيع

التي شُغلت فيها كنتُ أحيانًا أراه على القهوة ينظر إلى النافذة، وطلبت من فوزية أن تقول أمام فؤاد بأن محمد صديق عزيز لا أكثر، وكنت أعرف أنه سيُخبر صادق، وتركته للندم يأكله، أنا التي حافظتُ على نفسي في غيابه رغم أنني لم أكن أعرف أنه سيعود،

لكن رهبة من العقد الذي جمعنا أمام الله وجعلني زوجة له وحده وحلالًا له وحده، يتهمني!

سخرِت مني: «من أجل العقد فقط؟».

ضحكت وأنا أحاول إخفاء خجلي: «ليس فقط، حتى لو كان متاحًا لي الأمر لم أكن لأفعله، لم أتخيل يومًا أن ينطق لساني كلمة أحبك لرجلٍ غيره، المهم أنه بعد أسابيع طويلة لا أعرف من منا كان يتعذب أكثر، أجبته، واللقاء بعد هجرٍ له حلاوة لا توصف، تلقين كل كلمة اختبأت داخلك، كل بكاء طالك ليلًا، كل مرة زارك فيها الحنين، وكل المرات التي التف فيها صوت الغائب على قلبك ليدفعك إلى الركض تجاهه، يخرج دفعة واحدة في لقاء لليدين، واندفاع النظرة لتعوَّض ما حُرمت منه، تتأكد أن كل خلية في موضعها، وأن النظرة الأخرى تساويها في الاشتياق.

جلستُ جواره واضعة رأسي على كتفه».

- هل سامحتني يا أمل؟

لم أجب بداخلي حربٌ لا تنتهي، هذا الرجل أحبه كأن لا رجل غيره، وأكرهه كأنه كل من خذلني، أريده بكل ما تحمله الكلمة من معنى في معاجم اللغة، وأرفضه لشيءٍ في نفسي.

حتى حبه لي لا أستطيع تقبله بشكلٍ كامل، لأنه بطريقة ما يخون آمال، وآمال هي أنا، سامحه الله وضعني في مكان أكبر مني وأصعب من أن أجتازه.

سألني: «مهمومة؟».

- منقسمة لأكثر من شخصٍ وكل الأشخاص داخلي مهمومين.

- لكن الإنجليز استطاعوا التصدي للإيطاليين، فما الذي يُحزنك؟

- ليست هذه الحرية التي نتمناها.

كعادته في كل مرة يدير الحديث بيننا تجاهي كأنه يريد أن يستكشفني: «فهمت قصدك من حرية البلد، ما هي الحرية التي تبحثين عنها أنتِ؟».

- أن أكون عبدًا بإرادتي.

سألني وكأنه أُعجب باللعبة: «وما هو الحزن بالنسبة إلى أمل؟».

- غيم السماء حين ترفض أن تُمطر.

- وما هو الوجع؟

- نغزٌ غير مرئي ولا يمكن وصفه بكلمة.

- وما هو النسيان؟

- فعل كاذب، الذاكرة تراوغ.

- وما هو الحب؟

- أملٌ في الغد لا أحد يعرف نتائجه.

- والفراق؟

- سكّين لا تذبح، تترك أثرًا وألما فقط.

- وأنا؟

نظرتُ إلى عينيه وقلت: «حزنٌ لا ينتهي إذا ما غبت، وجعٌ يعرف طريقه لروحي إذا رفضت العودة، نسيانٌ لا أحصل عليه حتى لو حاولت، حبٌّ بحثتُ عنه، وفراقٌ بيني وبين الحياة لو أضعته».

قال وكأنه يترجاني: «لا تقترفي ذنب البُعد مرة أخرى يا أمل».

- هل كل الأمنيات تتحقق؟

- أنتِ الشيء الوحيد الذي بقيت لأجله في مصر، لولاكِ لعدت إلى لندن منذ فترة طويلة.

نظرتُ أمامي: «ولولاك لكنتُ أبسط وأخف وربما أنظر إلى الأمنيات على أنها قابلة للتحقق».

- لم تصعبين الأمور وتحملين همومًا لا تنتمي إليكِ؟ الأمر بسيط فعلًا.

قلت وكأنني أشتكي له: «يؤلمني كل شيء يا صادق، الحروب التي تحدث في بلادٍ بعيدة، الأطفال الجوعى، التشرد الأمهات الثكالى، الأحزان تقسم نفسها مع صاحبها ومعي، إنني مسممة بالتفكير، وأشعر أنني مسؤولة عن كل شيء،

مسلوبة الإرادة، ضعيفة وعاجزة، ألم أقل لك مرة إذا ما أردت أن تجدني، ستجدني دائمًا في أي مأساة؟!».

- إلى أين يهرب البحر يا ترى؟

سألته إذا كان يتمنى الغرق، إذا كان يريد أن يشعر بذلك الشيء الذي سيجعله يُصدِّق أنه ما زال يحب الحياة ويتمناها، لم يكن لديه إجابة مثلي.

ليلتها كان البحر ثائرًا، يكسر بأمواجه شيئًا ما، حتى البحر عجزتُ أن أكون مثله، أن يكون صوتي مرتفعًا أكسر وأثور وأرفض وأقول للعالم: «أنا آمال»، ويجب أن يخاف بعدها، أن ينتبه، يسمع، يوافق صاغرًا، الأفكار كانت تقتلني، ولم أشعر برأسي إلا وهو يسقط على رجليه.

قال وهو يُدخل أصابعه في شعري: «أشفق على رأسك أحيانًا».

سألته: «والأحيان الأخرى؟».

- أحبه، حين يكون هادئًا، لا يفكر بشيءٍ، بشيءٍ سواي.

- لا يكون هادئًا حين يفكر بك، صادق.. أنا أحب هذه المدينة وأكرهها، من قال أكذوبة أن الوطن يُشبه الأم؟

- قولي من صدَّقها.

- كثرة التفكير به ستوصلني إلى الجنون، انظر كيف يبدو العالم من بعيد، البنايات الكثيرة على الجهة الأخرى، عدد الناس كبير، كبير لدرجة تُذهب العقل، مرة تمنيتُ أن يفرغ العالم إلا مني ومنك، لكنني حين فكرتُ أننا سنصل إلى النتيجة نفسها، وسيأتي يوم يمتلئ فيه العالم مرة أخرى، شعرتُ بالإحباط.

قال وأصابعه ما زالت في شعري: «تزوجيني يا أمل».

فارت القهوة في رأسي وأطفأت النار، اقترب البحر مني، رفع أمواجه ثم سقط بها وتكسّر، رأيته يتطاير ويخرج من بطنه امرأة تُشبه نساء الحكايات، عبرت المدينة في لحظة كأنها جنِّية، هذا العالم صغير، صغير لدرجة أنني طويته في يدي وضحكت.

أتعرفين مَن تلك المرأة؟ إنها آمال، آمال الصغيرة التي سُرق حقها، والآن يُسرق منها الرجل الوحيد الذي أحبته وتمنته، ورغم أنها رأته كبيرًا جدًّا عليها، أكبر من أن يكون أمنية، فإنه رفضها، وقتها عرفت، عرفتُ أنه رفضها لأنها رأته أكبر من أن يكون أمنية.

قُلت ورأسي ما زال على رجله: «لا».

ووضعتُ نقطة.

رفضته! ووقتها أحببتُ نفسي لأنني لم أخنها ولم أسرقه منها.

أتعرفين لِمَ كنتُ أنتقم من صادق؟ لأنه أوصلني إلى حالة جنون، أقنعني دون أن يعرف أنني امرأتان، وصدقتُ أن هناك امرأة أعرفها اسمها آمال، ولم أكن لأخنها أبدًا وأخطف منها زوجها. هو اختار امرأة منهما، ومن حق هذه المرأة أن ترفضه أو تقبله، أن تحبه أو تعذبه.

رفعتُ رأسي ونظرتُ إليه حين سحب أصابعه من شعري، قال: «لِمَ أشعر أحيانًا أنكِ مجنونة بي؟».

- هذا يعتمد على مفهومك للجنون.

قال بنفاد صبر: «أمل، أريد جوابًا واضحًا، هل تحبينني أم لا».

قلت دون تردد: «أحبك طبعًا».

- وترفضين الزواج مني !

- من قال لك إن الحب كافٍ؟

- إذا لم يتزوج الناس من أجل الحب، لِمَ يتزوجون إذن؟

- لأنهم سامحوا يا صادق، وأنا لا أستطيع أن أغفر لأي أحد أو لأي شيء بما فيهم الحياة نفسها، الحب يجعلنا نغلق الصفحة لنفتح صفحة جديدة، نعفو عما مضى ونفتح قلوبنا للآتي، ربما حبك ليس كافيا ليجعلني أسامح.

نظرتُ أمامي أراقب الأمواج وقلت: «الحقيقة أنا لا يُعجبني مبدأ القوي يأكل الضعيف، والكبير يسحب الصغير، أنا غاضبة من الكذب وممن يكذب، من السرقة وممن يسرق، من كل رجل استغل ضعف امرأة، ومن كل امرأة ساهمت في ذلك بجهلها، غاضبة أيضًا من الجهل».

- مشكلتك أنكِ تريدين تغيير الحياة.

- مشكلتي أنني لا أستطيع.

نظر حوله قبل أن يضع وجهي بين يديه: «أمل يا حبيبتي، ليس علينا أن ننغمس في مشكلات لا تخصنا».

- لكنني أتحدث عن مشكلتي، أنا مشكلة كبيرة في قلبي، معارك وخسارات، وأريده أن يعفو ولا أستطيع.

ترك وجهي وهو يتنهد: «علقتُ بامرأة عقاب».

من يومها وهو يناديني بالمرأة العقاب، سألته مرة: «هل أعجبك الاسم؟».

- أنا أصفك يا حبيبتي.

- و يا ترى عقاب على أي شيء؟ ما الذنب الذي اقترفته ليعاقبك الله بي؟

- لم أرتكب ذنوبًا كبيرة وحياتك.

- ربما تراها أنت صغيرة، لا تحكم على الأمور من جهتك فقط.

سأقول لكِ بكل صراحة هذه مشكلة أيضًا مع صادق، كأنني كنت أنتظر منه اعتذارًا لما رأيته بسببه، ويبدو أنني سأموت قبل أن يعتذر، لكنني لم أعد أرغب في ذلك، اكتشفتُ يا خالة أن الاعتذار لا يحل الأمور كما نظن، مَن يؤذي يرحل فور انتهاء مهمته، والتعافي دورك أنتِ وليس دوره.

نحن نترك أنفسنا في أوهام أن الاعتذار قد يُطفئ لهيب الألم، لكنه لا يفعل، وأنا كنت أتمنى أن يعتذر لي ولأنه لم يفعل فلم أغفر.

***

من أحاديث الشيخ درويش:

« يا رب علّمني كيف أكون عبدًا شكورًا لا يدخل اليأس قلبه أبدًا، يظن فيك ظنًّا جميلاً تكرمه من أجله.

علّمني كيف أحبك كأنني لا أعرف سواك، وأدعوك كان كل الأبواب مغلقة ولم يبقَ سوى بابك، وألتمس الطريق الذي يرضيك حبًّا في رضاك ورغبةً في رحمتك.

يا رب يسِّر الطريق الذي يوصلني إليك، فقد علمتُ أن لا نجاة سوى في طريقك.

ارزقني دعوةً مُجابة وجبرًا لقلبي المكسور وكلمة منك أن قد عتقت عبدي من النار وكتبت له الجنة».

ونجلاء تخرج من شقتها مرتدية فستان الزفاف، يدها في ذراع زوجها، ابتسمت لي وهي تمر أمامي، ولم أستطع أن أبادلها الابتسام، ألسنة تطلق الزغاريد وصوت المعازف يستقبلها في الأسفل، البيت الذي استقبل جنازة يُخرج الآن عروسًا.

لا تقولي عني إنني امرأة حقود، لأنني أتمنى الخير للجميع ويشهد الله على ذلك، ولا يتوقف لساني عن الدعاء لمن أقابلهم في الطرقات، يا رب عبدٌ

لك يبدو مهمومًا أذهب همه وحَزنه، يا رب أَمَة لك تسير وهي تبكي انظر إلى حاجتها وارزقها، أقول ذلك لتعرفي أن قلبي لا يعرف الحقد، لكنني لا أستطيع تفسير سبب ألمي حين رأيتُ نجلاء عروسًا، وتوقفت من يومها عن صنع فساتين الزفاف، شيءٌ ما داخلي بكى على حالي، وتمنى أن يسعد كما يسعد الجميع، ولو كنت قلت هذا الشيء لفوزية حين لاحظت حزني، لم تكن لتفهم، وربما فسرت الأمر بأنني أحقد على نجلاء.

لكن ماذا نفعل في الأمنيات المجهضة وما تتركه وراءها من أثر؟

كنت أجلس على المقعد في بيت صادق وهو يجلس على الأرض ويضع رأسه على قدمي، منهكًا كان، قال إن ذلك بسبب قضية خسرها، كنت أعرف أنه يكذب لكنني لم أجادله، أمسك يدي ووضعها في شعره.

صمتٌ طويل غرقنا فيه، رجلاي بدأتا تؤلمانني ومع ذلك لم أتحرك، كنت أمسح على رأسه وظهره بحنان، ابني الكبير العاصي، قال دون أن يرفع رأسه: «أبي لم يحبني يومًا، لم يحبني أحدٌ في العالم مثل أمي، وبعدها حكمت أكملت دورها، لكنني لم أشعر بحنانه، الرجال في بلادنا يُعاملون معاملة خاصة، شدة في المعاملة، تحريم للبكاء، وأخطاؤنا لا تمر مرور الكرام.

منذُ كنتُ طفلاً وهو يعنفني كأنه يريد الوصول بي إلى شخصٍ معين، وكنت أخذله قصدًا، لأن نظرة الخذلان التي كنت أراها بعينيه لم يكن لها مبرر فوضعت لها مبررًا، كيلا أكرهه أكثر وكي أقول هو محق، والنتيجة؟ خذلني هو في النهاية وأوصاهم ألا أحضر جنازته، تقول حكمت إنه كتب الأراضي التي يمتلكها باسمي، لكنني لن أصرف منها صاغًا واحدًا، إيجار الأرض أوزعه على الجمعيات».

رفع رأسه ونظر إليّ وأكمل: «لم أكن طفلاً سيئًا، لكنه كان يعاقبني بأخذي إلى الريف، ويجبرني أن أعمل مع الجنايني، ظنَّ أنه سيصنع مني رجلاً بأفعاله، وكرهت الريف وكرهتُ الجنايني وأكره الأشجار كلها».

سألته وأنا أمسح عن وجهه العرق: «قلت لي مرة إنه رجلٌ محبوب، لماذا كان يعاملك هكذا؟».

- كان يعطف على الجميع، وما في يده ليس ملكه، يفرقه على الناس، ومشكلاتي معه لن تجعلني أنكر أنه إنسانٌ بما تعنيه الكلمة، لكنني لا أشبهه وهذه هي المشكلة.

أنا وأمي كنا الشخصية نفسها، وحكمت تشبهه، لذا كانا متفاهمين.

نطق الحروف ببطءٍ كأنه تردد أن ينطقها: «كسرني يا أمل حين عرفتُ بوصيته».

- ألا تريد الذهاب إلى قبره؟

- دُفن هناك، وأنا لن أذهب إلى تلك القرية أبدًا.

وضع رأسه على رجلي مرة أخرى، وهذه المرة حرَّكت أصابعي في شعره دون أن يطلب، قال: «كنتُ في السادسة حين بُني بيننا سورٌ أول مرة، تشاجرتُ مع حكمت وضربتها، وحين وصل إليه الخبر أوقفني أمامها وجعلها تضربني مثلما فعلت، ظنًّا منه أنه بهذه الطريقة سيجعلني أفهم أن أختي مسؤوليتي أحميها، لا أرفع يدي عليها، لكنه أوصل إليَّ الفكرة بطريقة خاطئة، وبخني وهي واقفة وتوعدني إذا كررت فعلتي مرة أخرى، وحين اعترضت ضربني على وجهي. نجح في الأمر، خلق لحكمت شخصية وجعلني بشخصية مهزوزة، أخطأتُ لأنني ضربتُ أختي، لكن ما فعله كان خطأً أكبر، أريد أن أسامحه ولا أستطيع.

ارتفع صوتك في ذهول: «الباشا كان رجلاً ولا كل الرجال، خيره أغرقنا، حقًّا يا أولاد، كل يوم سنرى العجب».

اعتدلتُ وقد آلمني قلبي شوقًا إلى صادق، قلت لكِ: «أريد أن أنام، ما صدقت حسن نام، سأنام جواره ساعتين».

نمتُ وأنا أفكر في بكاء صادق تلك الليلة، بكى على رجلي، وخُلع قلبي مع بكائه، لم أسمح لدمعة واحدة أن تسقط، كنت أمسحها فور أن أراها.

قال بتعب: «اتركيني أبكي يا أمل، لا تعرفين كم مرة حُرمت من ذلك، رغم هربي الدائم من كل شيء، لم أواجه ولا مرة، كلما ضاقت حملت حقائب محملة

بالخوف وهربت، لم أتعلم كيف أقف أمام المواقف، لا تعرفين اللذة التي أشعر بها وأنا أقف في المحكمة أمام القاضي، أرى كل القضايا قضيتي، وأدافع عني لا عن المتهم، ربما لهذا السبب لم أخسر إلا قضية واحدة، وأظنني خسرتها لأنني لم أعد أريد أن ألعب هذا الدور، أنا وجدتك ولم أعد أتمنى أن أثبت للعالم شيئًا، لا أريد حربًا، أريد حياة هادئة، أحصل فيها على ذاتي وعليكِ.

في الليلة نفسها أقنعته بعدما أخرج كل ما بداخله، أن نذهب إلى السينما ويشم هواءً نظيفًا، ذهب ليستحم وطلب مني أن أختار الثياب التي سيرتديها، ولا أعرف لِمَ تذكرت الفستان الذي تركته في بيته القديم الذي كان يؤجره، ربما استخدمته الساكنة الجديدة كقطعة لتنظيف مطبخها.

حاولت تجاهل فراشه، كيلا أتذكر فراش البيت القديم وأتذكر تلك الليلة وأكرهه، أخرجتُ له بدلة واخترت ربطة عنق تليق بها، لكن القدر أوقع رسالة قديمة في يدي، ورقة سقطت، لأن الله أراد لي رؤيتها، وكان من المفترض أن أستريح قليلاً بعدها لكن الحريق اشتعل بقلبي أكثر.

وجدت ورقة أسفل ثيابه، بخط يده، وكان يريد إرسالها إلى آمال.

«الآنسة المصونة.. قالوا لي اسمك لكنني نسيته.

أنا خَجِلٌ وأنا أقول الآنسة إلى الفتاة زوجتي، كيف ومتى؟ لا أعرف، هذا الواقع ولو أنكرته لن أغيِّره.

أكتبُ هذا وأنا في السيارة ذاهبًا إلى القاهرة، وبعدها سأسافر إلى لندن، هذه الحياة لا تناسبني، أخبروني أنَّكِ تقرئين وتكتبين، لذا لن تجدي صعوبة في قراءة هذا الجواب، وكان من الممكن أن أرحل هكذا دون تفسير، لكن قلبي لا يطاوعني، ليس لكِ ذنب في أي شيء ووجب عليَّ الاعتذار

قبل هذه الرسالة مزّقتُ اثنتين ولو وجدتِ هذه الورقة مثنية واعرفي أنها كانت في طريقها إلى التّمزق ونجحت في الإفلات، أبدو جبانًا أمام نفسي وغير مسؤول بالمرة ولا يطلق على تصرفي تصرف رجل، هذا الذي جعلني أمزق الرسالتين الأخريين، أنني وصلتُ إلى هذه النقطة ورأيتني جبانًا ولم أحتمل رؤية نفسي بلا شيءٍ يسترني.

نحن لا نشعر بجرح السكين إلا بعدما ينتهي دور السكين، كان زواجي بكِ الشيء نفسه، لم أفق إلا بعدما أصبحتِ زوجتي، وهروبي الآن محاولة لحل الأمر قبل أن تجرحني سكينٌ أخرى.

سامحيني أنا لا أتخيل حياتي مع امرأة لا أعرفها ولا تعرفني، ولو عرفتها وعرفتني سأظل أجهلها وتجهلني.

لا أعرف لماذا طالت هذه الرسالة، أردتُ أن أعتذر وأن أقول لكِ مع أول فرصة سأرسل إليكِ ورقة طلاق، إذا تسهلت أمور سفري إلى لندن، لكن الآن لا أستطيع لأسبابٍ يطول شرحها في ورقة.

قلوب أهل القرية طيبة، وأعرف أنك ستغفرين».

لكنني لم أغفر، ولم أشعر بندمه يومًا لأغفر، لم يعترف لي مثلاً ولم يذهب إلى القرية بحثًا عن الفتاة التي يعتذر لها، إنه نسيها تمامًا لدرجة أنه نسي أن يرسل لها الجواب أو يرسل ورقة طلاقها، لهذا لم يخبرني عن الأمر لأنه نسيه.

طبقتُ الورقة في يدي ووضعتها في حقيبة اليد الصغيرة حين سمعت صوته مقتربًا.

لكنني الآن وبعد التفكير في الأمر بلا ضغطٍ، أقول لكِ إن الإنسان عبارة عن التجارب التي يعيشها ولا ينبغي أن نطلق الحكم عليه من خلال تجاربنا المختلفة عنه.

وصادق أجبرته الظروف أن يهرب، اعتاد الهرب ويراه الحل الأمثل لكل ضائقة، فكيف ألومه على النسيان؟

وقف أمامي يجفف شعره بالمنشفة، نظر إلى البدلة وابتسم: «كنت سأختارها أنا أيضًا».

لم أجب، وضع المنشفة على الفراش واقترب مني متسائلًا: «لماذا يبدو وجهك شاحباً؟ هل أحزنتك بحديثي الليلة؟ سأعوِّضك».

جاء صوتي من القرية إلى مكاني أمامه: «على أي شيءٍ ستعوضني؟».

- على أنني قلبتُ مزاجك الليلة.
- فقط!
- وهل فعلتُ شيئًا آخر؟
- لماذا لا أستطيع أن أنسى مثلك؟
- عدتِ لهذا الحديث مرة أخرى يا أمل؟

حركتُ أصابعي على جبيني في حركة دائرية لأفيق قليلاً وقلت: «لا تؤاخذني أنا فقط متعبة، سنؤجل السينما الليلة».

- لن نؤجلها ولن أتركك تذهبين وأنتِ في هذه الحالة.

أمسك يدي وأجلسني على الفراش وجلس أمامي فانتفضتُ واقفة، عادت إليَّ الذكرى وكرهته لأنني أتذكر وحدي وكأنه كُتب عليَّ أن أموت مسمومة بأفكاري.

وقف وعلامات الدهشة على وجهه، قلتُ: «اتركني أذهب».

- أنتِ بحاجة إليَّ كما أنني متأكد أنني بحاجة إليكِ، أنا أعترف فلم تنكرين؟!

- لستُ بحاجة إلى أحد.

رقَّ صوته: «قولي لي يا حبيبتي ماذا يُغضبك؟».

وأنا لم أكن أعرف ما يُغضبني، كل ما كنتُ أعرفه أنني بالفعل لستُ بحاجة مُلحَّة إليه، لأنني عشتُ من دونه أكثر من عام ولم أمت، ولأنني رأيتُ الكون واسعًا ولن أختنق إذا غاب، هو عوَّدني غيابه، وليس له الحق أن يلومني لأنني اعتدت.

سأل مرة أخرى بترقب: «لا تحتاجين إلى وجودي فعلاً؟».

قُلتُ وأنا أمسك دموعي كيلا تسقط : «افهمني يا صادق، أنا حين جئتُ إلى هنا، جئتُ بفكرة واحدة، وبقلبٍ واحد، وأمنية واحدة وهي أنت، جئتُ وأنا أظن أن الحياة هي صادق، وأن الأحلام عبارة عن حلمٍ واحد وهو صادق، وأنني آمالٌ كثيرة، لكن الرغبة واحدة وهي صادق.

بعدها صدمتني حقيقة أن العالم واسع وكبير، وأن هناك آلاف الطُّرق غيرك، أتعرف؟ بالأمس حين خرجتُ إلى الشارع ركض الخوف تجاهي والتهمني، إذ بدوت صغيرة جدًّا جوار السيارات والناس والشوارع الواسعة، وحكايا صديقاتي، وقلوبهن وأوجاعهن وضحكاتهن، الحياة واسعة يا صادق، وليست كلها عبارة عنك، صدقني أنا لا أقصد أن أقول إنك صغيرٌ وإنني كنتُ حمقاء لأن لوحة الحياة كتبت عليها اسمك فقط، لكنني أقتلك

إذا أكملتُ فيما جئتُ إليه، لا أنت ستتقبلني وأنا أُدير حياتي حولك فقط، ولا أنا عُدت أستاذ الوضع.

حاول أن تفهمني يا حبيبي، كلما حاولتُ التفكير بك، تذكر عقلي حكاية إحداهن، وأفكر في حلولٍ لها، كلما اضطجعتُ على الفراش لأحلم بك، فكرتُ في غدٍ وماذا يُخبئ لي، من غضبي منك في زمنٍ لم يعد له وجود.

افهمني، أنا صغيرة ولا أستطيع احتمال هذا الكم من الحوادث والمواقف، ودون قصدٍ مني أفكر في كل شيء، وأنت شيءٌ أفكر فيه.

لا تغضب، أردتُ أن أوضح لك الحرب التي تشتعل داخلي، لا أن أسفَّه من قصتنا».

حرَّك شفتيه جهة واحدة كأنه لا يتقبل حديثي: «اسمعيني أنتِ، أنا لن أحتمل هذا الوضع، ولا حاجة لكِ بالدوران حول الموضوع، فهمتك، وسأريحك من ضغطٍ إضافي قد يسببه وجودي».

قالها وخرج من الغرفة كأنه يقول إن وجودي لم يعد مقبولًا، أخذت الورقة معي ورحلت.

تتردد كلمة «وكان من الممكن أن أرحل هكذا دون تفسير» التي قرأتها في الورقة في عقلي، صداها عالٍ يُصيب بالصمم، وتمنعني من أن أجتاز ما حدث.

يرحل هكذا دون تفسير، وليس مهمًّا قلبي أبدًا، يُكسر، يُهشم، يموت، ليس مهمًّا.

لا أعرف لماذا يتعامل البشر مع القلوب على أنها من فولاذ!

هل ألوم صادق؟ ربما لو وضعتني الظروف مكانه لكنتُ تصرفت مثله، حتى أجسادنا تتصرف على هذا الأساس.

الجسد أناني.

ولا تسألي عن ذنب العضو المعطوب أن يُبتر لينجو الجسد، هي غريزة البقاء، لكن مَن يُقنع العضو أن الجسد الذي ظنَّه رفيقًا لا يخون، حين خيَّرته الحياة اختار أن يبتره ليعيش!

***

من أحاديث الشيخ درويش:

«غدًا نتذكر هذه الأيام وننسى كيف كان طعم البكاء، ننساها وكأنها سقطت من جيوب العمر، نتذكر يأسنا منها ونضحك.

كما كل فاجعة، كنا نظن أنها لن تمر، ومرَّت».

حممت حسن وغيَّرت له ثيابه التي أتيتِ بها من القرية المجاورة كيلا يشك أحدٌ في أمرنا، كأن حسن سرٌّ كبير، كنتُ خائفة في اللحظة التي علمتُ فيها بحملي، الآن لا أعرف كيف كنتُ سأواجه دونه.

أحاول أن أنشغل معه، لكن صادق يسرق عقلي، تظهر أنفاسه وتربكني، وأجاهد كيلا أغمض عيني وأغرق معه في خيالاتٍ تنغص عليَّ حياتي أكثر.

يأتيني صوته من بعيد في ليلة كنا بها تائهين مع الأمواج حين سألته: «ما الشيء الذي حين تفكر فيه تبتسم؟».

- أنتِ.

- لا أقصد أشخاصًا، بل أشياء أو مواقف.

- فهمت، الياسمين الذي كانت تزرعه أمي، كلما فكرت فيه جاءت رائحة الطفولة تركض، هناك أيضًا بيوت طينية لها رائحة محببة إليَّ وخصوصًا في أوقات سقوط المطر، إذا تذكرتها شممت الرائحة، وأنتِ؟

ابتسمت على ذكر كلمة البيوت وقلت: «تُغريني البيوت، وأتخيلها سَكِينة ولطفًا، تُرحب بساكنيها، تقول: «أهلاً بمن دوخته الدنيا، تعالَ داخلي لتأمن وتطمئن»، وتظهر صورة بيتٍ جميل في خاطري، أقف فيه وأصنع شايًا ساخنًا، بنفسٍ راضية وقلبٍ ساكن».

- ماذا في قلبك يا أمل ليحمل كل هذا الدفء؟

- داخله برد والله صدقني.

- عرفتُ بماذا سأتذكرك دائمًا، برائحة الطين.

أفقتُ من شرودي على بكاء حسن، ضممته بسرعة كيلا يعلو صوته، الطفل الجريمة الذي يجب أن يبقى في الخفاء.

وضعتِ الغداء، فطير مشلتت وجبن قَريش، قلتِ وأنتِ تمدين يدك بخيارة صغيرة: «امسحيها في ملابسك وكُلي، طعمها عسل».

سألتك: «من أين أتيتِ بالفطير المشلتت؟»

- مِن خالتك فهيمة الله يمسيها بالخير، سألتني عنكِ، تقول إنكِ لا تظهرين في الشارع، حقًّا يا آمال، حلمتُ بالأمس أن ثعبانًا لونه أسود وأطول من العمود الخشبي في وسط الدار، يدخل إلى البيت وظلَّ ينظر إلينا.

- هل عضَّ أحدًا فينا؟

- لا أذكر، فجأة رأيتني أمام الترعة وأقشر برتقالة بيدي وأرمي القشر في الماء، ثم أفصصها وأعصر منها في فم حسن.

- الله يجعله خيرًا.

وضعتِ اللقمة في فمك وسألتِ: «ألا تفكرين في الذهاب إلى القاهرة، وتأخذينني معكِ، لا حياة لنا هنا».

- كنت سأذهب قبل فجر الجمعة بساعتين، فكرت كثيرًا ووجدتُ أن رحيلنا أنسب حل، الظهر سيؤذن ونجهز أنفسنا، أنا أتفاءل بليلة الجمعة، لكن قلبي يقول لي بأن أبقى وبأن لي شيئًا هنا لا أعرفه.

- لو رحلنا، أين سنعيش هناك؟ في بيت فوزية؟

- ضحكتُ من سؤالك وقُلت: «فوزية تزوجت منذ أكثر من عام، ربما معها طفل الآن، من يدري!».

بعد أسبوعين من مغادرتي شقة صادق، طلب فؤاد الزواج من فوزية، وفؤاد لم يكن بحاجة إلى الانتظار، حالته المادية ساعدته، ورأيتُ أمها لأول مرة في حياتي، امرأة سمينة وقصيرة وطيبة القلب، ترتدي غوايش فضة تظهر سمار يديها، وقابلتُ صادق أيضًا، كنا ننظر إلى بعضنا لكن لم يقطع أحدٌ منّا المسافات، نظرتُ إليه طويلاً حين سمعتُ قول المأذون: «على كتاب الله وسنة رسوله».

كرهه وحبه يقتلانني، أتمناه وأرفضه، أغفر له ولا أستطيع أن أغفر له.

نظرت إليَّ فوزية وهي تبتسم، كانت وردة جميلة بفستانها الأبيض.

«على كتاب الله وسنة رسوله».

وعدٌ كبير والشاهد الخالق العظيم، نُسبت صديقتي -التي عهدتها صغيرة دائمًا- إلى رجل آخر غير أبيها، رجلٌ وُلد في مكانٍ آخر، نشأ في بيئة مختلفة، له طفولة مختلفة، وجمعهما القدر.

كنتُ أنظر إلى العروس الجميلة وأتذكر براءتها، وفكرت ما الجيد الذي فعله هؤلاء الرجال ليُنتسب إليهم صديقاتي، ماذا فعلوا ليقطفوا من الزهور أجملها! وعن حال البيوت حين يُوضعن بها.

هناك بيوتٌ ستُنار، ورجالٌ نالوا من الأقدار أرقها، وأطفالٌ فيما بعد سيحصلون على أمهاتٍ قلوبهن ألطف من أجنحة الفراشات.

لم تأتِ زينب بسبب تعبها في الحمل، وعصمت نسيتنا تمامًا، شُغلت في طريقها.

حين حانت لحظة رحيلنا اقترب صادق مني، وقف جواري وسألني دون أن ينظر إليَّ: «كيف ستنامين الليلة بمفردك؟».

قتلتني الرغبة في ضمه، كنت قد اشتقتُ إليه لكنني لم أفصح، قُلت: «وهل هناك خيار آخر؟».

- تنامين عند أختي حكمت، لو وافقتِ سأخبرها وهي سترحب بكِ.

انفعلتُ حين ذُكر اسمها وارتفع صوتي دون قصد: «لا طبعًا».

حين انتبهتُ هدأتُ وأصلحتُ موقفي: «أقصد بأي صفة؟ وفي النهاية سأعود إلى بيتي».

رأيتُ محمد يشير إلى ورقة أرسلها مع السفرجي وهو يوزع المشروبات، أخذت الورقة وقرأتها تحت أنظار صادق، كتب فيها أنه يريد رؤيتي غدًا في المكان نفسه في حديقة الأسماك السادسة مساءً.

همس صادق ضاغطًا الحروف: «لا تشعلي فتيل غيرتي، كيلا تُحرقي به».

نظرتُ حولي بارتباك وأنا أقول: «لا تقترب مني بهذا الشكل يا صادق، الناس حولنا».

- مالي والناس!

- أنا ذاهبة.

رفضت عرضه في أن يوصلني، تمنيتُ أن أسير في شوارع القاهرة، لكن الوقت تأخر ولم يكن الأمر متاحًا لي.

لكن حين اقتربتُ من البيت والتفتُ وجدتُ صادق يقف من بعيد يراني. لا أصف لكِ اللحظة التي أغلقتُ فيها باب الشقة عليَّ وأنا أدرك أنني سأنام

بمفردي، تخيلتُ أنني سأفكر بكل شيء إلا إبراهيم، أقسم بالله الذي رفع السماوات بغير عمد إنني شممتُ رائحته، ركضتُ إلى الغرفة التي كنا ننام فيها أنا وفوزية وأغلقتُ الباب بسرعة.

غيرت ثيابي وأنا أحاول تشتيت انتباهي في أي شيء، ثم طرق قلبي حزنٌ خفيف، حاولت الانشغال بأي شيء يشتت إحساسي، فأصبح وقع الطرق أقوى، وقفت أمام الفساتين وبدأت بتغيير أماكنها، لكن شعوري أن شيئًا ما

يمضغ قلبي ازداد مع طول تجاهلي، قُلتُ لن أجيبه، لن أهتم بغرز أسنان الحزن في قلبي، أعلم أنه يحاول جذب انتباهي ليس إلا.

جلست على كرسي أمام المرآة أمشط شعري، وحين بلغ الوجع بي مداه ألقيتُ المشط من يدي وصرخت.

راودني الوجع عن نفسي، فخلعت ثياب العفة بلا مقاومة.

لا أحد هنا يبعد يديه عني، حين تكونين وحيدة ستستسلمين لما كنتِ تخافين منه، لأنك ستدركين أن لا مفر، لا مهرب، ولا مُنقذ.

بسط إليَّ يده لينتهكني، وبسطت إليه يدي ليقترب.

إن كان لا بد من حدوث البكاء، فلِمَ تأجيله؟!

فتحتُ النافذة قبل أن أختنق، تنفستُ الهواء كله وأخرجته كله، خِفت أن يتنفسه أحدٌ بعدي فيموت مسمومًا.

كان صادق ما زال واقفًا وكأنه شعر أنني سأفتحها، كدتُ أناديه بصوتٍ مرتفع، رفعت يدي له مُتعبة، لم يتحرك، ألقى السيجارة التي كان يشربها على الأرض ثم دهسها بقدمه.

كيف عرفتُ أنه بالأسفل؟ لا أعرف، لكنني شعرت باهتزاز قلبي بين جنبيَّ، هدأت الريح حتى غدت نسمات، أغلق العالم فمه واستيقظت العصافير من مضاجعها، فعرفت أنه هنا.

كان يقف في نهاية طريق لن أخطوه وكنت أقف على حافة الشوق وأنا أدرك أنه يخشى المرتفعات، تفصل بيننا، مبادئه وأفكاري، كبرياؤه وعنادي، تعبي منه وتعبه مني.

تقف المسافة بيننا وتضحك، ترقص أمام الفراق بإغراء لتجذبه ويدنو منها، ثم خلعتْ ثياب القرب وألقتها على مرأى منا ولم نتحرك، وكأن الأمر لا يعنينا، اتسعت عين الفراق بشهوة واقترب منها.

في قبلة الالتقاء، وقبل أن يدنو بشفتيه منها، نظر الفراق إليَّ باستعطاف، وبقيت ساكنة كما الأرض التي أقف عليها، ثم نظر إليه بذلٍ، لكن صادق لم يتحرك، غلبه عجزه.

فالتقت شفاههما، وحالت الحياة بيني وبينه.

غدا لي قصة، وغدوت له تجربة، وكلانا يعرف أن هناك جُرحًا لن يندمل. رأيته يرحل ولم أناديه، كان حزنًا خامًا، بكاءً مركزًا، ألمًا محشوًّا بالصراخ. همستُ له قبل أن يختفي: «ستلتقي النساء جميعهن، ولن تستطيع إحداهن منحك النسيان، سأظل شوكة ناعمة بمنتصف قلبك، مرر عليَّ ما شئت من أصابع، الشوك الناعم لا يُرى».

***

قابلتُ محمد في السادسة مساءً، تمشينا كثيرًا دون حرفٍ واحد، دَخن بشراهة ولم أعلّق.

قطع الصمت وقال: «سأسافر».

جلستُ ليجلس هو الآخر وسألته: «أين ستسافر؟».

- أرض الله واسعة، لم أقرر المكان بعد.

- ولكن لِمَ؟

- ماذا سأفعل هنا؟

- أنت تقول ذلك يا مُحمد؟

- وأقول أكثر من ذلك، ولن تُحسب أنانية مني.

نظرتُ أمامي وأنا أتعجب: «ولا أعرف من أين جاء مرض الهجرة الذي أصاب الجميع!».

عقَّب على كلامي كأنه يُريد تغيير الموضوع: «الله يهدي الحال».

أمَّنتُ على دعائه، قال بعد تردد واضح:« تحبينه؟».

نظر أمامه وأجاب نفسه: « ولِمَ أسأل؟ الحب كان يلمع في أعينكما بالأمس، على العموم مُبارك عليه قلبك».

كدتُ أمسح على ظهره برفق، لكنني لم أفعل، قُلت: «أنت شاب جميل يا محمد وتستحق كل خير، وأنا متأكدة أن الله سيرزقك بامرأة تُسعدك».

- لم يعد ذلك مهمًّا.

- لا أحب أن أراك بائسًا.

- أنا واقعيٌّ، أنتِ من تفسرين الواقع بأسًا.

- أي واقع أفسره؟ ما الذي حدث لك يا محمد، كنت أستمد منك قوتي.

- مركب مصر في طريقه إلى الغرق، وهذه الأيام لن تُعاد مرة أخرى، حتى لو أخذنا حريتنا.

- ألستَ القائل إنك لا تريد الموت في سفينة غرقت، بل على سطح خشبة حاولت التجديف بها للوصول إلى البر؟

- المصير نفسه!

- لا، ليس المصير نفسه، الذي يموت وهو يحاول أن يحيا لا يموت، لا تنساه الحياة مُطلقًا، ستظل تذكره على مرِّ العصور، ستقول: «كانت هناك روح أحبتني ورفضت اللجوء للحياة الأخرى»، لن تنسى أن أحدهم تمسك بها حتى خارت قواه وضعفت عُقَل أصابعه فتفكك ووقع.

علا صوته قليلاً: «اتركينا من كلام المقالات الذي لا يقدم ولا يؤخر، حتى أنتِ سيأتي عليكِ يومٌ وتفعلين مثلي».

- أنا لن أموت إلا كما أردت أنت يا محمد، أموت حرة تحاول أن تلد الحياة حتى ولو لم يمسسني أمل، لن أموت مثل اليائس على الطريق منتظرة حتفي، سأذهب إلى الموت ملء إرادتي، سأذهب إليه بسلاح حياة إما أن أقتل وإما أن أُقتل.

صفق بيديه في سخرية: «عظيم عظيم».

- هل طلبت رؤيتي لتسخر مني؟

- لا، ليس لدي غيرك لأخبره أنني راحل.

- رغم أنني غير موافقة على قرارك، لكن لا يمكنني منعك.

- قال بلا اهتمام: «نسيتُ أن أقول لكِ، وصلتني أنباء أنهم يستعدون للحرب».

- إذن ستقوم فعلاً!

- ألم أقل لكِ؟

- يا لطيف!

- الاستعدادات على قدمٍ وساق، المدرعات دخلت أمام تمثال إبراهيم باشا في تنظيم عسكري، استعدادات للخنادق في الشوارع، بنوا دشمة أسفل رأس أبي الهول كيلا يسقط إذا ضُرب من الطائرات، ورسموا على أماكن البنزين نوافذ وشُرفات كي تظهر كأنها بيوت ولا تُضرب بالطائرات، وأظن أنهم سيحولون جامعة ڤيكتوريا في الإسكندرية إلى مستشفى عسكري لاستقبال المرضى.

- ستكون أول حرب أحضرها.

- الله يجعلها الأخيرة.

مزحت معه: «تقصد أن أموت؟».

- لا تكوني سخيفة.

- مهما فعلت لن أكون أسخف منك في آخر أيام.

- تحبين السينما؟

قُلت بحماس: «فوق ما تتصور».

- لو شاء الله وعدت إلى مصر وطلبت منك أن نحضر فيلمًا، هل ستوافقين؟

- لا تتحدث هكذا يا محمد أكيد سأوافق.

- حتى ولو تزوجتِ؟

- لم أتحدث، لأنني بالفعل متزوجة.

قال: «الله يكتب لنا لقاءً مرة أخرى».

اعتدتُ الوداع، لدرجة أنه أصبح لا يؤلمني، كم مرة فارقت؟ لم أعد أحسب.

سرتُ الطريق بمفردي، أفكر في كل شيء، قلبي المنتفخ، مصر، ماذا سيحدث غدًا، صادق، والقصة الغريبة التي وُضعت بها.

***

من حقنا بعد كل هذا التعب أن نجد على الأقل وطنًا نستظل بأشجاره وتعرف أين سيقف بقدميه غدًا، من حقنا بعد آلاف الخسارات ألا نخسر اليقين في إنسانيتنا ونقف مذهولين كرجل فقد إحدى قدميه وقبل أن يبتلع الصدمة فاجأه سيف الظروف بقطع الأخرى فسقط.

وقفتُ أمام النيل، ولم أنتبه أن الشمس قد غربت تمامًا، وحين انتبهت لم أشأ أن أعود إلى البيت، سرتُ ليلاً بمفردي، ولا تهتمي بكارثة أن تسير امرأة بمفردها في الليل، سيأكلها الرجال وستكون هي المخطئة، لكن امرأة مثلي عاشت يتيمة ووحيدة، هل أشحذ رجلاً لأعيش يا خالة؟ هل أجلس في منتصف الطريق أمد يدي للمارة وأنوح: «رجل لله يا أهل الكرم، امرأة وحيدة لا ظهر لها، أعطوني ظهرًا كيلا أقع، امرأة يتيمة جارت عليها المواقف أعطوني صوتًا خشنًا يصبح في أذن الزمن فيخيفه ولا يصيبني بأذى».

هل أنكر حاجتي إليه؟ أنا أحتاج إليه أكثر من احتياجي إلى الهواء، وليس لضعفٍ بي رغم أنني لا أنكره، لكن لفطرة خُلقنا عليها.

لمن أعود في البيت؟ وهل أكرر بكاء الليلة الماضية لأنني نمتُ بمفردي؟ أخذتني قدماي إلى صادق.

صادق!

قُلت له مرة وأنا أضع يدي على قلبي لأكتم صوت الوجع: «هل تعرف يا صادق أن الشيء الذي جمعني بك ونوَّر لي الدنيا، سيذهب بي إلى حتفي؟ وأنني ورغم علمي بذلك أسير خلفه وأنا راضية؟ قل لي أين ستجد امرأة رأت فيك موتها ولم تهرب، جاءتك تركض، ليس خوفًا من الموت، بل خوفًا من ألا تكون يوما لها؟».

سخر من كلامي يومها وضحك، ضغط بأصابعه رأسي وقال: «لو تتجاهلين عقلك قليلاً ستسعدين».

لكنني لم أكن أقول كلامًا في الهواء، ركضت إليه كما قُلت، رغم أنني أعرف أنه سبب كل الحرائق، ولا أعرف يا خالة كيف يكون داءً ودواءً معًا.

كانت القاهرة تدير لي ظهرها، لكنني مع ذلك كنت أشعر بها تلتفت، صوت الرجل الذي يبيع العرقسوس، عاشقان يسيران على الرصيف، أضواء من كل جهة لكن يبقى ضوء القمر مميزًا، أصوات السيارات، ومجموعة من الشباب يظهر من وجوههم أنهم خارجون من السينما، وأنا، فقط.

وجدت قدماي تقفان أمام بابه، أطرق بضعف حتى ظننتُ أنه لن يسمعني، فتح الباب وحين وجدني استند بجسدِه إليه، في عينيه عتاب أبى أن يفصح عنه، ربما شعر أن ذلك سيمس رجولته، لكن لم يستطع إخفاء دهشته من وجودي في تلك الساعة، كنتُ أشعر أنني مكسورة نصفين، وأن أحد النصفين سيسقط مني.

قال بسخرية: «كنت ساهرًا من أجل قضية، لم أكن أعرف أن القضية الأصعب ستأتي».

خرج صوتي مكتومًا كمزمار سده الحصى: «أنقذني يا صادق!».

قبل أن ينطق اقتربت منه ووضعت رأسي في منتصف صدره، أسندته إليه كيلا يسقط، رأسي ثقيل وإن لم يستطع حمله وتفريغ ما فيه فما حاجتي به!

دوارٌ في رأسي، لا أعرف كم استغرقتُ لأعود إلى الواقع، لكنني وجدت نفسي بين ذراعيه نجلس أمام المدفأة.

كان يمسح بيده على يدي برفق، قال: «خِفت عليك بالأمس لأنكِ ستنامين بمفردك، أشعر أحيانًا أن رفضك الزواج مني بسبب كرهٍ تضمرينه لي، لكن

لِمَ تفيض عيناكِ بالحب يا أمل؟ أشعر أيضًا أنني أمتلكك وأنكِ لا تستطيعين العيش من دوني، وحين ألمسك تختفين، تضيعين كأنكِ جنيَّة الحكايات».

قُلت وأنا أغمس رأسي بالقرب من رقبته: «الخوف هو الذي ضيَّعني يا حبيبي.

لكن في بعض الأحيان لم يكن ينجدني سوى انتظاري لوجودك، وليس وجودك الحقيقي.

أكثر من مرة شعرت أنها النهاية، كنت أحتضر بصورة حقيقية، ولم أحارب، أرخيت يدي، لكنني بكيت، خِفت أن أموت بمفردي، خِفت ألاَّ تأتي، وخِفت أن تأتي ولكن بشكل مغاير لما أريده.

أنا وحيدة تمامًا، أقسى حقيقة اعترفت بها، شيءٌ بشع أن تقول إنك بمفردك، تخيل أن يخلق الله ملايين البشر ولا تجد بينهم وليفًا واحدًا!

بالأمس كنت أبكي، ولم يعد الأمر حدثًا جديدًا، لكن ابتلاع الوحدة دفعة واحدة يجرح حلقي، يخنقني، وخفت أن أظل هكذا، أن أصف الحب ولا أحياه، وأن أنتظرك ولا تأتي».

- أنا لا أفهمك يا أمل، كيف تنتظرين وجودي وأنا معك، تلمسين جسدي وتتأكدين من أنني أمامك!

- أنت لا تفهم، ولو شرحت سأكرهك، وأنا لا أريد أن أكرهك.

حرَّك ذراعه وحاوطني بها : «لن أضغطكِ بالحديث، المهم أنكِ هنا».

رفعت رأسي ونظرت إليه: «هل تعرف كيف يبدو اليوم من دونك؟ يكون غير صادق، وأنا لا أحب الأشياء الكاذبة».

ابتسم: «واليوم من دونك يكون بلا أمل، وأنا لا أستطيع العيش يائسًا. أحب تعريفك للأشياء، قولي لي كيف ترين الغياب؟».

- الغياب هو العدو الأول للحب، ومصير اللقاء السيئ، والطريقة المؤلمة التي نختارها لنعود إلى أنفسنا. الوحش القاسي الذي أكلني حين اختفيت، وكان رحيمًا بما يكفي ليترك لي قلبًا أنتظرك به.

أدخل أصابعه في شعري برفقٍ: «ماذا تعملين في الحياة؟».

قبل أن أقول شيئًا أكمل: «كم كنتُ غبياً يا أمل، كان يجب أن أفهم وقتها أن سخريتي اللاذعة ستلسعني، هل عرفتِ ماذا تعملين في الحياة؟».

شعرتُ بأنفاسه تحارب بعضها بعضًا، سألته: «هل يؤلمك حبي ؟».

- صدقيني لم أستطع اجتيازه لأنه يؤلمني، أنا صادق معك الآن كما لم أكن من قبل، هذا هو ما يجعلنا عالقين بالآخرين، لأن حبهم مؤلم، حتى وإن لم يقصدوا ذلك، الخوف من فقدانهم مؤلم، أننا لا نضمن امتلاكهم بصورة كلية مؤلم، ولأننا بعد عبور ألف طريق بهم نجدنا في بداية طريق التعرف إليهم، هذا أيضًا مؤلم، أنا لا أفهمكِ يا أمل وهذا يؤلمني رغم أنه يجعلني متمسكًا بكِ أكثر، هل رأيتِ رجلاً يقول الحقيقة مثلي؟

- هذا يعني أنك لو فهمتني ستتركني؟

- من الممكن أن أجنَّ، أن تكون امرأة مثلك مفهومة، ربما يكون هذا فوق استيعاب عقلي.

- ضحكت وأنا أجذبه من خده: «وأنا أخاف على عقلك يا حبيبي».

- تعالي ننسى العالم كله ونفكر في نفسينا فقط، اتركيني أجد حلولاً لكل ما يرهقك.

كنت أعرف أنه يكذب لأضحك على حديثه، فأكملت معه كذبه الجميل: «نبدأ بمشكلة الحروب في العالم كله».

مسح على جبينه كأنه يفكر: «هذه مشكلة كبيرة، لكن نستطيع أن نحارب ذلك بالحب، تُحبين صادق وصادق يحبك، والناس يرون حبنا، فيفعلون مثلنا، فتسقط واو الحرب لأن لا أحد سيحتاج إليها».

- ومشكلة قلب أمل؟

- ألا تعرفين دواء القلوب المجروحة؟ قبلة صغيرة، أمي كانت تقبل الجروح فتُشفى.

- ومشكلة كل النساء؟

- ربما أتدخل فيها كرجل.

وضعتُ أصابعي بأصابعه وأنا أبتسم: «وماذا ستفعل أنت؟».

قبَّل رأسي وقال لأسعد من كذبه الجميل: «سأنشئ جمعية للرجال، يعرفون فيها واجباتهم، وأخبرهم أن يهتم كلٌّ منهم بالمرأة التي معه، يعطيها حقوقها بحبٍّ ويأخذ حقوقه برضًا منها، وأنتِ تقولين للنساء في الجمعية الشيء نفسه».

- وماذا أيضًا؟

- ثم نزوج مَن في جمعية الرجال بمَن في جمعية النساء حين نضمن أنهم قادرون على إدارة بيت وإنشاء أسرة سوية.

- وهل سيقبلون؟

- سأجعلهم يقبلون.

- ونحن ماذا سنفعل وقتها؟

- نتزوج مثلهم.

ضحكت بصوتٍ مرتفع، حتى سألني: «لِمَ تضحكين؟».

- لأنك تتحدث وكأنني سأوافق.

ترك يدي ووضع أصابعه في شعري، يحركها ببطء: «أتخيل الحياة بيننا ستكون جميلة وهادئة».

سألته وقد بدأ عقلي يغيب من حركة يده: «وكيف ستكون؟».

- لم أفكر، لكن أن تكون شيئًا أقتسمه معك، بالتأكيد ستكون جميلة، هل تستيقظين مبكرًا من أجل عملي؟

قُلت وأنا تائهة في عينيه: «أفعل».

- إذن تستيقظين معي، نسرق حديثاً صغيرًا وأنا أرتدي ثيابي، أضع قبلة خفيفة على جبينك وأذهب، هل تصنعين طعامًا من أجلي؟

- أفعل.

- إذن تصنعين لنا الغداء، وحين تنتهين تكملين عمل الفساتين المؤخرة عليكِ، بيت مرتب، رائحة الطعام تفوح منه، تدخل رئتي حين أفتح الباب عائدًا، والقبلة التي وضعتها على جبينك في الصباح، ترديها لي على خدي حين أعود، لأنها أمانة، هل تجيدين صنع الشاي؟

- أجيدة.

- جميل جدًّا، وفي مرة من المرات ساصنعه أنا لكِ، نصلي العصر ونشرب الشاي.

- وفي المساء؟

- نضع رأسينا على وسادة واحدة، ونأكل الليل بقصصنا، خوفنا من المستقبل، تعبك من صنع طعام اليوم وتفكيرك في صنعه غدًا، تصفين لي شكل فستان تريدين صنعه، أتحدث عن قلقي من العمل وعن تعبي فيه من أجلنا، ثم أحرك رأسي وأضعها على صدرك، تضعين فيها أصابعك وتنزعين

منها كل ما يقلقني، هل وصف لكِ أحدهم مرة كيف يبدو الضعف حين يظهره أمام المرأة التي يحبها؟

- كيف يبدو؟

- يبدو كتعريف الكلام للقوة، ووصف الأفعال للقدرة.

قلت وأنا أقترب منه أكثر: «هل يضايقك لو كنتُ آمال كثيرة؟ أنا أحب اسم آمال نادني به».

قال وكأنه يتذوق الاسم، ثم همس في أذني: «لا ترحلي أبدًا يا آمال، لا تجعلي اليأس ينتصر».

وغفرت له في لحظتها، غمستُ وجهي في صدره، بكيت بسعادة بالغة، وضعتُ يدي اليمنى على قلبه، حرَّكتُ أصابعي عليه، كأنني غفوتُ لثلاث دقائق، رأيتُ فيهما طفلة صغيرة، لها ضفيرة تصل إلى منتصف ظهرها، تصنع بالطين أشكالاً مختلفة، تتمنى لو تهبها الحياة، تتأكد من استحالة

الأمر حين تنفخ فيها من روحها ولا يحدث شيء، فتنظر إلى الأرض الخضراء البعيدة، تفتح يديها الملطختين بالطين، وتحقق الأمنية الغريبة التي تمنتها كثيرًا، وهي أن تمسح يديها الملطختين في ثيابها، تشعر بمتعة غريبة حين تفعل، فتركض على الأعشاب الخضراء، يسابقها سرب صغير من الفراشات البُنية.

اعتداتُ، خلعتُ المشابك الصغيرة من شعري، ضفرته وأنا أنظر إلى عيني صادق الذي لا يفهم ماذا أفعل، حين انتهيتُ من تضفيره أعطيته ظهري وقلت له: «فكهه».

بدأ في فكه وهو يقترب برأسه من عنقي، كما فعل المرة الماضية في تلك الليلة، الحكاية وقتها لم تنتهِ وأنا بدأتها من الخطوة نفسها لأنهيها، كان يجب أن تكتمل لأعيش.

فتح الفستان من الأعلى، وهذه المرة كان الضوء مشتعلاً، لا أختبئُ منه في الظلام.

الضوء كان يملأ المكان، نوافذ كثيرة حولي، نافذة يطل منها القمر، ونافذة تطل منها الشمس، ونافذة بها وجه صادق جميلاً ورائعًا كما عهدته.

آخر شيءٍ أتذكره قبل أن أغيب معه، سألني وكان لا يفصل بيننا شيء: «هل غفرتِ؟».

قُلت: «راضية تمامًا عن الحياة، أشعر كأنني لم أحزن قط».

أمسك يدي وحركها على جسده، كُتب لأصابعي أن تقول لمبتغاها: «ها قد أتيت»، حين لمسته.

ثم تحرَّك بيده على جسدي برفق، كتب لجسدي أن يلمس ظلال النور فتحوَّل إلى شيءٍ وهاج.

امرأة عاشت وحيدة كمكتبة في حي لا قارئ به، وحزينة كبقعة حبر أخيرة أُلقيت المحبرة التي تسكنها في القمامة حين يئسوا منها، ومذعورة كمَن أخطأ وتحدث عن الأشياء التي تُخيفه فأظهرها العالم له مجتمعة وبصورة مفاجئة.

وها هي تضع رأسها على صدرٍ يحمل من الطمأنينة قدر الخوف الذي عاشته، وتغمض عينيها للمرة الأولى وهما خاليتان من الدموع.

جمعتُ تأوهاته في صدري، بطريقة ما كنتُ أشعر أنه سيغيب وأنني سأتغذى على صوته لفترة طويلة، أغلقتُ عيني وتنفستُ أنفاسه، ومن تلك اللحظة غبتُ تمامًا.

لمحتُ ضحكتك المكتومة فسألتك: «لماذا تكتمين ضحكتك؟».

قلتِ وقد انفلتت منكِ : « على أيامنا كانت الفتاة تخجل أن تقول قولك».

صمتُّ قليلاً وقلتِ بصوتٍ أقرب إلى الهمس، رغم أن لا أحد معنا: «هو لم يجبرك، صحيح؟».

- أكيد لا، كان بإرادتي، وبرغبتي أيضًا.

ضربتني على قدمي: «لا تقولي برغبتي، عيب».

- وهل أقولها أمام الناس؟ ثم ألستُ إنسانًا يرغب وينفر، يريد ويرفض؟

- لو كانت أمك معنا، كانت ستقطع لسانك.

- بيننا مسافات يا خالة،

- يعني من الآخر، وقعت الفأس في الرأس في تلك الليلة؟

تنفستُ وأخرجت الهواء من فمي بتعب من تفكيرك: «شيءٌ مثل هذا».

- لماذا تنفخين في وجهي وكأن حديثي لا يعجبك!

- يا خالتي الله يهديكِ، أقول لكِ شعرتُ أنني تنفستُ بلا خوف ولا تعب لأول مرة في حياتي حين لمسته بيدي، وتقولين الفأس والرأس وكأنها مصيبة؟

- اتركي حديث عديمي الحياء وقولي لي المهم.

ضربتُ كفًا بكف وقلت: «لا فائدة».

انحنيتُ على قدمَي حسن أقبلهما وأداعبه حين جاء صوتك مجروحًا: «أنا لم أتذوق هذه السعادة أبدًا يا آمال، ولا مرة في حياتي، عرفتُ منهم أن الزواج

سترة، فقط، وسترة للمرأة وليس للرجل، لأن الرجل لا يحتاج إلى أن نستره. السعادة التي تتحدثين عنها كانت كابوسًا لي، وكان أفضل عندي أن يقرصني حنش ولا أن يقترب جمال مني، أنا أول مرة أقول هذا الكلام، لم يكن عندي جرأة أبدًا أن أقوله لأمي خضرا، سألتني في صبح ثاني يوم للزواج إذا كان حدث بيننا شيءٌ وأن ما يُخيفها مرَّ بسلام، ولم يكن مسموحًا لي أي

شيء سوى أن أحرك رأسي لها فقط، لكنني دخلتُ الحمام وبكيت، كان نذلاً الله يذيقه الجحيم، وكان يعاملني كما نعامل البهيمة. أول مرة أحزن على حالي، انظري إلى نفسك، تحكين لي قصة حياتك وأنتِ تبكين وأنا أنظر إليها وأنا أتمنى أن أعيش ربع ما مررت به، لا تقولي الكعكة في يد اليتيم عجبة، قولي إن هناك أيتامًا لا يمتلكون كعكًا حتى».

هذه المرة اقتربتِ ووضعتِ جسدك الكبير بين ذراعَي، ضممتك وأنا أشم فيكِ رائحة قديمة كنت أشمها وأنتِ تقتربين بالماء.

مسحتُ على ذراعك اليسرى وقُلت: «لا تحزني يا خالة».

شعرتُ بدموعك ساخنة تهبط على قدمي، قلتِ: «كنت أقول في عقل بالي إذا كانت فاطمة أختي تشعر بالشيء نفسه، لكن الشيخ جميل كان رجلاً ولا كل الرجال، وهي لم تشتكِ منه قط، كأن عقلي أصبح خفيفًا، كنتُ كلما قابلتُ امرأة متزوجة، أفكر إذا كانت تشعر بما أشعر به، ومن حقدي تمنيتُ أن يكنَّ مثلي، وكان شعوري ساعتها لا يتعدى شعور أنني أريد التخلص من جمال، الآن وأنت تتحدثين عن سعادتك، عرفتُ بماذا كنتُ أشعر تحديدًا، كنتِ اتركيني بجهلي يا آمال، اتركيني بجهلي».

انتفضنا حين سمعنا صوت عائشة ينادي وصوت خطوتها يقترب، هي ليست بحاجة إلى الطرق على الباب، فجأة وجدناها أمامنا ومعها ابنتها وتحمل ابنها على كتفها اليسرى.

قالت وهي ترفع الولد عن كتفها ليقف على الأرض، خرج صوتها ممضوغًا مع العلكة: «لماذا تنظران إليَّ هكذا وكأنكما رأيتما عزرائيل؟».

مرت ثوانٍ وسقطت عيناها على حسن، سألت: «مَن التي تركت ابنها عندكما، يا أختي اسم الله، حلو وأبيض».

لم يجبها أحد فسألت مرة أخرى وهي تحمله: «أكلتما سد الحنك؟».

قُلت وأنا ابتلع ريقي: «ابني».د

ركضت البنت إلى الخارج وهي تصيح فرحة: «خالتي آمال معها ولد، خالتي آمال ولدت».

لطمت خالتي وحاولت أن تركض خلفها فأمسكتها من يدها وقُلت: «هذا قضاء الله، لا مفر».

وكنتُ أنوي أن أسافر إلى القاهرة في الليل دون أن يراني أحد، لكن هذا أمر الله، أراد لي أن يعرفوا وها هم عرفوا ، لم تقف عائشة مدهوشة طويلاً، لأن الغرفة امتلأت نساء يسألن عن حالتي لكنني أعرف أنهن أتين ليعرفن من أين جاء الطفل، أسئلة لا تنتهي: «كنتِ مع زوجك يا حبيبتي؟ هل سيأتي إلى هنا؟ الله يرجعه بالسلامة».

- معقول كنتِ حامل؟ لم نشعر بكِ، يتهنى في عزكم.

- ألاّ البيه الصغير متى سيشرفنا؟ ألا يريد رؤية ابنه؟ ماذا؟ أبلغتِه بالخبر؟ يصل بالسلامة إن شاء الله.

أسئلة صفراء تحمل أسئلة أخرى داخلها.

رحلن بعد مشقة، وانتظرت أن ينتشر الخبر كالنار في الهشيم، لم يكن لديَّ طاقة لأحكي كل شيءٍ لعائشة، فرحلت بعلامات استفهام.

لم تمر سوى ساعة، وخرجنا على صوت طرق الباب، طرق بعصا كبيرة، من الخوف نسيت أن أحمل ابني حسن، تركته وهرعت إلى الخارج.

وجدنا سبعة من رجال القرية يتوسطهم سعيد العمدة، والنسوة يقفن في الطريق ليعرفن ماذا يحدث.

قال العمدة وهو ينظر إليَّ: «اسمعي يا بنت الشيخ جميل، ومن غير دخول لأننا نعرف أنه لا يوجد رجل معكما ونحن نفهم في الأصول جيدًا، عرفنا أنكِ

عدتِ وأنتِ تحملين في أحشائك طفلاً والجميع يعرف أن زوجك تركك يوم الفرح، نريد تفسيرًا.

قلت بثبات: «على أي شيءٍ تريد تفسيرًا؟ امرأة تزوجت أمامكم، سافرت لزوجها وعادت ومعها طفل».

- ومن أين نعرف أنكِ كنتِ عند زوجك؟

- قصِّر لسانك يا سعيد، سألتني سؤالًا وأعطيتك إجابة، لكن أن تتحدث عن شرفي بهذه الطريقة والله لن يكفيني فيك رقبتك.

ضرب بعصاه على الأرض بغضب وهو يتحرك ليبتعد: «صحيح ما يُقال، مات أهلك ولم تجدي أحدًا ليربيكِ، لكن لا تخافي يا بنت الشيخ جميل، سأرسل بنفسي شيخ الخفر إلى القاهرة ليأتي بزوجك ويبرئك أمامنا، وإلا والله سيكون لي تصرف آخر، واشهدوا يا أهل البلد».

- برئ نفسك أنت وأباك أولاً ثم ابحث عن براءتي.

أمسكتِ يدي لأسكت حين قلت الجملة الأخيرة والرجال يرحلون.

وقفنا ننظر إلى النسوة قليلاً ثم دخلنا.

قلتِ: «أحسن أنه سيرسل الصادق، سيوفِّر عليك طريق سفر».

جلستُ بتعب: «يا رب يصلون إليه».

نمت وأنا أضم حسن كأنني أريد أن أخفيه بين ضلوعي، الطفل الجريمة الذي أتى من المرأة العقاب كما كان يسميها أبوه، شممت رائحته وأنا أفكر فيما يخبئه لي الغد.

***

في بيت صادق، مرت ليلة جميلة قد لا أعيش مثلها مرة أخرى، استلقينا فيها على ظهرينا، ننظر إلى بعضنا بخجلٍ بالغ، أشد الغطاء بأطراف أصابعي لأخفي جسدي أسفله، نظر إليَّ يريد أن يقول شيئًا، وقبل أن ينطق اقتربتُ منه واختفيت داخله، كان في صوته انتصار ما، قال وهو يمسح بيده على شعري: «ولا أظنك ستعترضين على زواجنا الآن».

أخرجتُ ذراعي من أسفل الغطاء وضممته: «هناك أشياء كثيرة سأقولها لك غدًا».

- صادق كله لكِ، وكله سيسمع.

ونمنا، نمتُ مبتسمة، وتذوقت التنهيدة التي تأتي بعد راحة، وهذه من الأشياء التي أحمد الله أن أذاقني إياها.

في الحلم الذي حلمته ليلتها كان هناك مطرٌ خفيف، وأنا أسير أسفله ولا أشعر به، كان الناس يركضون احتماءً من الماء، فتحت يدي، سقطت فيها قطرة، ثم اختفت نظرت إلى السماء كأنني أسأل وأحاول أن أفهم، صوتًا جواري يقول: «أصبح قلبك صافيًا كالحليب، اسألي تحصلي على الإجابات».

كان الشيخ درويش وفي يده عصاه، اتسعت عيناي في دهشة، كدت أقول إنني اشتقتُ إليه لكنني خجلت.

قال: «كبرتِ يا آمال».

- مَن يسير درب الحياة ولا يكبر؟ كيف هي أحوالك يا شيخ، هل أنت بخير؟

قال معاتبًا: «لا تسألين عن شيخك سنوات يا آمال؟»

- قُلت لي اتبعي قلبك، اتبعته وأضلني، سرتُ طرقًا كثيرة وعرفتُ أشياء كثيرة وأحببت مرة.

ابتسم: «ما دمتِ وجدتِ الحب، فلا تهتمي بالألم قبله، هو سيداوي».

- ولكن إلى أين أنت ذاهب؟ ألك أقارب هنا؟

- لا قريب في الدنيا، كلنا غرباء، وأنا أكمل طريقي وكُتب عليَّ أن أمرَّ من هنا، لكنني كنت أبحث عنكِ منذ زمن، أرأيت رحمة الله؟ حقق لي الأمنية.

- وهل ستتركني؟

- أنتِ ستأتين.

- أين؟

- حيث يأمرك قدرك.

- قل لي أين أذهب.

- الطريق سيأتي إليكِ، لا يضيِّع المارين فيه.

- لا تتركني قبل أن تدعو الله لي.

وضع يده على رأسي وقال: «اللهم لا كسرًا لقلب آمال ولا وجعًا ولا خيبة، ولا تُرِها طريقًا لا تصلح لها نهايته، ولا تُعلقها بما ليس لها، واجبر قلبها وأدخلها رحمتك فلا تشقى».

ثم وقعت سنتان من فمي وبعدها اختفى الشيخ درويش وتوقف المطر.

هل تعرفين أنه غير مستحب أبدًا أن تحكي حلم سقوط الأسنان، عرفتُ تفسيره، وهو موت الشيخ درويش.

اعتدلتُ بهدوء، كان صادق ما زال نائمًا، طبعت قبلة صغيرة على جبينه، همست في أذنه أنني سأعود ولن أتأخر عليه، ارتديتُ ثيابي وذهبت إلى البيت، تحممت وغيَّرت الثياب، أخذت معي ملابس تكفي يومًا واحدًا وأخذت كل المال الذي معي، وضعتُ حجابًا على رأسي، طرقتُ باب العمة سامية وتركتُ معها المفتاح، قلت لها لو سأل أحدٌ عليَّ تقول إنني سأعود.

سألتِ: «لماذا ارتديتِ الحجاب مرة أخرى؟».

- لأن خلعي له لم يزدني شيئًا، ولم يغيرني كما كنتُ أظن، أنا صانعة ملابس يا خالة، والملابس ليست شيئًا نخفي به أجسادنا فقط، بل نعبر بها أيضًا عن شخصياتنا المختلفة. طريقة تفكيرنا، تدل بطريقة ما على هويتنا، والحجاب يُظهر هويتي كمسلمة، أنا به ومن دونه آمال، لكن الفرق أن هذه

آمال المطيعة لأمر ربها وهذه آمال التي عصت أمرًا واضحًا في كتاب تؤمن به، إذا كنتُ أومن بكتاب، لِمَ لا أتبع أوامره؟

كان الشيخ درويش يناديني، هو أخبرني مرة ألا أتجاهل الإشارات، والحلم كان إشارة لأعود إلى مكان الشيخ درويش.

- دُفن قبل وصولك بساعة واحدة.

- لأن الإشارة كانت لعودتي، وليس لرؤيته، وها أنا قد عدتُ، توقف القطار، ولمست قدمي أرض المحطة، وبدأت قصتي هنا.

- لم أصدق عيني حين رأيتك أمامي كالقضاء المستعجل، لم أعرفك في أول الأمر، وحين عرفتك قُلت هل تذكرت ذاكرة الجميل خالتها الآن.

- هذا كل ما حدث، والباقي حدث أمام عينك ومنذُ أتيتُ إلى هنا ولم أستطع الرحيل مرة أخرى.

- المهم لا تفكري بشيءٍ غير نفسك.

- لا يا خالة، الله أرسلني إلى هنا لسببٍ معين، ولا أريد أن أموت قبل تحقيقه.

ما حدث هو أنني حين عدت عرفتُ أن زوج عائشة يتركها بالعام أو الاثنين ويعود ليقضي معها شهرًا ويترك لها مالاً ثم يرحل إلى القاهرة، وعرفتُ مؤخرًا أنه تزوج عليها هناك فأقامت الدنيا نواحًا والنساء ركضن إليها حين سمعن صوتها.

عندما رأيتها كانت تعفِّر رأسها بالتراب، وتصرخ بأن بيتها قد خُرب، أمسكت يدها بالقوة لتتوقف وحين تعبت من النواح سقطت في حضني، نظرنا إلى صوت الشيخ عبد الباسط شيخ القرية وهو يقول: «أقلقتِ البلد كلها بصريخك، ماذا حدث لكل ذلك؟».

قالت امرأة بكيدٍ: «تزوج زوجها عليها يا سيدنا».

حركها بعصاه: «لا حول ولا قوة إلا بالله! وهل فعل حرامًا؟ التعدد شرع الله».

قُلت وقد شعرت أن كلمته أحرقتني، لأنه تحدث عن حقه ولم يتحدث عن حقها: «وهل التزم بالعدل الذي وضعه الله شرطًا؟ مال إلى واحدة وترك الأخرى كالمُعلقة، هل يأخذ من الشرع ما يسير على رغبته؟».

- اسكتِي أنتِ الله يخزيكِ، لسان شيطان، رجل تزوج ليعف نفسه لأن سفره يطول، هل هذا حرام؟!

- وهذه المسكينة كيف تعف نفسها؟

سمعتُ لطمًا من النساء وشهقًا وكأنني قُلتُ العيب.

سألته: «هو استخدم حقه في الشرع ليعف نفسه، قل لي كيف تعف امرأة نفسها من دون زوجها الذي يغيب عنها سنوات؟ يا مؤمن سيدنا عمر بن الخطاب كان لا يحبس أحدًا من الجيوش أكثر من أربعة أشهر أو ستة إلا بإذن الزوجة، أليست هي الأخرى لها حقوق؟ والله سأرسل له جوابًا إما أن يعدل بينهما كما أمر الله وإما أن يطلق المسكينة لترى حالها.

- تريدين خراب البيوت، سأقدم فيكِ شكوى إلى حضرة العمدة، أمامي يا شيخ الخفر ليجد لهذه المبتدعة حلاً.

وأنا لم أفهم بماذا أخطأت، لم أنكر شرع الله ولم أحرَّم شيئًا أحله الله، لكنه أسقط الشرط وهذا ظلم، والمسكينة عائشة التي تركها بخمسة أطفال لها حقٌّ هي وأطفالها.

لكنها رفضت، قالت الموت أهون من طلاقها، ووقتها شعرتُ بكلمة «لا فائدة» التي قالها زعيمنا سعد زغلول، لا فائدة.

في قضية الحقوق، هناك أربعة أنواع من النساء، امرأة تعرف أنها مُهانة ومُقيدة، لكنها تستلذ ذلك، وإذا حاولتِ أن تكسري قيودها سبَّتك واتهمتك بما ليس فيكِ، كأن دورها كجارية أعجبها. امرأة تعرف أنها مقيدة وتكره

ذلك وتتمنى لو يأتي يوم وتكسر القيود وتُحلّق، لكن الخوف يمسكها من عنقها. امرأة تكسر القيود بالفعل، لا تظلم ولا تُظلم، تقدم واجبها برضًا وتحصل على حقوقها بكرامة، وامرأة لا يكفيها أن تحصل على حقها تظل تنادي بالمزيد

لا لشيءٍ سوى أنها لا تريد الكفَّ عن النباح، تريد المساواة بالرجل حتى لو على حساب أنوثتها، ولو قلتِ لها إن الرجل لديه شارب، سبَّت الهرمونات التي منعتها من امتلاك شارب ولحية.

والحقيقة أن التي تتنازل عن حقوقها تمامًا والتي تطالب بحقوق ليست لها، الاثنتين وجهان لعملة واحدة.

لهذا ناديتُ بإنشاء المدرسة على قطعة الأرض التي كتبها الباشا - رحمه الله- لنا، طرقتُ الأبواب من أجل تبرعات لبناء مدرسة من أجل الفتيات كيلا يضطرون إلى الذهاب إلى القرى المجاورة من أجل التعليم، ورأوا أن الطعام العاجزين عن شرائه أهم من التعليم، حتى من وافقني من النساء تراجعن حين قلل العمدة من مال الأنفار.

نهايته، سأتحدث كما تتحدث عصمت وهي تُصر على نسبة الرأي إليها، أنا أرى أن قضية الظالم والمظلوم، لا تقوم فقط على إطلاق حرية المظلوم، بل على تهذيب الظالم، الذي سنراه من جهة أخرى مظلومًا بدافع الجهل والبيئة.

المفتاح الذي سيفتح باب سجن المرأة يُستخدم لفتح أبواب العلم للرجل، قضية بها سجين وسجان، يُحرر السجين ويُحرر أيضًا السجان من ظلمات وقع فيها.

يد واحدة لا تصفق، وإذا كانوا يطالبون بمجتمع أفضل، فالمجتمع يقوم على الرجال والنساء معًا، ونحن نريد نسخة جيدة من النوعين، إذن المنظمات والمقالات والمناداة بالتحرير يجب أن تكون لكليهما معًا.

لو عرفت المرأة حقوقها وخرجت للعالم وظلَّ الرجل كما هو بتفكيره الحالي، ستشتعل الحرب بينهما، وسيطغى أحدهما على الآخر.

لهذا كنت أطالب ببناء المدرسة، كي يحصل كلاهما على العلم، لكن لا فائدة.

***

كنتُ قد قررتُ حين عُدت من القاهرة أن أرى الشيخ درويش وأعود مرة أخرى، لكنني وجدتُ مشكلات النساء طينًا وانغمست قدماي فيه، وعرفتُ أن هذا هو المكان الذي يستحق جعجعتنا الفارغة هناك، كان الشوق إلى صادق يخنقني أحيانًا، وكنتُ أهمس: «انتظرني يا حبيبي والله سأعود لك، سأُكمل ما جئتُ لأجله وآتيك أقبِّل عينيك»، لكن الأقدار أخذتني إليه غصبًا.

أنا حامل.

ببساطة، هذا شكل الكلمات التي تُنطق بسهولة وتترك بعدها انفجارًا مدويًا.

انشغلتُ فيما يحدث في البلد ولم أنتبه أن العادة الشهرية تأخرت عندي شهرين، في الشهر الثالث بدأت تظهر العلامات، لكن كذَّبتُ نفسي، قُلت إن الله لن يترك هذا يحدث أبدًا، إنني لقيتُ الذل لأنني تزوجت وزوجي هرب قبل الفرح، فماذا سيحدث بي لو أصبحتُ حاملاً بطفل لن يصدق أحد أن زوجي هو أبوه، لكن العلامات كذَّبت تفكيري، بدأ بطني في الظهور، والقيء يغلبني في الصباح، فذهبتُ إلى القاهرة، قُلت تُحرق المشكلات كلها، المهم أن أنجو أنا، ورغم ذلك كان هناك نغز مؤلم لأنني تركتُ عائشة.

وصلتُ إلى بيت صادق وأنا أفكر أنني سأضيع وقتًا طويلاً لأراضيه ويغفر لي ذهابي، وفكرت كيف سأقنعه بأن نعود إلى القرية ونعيش هناك، لكن أتعرفين المرارة التي شعرت بها حين وصلت إلى بيته وأخبرني البواب أنه

سافر إلى لندن ولن يعود، لم يَبق أمامي سوى أخته، ذهبت إلى بيتها ووجدته مغلقًا، وعرفتُ من الدادة فاطمة حين ذهبتُ إليها، أن السيدة حكمت سافرت مع زوجها قبل أخيها بشهرٍ واحد.

غُلّقت الأبواب، فذهبتُ إلى البيت، وعرفتُ أن صاحب البيت قلب الدنيا وأقعدها بسبب الإيجار المتأخر، ولولا أن العمة سامية ترجته ألا يكسر الباب لكان كسره وألقى ملابسي في الشارع.

- أين كنتِ يا أمل يا ابنتي، قلقنا عليكِ، قُلتِ لن أتأخر، جاءت أكثر من امرأة تسأل عن ثيابها وأنا لم أدخل الشقة، قلت أنتظرك أفضل.

أخذت منها المفتاح، أخذت ثيابي وأخرجت الثياب الجاهزة وتركتها عندها إذا عاد أحدٌ وسأل، والمال الذي تأخذه تدفع منه الإيجار المتأخر، والأهم من ذلك أنني أخذت كل الرسائل التي كتبتها لصادق، من أول جواب إلى الجواب الأخير، وذهبت إلى بيته وأدخلتهم من أسفل الباب، حتى يراهم حين يعود

ووقتها سيعرف مكاني وسيعرف كل شيء.

وعدت إلى القرية لأنه لم يبقَ لي مكان آخر، بعد كل هذا التعب عُدت مرة أخرى، وهذا يعني أن الإنسان مهما دار سيعود إلى أصله.

أحيانًا أرفض ذهابي إلى القاهرة، ما الخطأ الذي ارتكبته لأهرب؟ ولو خرجت في الليل كيفما أردت، سأثبت تهمة لم أرتكبها.

انتهى حملي وولدت، وها أنا أحمل حسن أمامك أنتظر قدري، إما أن يعود صادق وإما أن يكتب الله لي شيئًا آخر.

***

خرجتُ بعد العصر وجلستُ أمام الباب معك لأُلهي نفسي.

أخذتِ منِّي حسن وأنتِ تقولين: «تعالي يا آمال، هواء العصر يرد الروح».

كانت تجلس معك امرأة لا أعرفها، قالت وكأنها تكمل حديثًا بدأته قبل مجيئي: «المهم يا خالة هدى، خرجت هذه المرة وأنا أدعو الله ألا يخيب رجائي، حملتُ القفة على رأسي والولد على كتفي وخرجتُ إلى بر القرية منتظرة سيارة تمر لتنقلني إلى إشناص، ولم أقف كثيرًا حتى جاءت سيارة، أشرت إليها وسألته: «ذاهب إلى إشناص يا بني؟».

قال لي: «نعم»، سألته: «توصلني بكم إلى تفتيش الملك؟».

فسألني: «كم معك؟».

قُلت: «وحبيبك النبي ليس معي إلا ثلاثة تعريفة، خذهم».

فقال للرجل الذي يجلس جواره بأن يجلس في الخلف وقال لي: «ادخلي ياست».

فناولته العيل ووضعتُ القفة وهو تحرك بالسيارة.

ونحن في الطريق فهم مني أنني أقصد التفتيش لأترجي ناظر التفتيش ألا يبيع جاموستي المحجوز عليها لأنني تأخرت في دفع إيجار الفدان الذي أُؤجره وأنني سأعطيه جنيهًا على الحساب.

فكتب السائق شيئًا على ورقة بيضاء وقال لي: «أعطيها للناظر وهو لن يأخذ منكِ شيئًا».

ترددت في أخذها لأنني سقتُ كل الوسائط لهذا الناظر وهو لا يقبل رجاء أحد، لكنه أصرَّ وقال لي: «خذي الجنيهات العشرة أيضًا وادفعي الإيجاره».

بهتُّ من المبلغ وسألته: «لا تؤاخذني يا بني، إذا كنتَ غنيًّا لهذا الحد، لِمَ تعمل سائقًا؟».

قال: «القسمة».

وأنزلني قبل التفتيش، أعطيتُ الورقة للناظر وحكيت له القصة، قال لي هذا الملك فاروق، وأيمانات الله كلها لا أكذب عليكِ ولا أقول حرفًا واحدًا لم يحدث».

سرقتني القصة ونسيتُ همومي قليلاً، فكرتُ في الرب العظيم الذي ساق مَلك مصر بنفسه من أجل فلاحة فقيرة، واطمأننتُ لذلك التفكير، وهذا ما تفعله بنا قصص استجابة الدعاء أو القصص التي نرى فيها لُطف الله بمن حولنا، يشعرنا ذلك أن الرب الذي رحم عبدًا ما يستطيع أن يرحمنا أيضًا، هذا ما فعله سيدنا زكريا حين تعجب من امتلاك السيدة مريم رزقًا، قالت له: «هوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ»، فلم يتأخر، ذهب ليدعو الرب الذي رزقها وهو موقن أنه سيرزقه مثلها فرزقه.

حين جاء المغرب دخلنا، أكلنا عيش قمح وباذنجان مقلي، سألتني وأنا أرضع حسن: «ألا تشعرين أنكِ ندمتِ يا آمال؟ أو تتمنين أن يعود الزمن إلى الوراء وتخبري صادق الحقيقة وتقتصري الطُّرق؟».

شعرتُ أنك تريدين أن تسمعي صوتي نادمًا حتى لا تتمنين أن تجربي ما عشته، قلت: «لا أعرف والله يا خالتي، لا أخفي عنكِ شيئًا، لكنني أحيانًا أشعر أن كل ما فعلته كان بدافع أن أظهر للحياة أنني أختار بإرادتي وأنني لستُ سمكة ميتة يحركها الماء كيفما شاء، وأحيانًا أشعر أن سعادتي بركض صادق وراثي كانت أهم عندي من كل شيء، وأحيانًا أرى أنه السبب، لأنه قسمني لامرأتين، امرأة رفضها وامرأة أحبها، فكيف أستقبله بنصفٍ فقط ؟!».

أما لو تسألين عما أتمناه، فأنا لم أندم قط على الطريق الذي اتخذته، حتى أخطائي تعلمتُ منها، ما يضايقني أنني بعد كل هذا الركض فجأة شعرتُ بأنني لم أصل إلى شيءٍ ذي قيمة، وأنني في رحلة بحثي عن الحرية، فقدت حريتي، أصبحت مقيدة من جهة أخرى لم أحسب لها حسابًا.

اكتشفتُ بعد العمر الذي عشته، أنني لم أكن أريد هذه الحياة، لا أريد الركض خلف حقوقٍ من الطبيعي أن أمتلكها دون حربٍ، لأنها حقي ولأن العالم لا يرحم من يُقصِّر في واجبه، لذا واجب عليه أن يعطي الخلق حقوقهم بلا مماطلة.

كنت أريد حياة هادئة وبسيطة، أعود آمال، أكنس وسط الدار وأرشُّه بالماء، وحين تطلع عليه الشمس، ويجف، وتسحب العصرية حقيبتها وتزورنا، أفرش فيه الحصير، وأضع برَّاد الشاي على الكانون، أقول للرجل الذي سيكتبه الله لي وأنا أصب الشاي لي وله، إنني أقف على قدمي طول النهار، يأخذ الشاي من يدي وهو يمسح عليها برفقٍ وكأنه يمسح التعب: «مالناش بركة غيرك يا آمال».

أنام جواره وأغمض عيني وأنا مطمئنة أن هناك جدارًا قويًّا سيكسر رأس الدنيا إذا فكرت أن تمسَّ شعرة من رأسي، وتنتظم أنفاسه راضيًا لأنه يدرك أن صدري سيسع رأسه ما إن أثقلته الدنيا بهمومها.

هذه هي الحياة التي كان يجب أن أحارب من أجلها، لا أن أتركني وأتحول إلى شخصٍ آخر، غير منتبهة أن الشخص الآخر يلزمه حياة أخرى.

لذا فأنا نادمة على بعض الأشياء وسعيدة لأنني جربتُ أشياء لم أكن لأعرف عنها شيئًا لو بقيتُ هنا.

عامةً هذه هي الحياة، قليلٌ من هذا وقليلٌ من هذا.

وأخيرًا يا خالة ..

الله يرزق كل امرأة جميلة، سوية، رجلًا يتقي الله فيها ويضعها في عينيه وقلبه، يخشى سؤال الله له عنها فيتقيه فيها، يكون هيِّنًا، ليِّنًا، سهل المعاملة وطيب المشير.

وبدلاً من أن يحارب كل منهما الآخر، يحاربان معًا، العالم سيئ بما يكفي، ليس هناك حاجة إلى حروبٍ إضافية.

ونمنا، لكنني نمتُ بعد جهد.

عقلي لم يتركني أنام بسهولة، كنتُ أفكر في الرؤيا التي رأيتها وجاءت بي إلى القرية مرة أخرى، فكرتُ في عصمت وفوزية وزينب، في عائشة وفي نفسي، وحوش الأفكار أكلت عقلي ونمتُ مُتعبة.

استيقظتُ من النوم وأنا أصرخ، فبكى حسن من صرختي، نطقت الشهادتين ثم أخذته في حضني، دخلتِ تركضين، تضعين يدك اليسرى أسفل يدك اليمنى كيلا تسقط منها قطرات اللبن، سألتِ: «ماذا حدث؟».

نظرتُ إلى السقف وأنا أتنهد: «لا شيء، كابوس».

- قُلتُ إن ثعبانًا قرصك، تصرخين من أجل كابوس! جعلتني أترك اللبن مكشوفًا، اشربي من القلة.

كنتِ ستتحركين لكنكِ وقفتِ حين قُلت: «سأموت يا خالة، اقترب أجلي».

***

هذا كشفٌ كما قال لي الشيخ درويش مرة، لكنني كنتُ أفكر في الحكمة من المعرفة كي أفعل ما أُمرت به ولم يهتدِ تفكيري إلى شيء.

حلمتُ أن الباب الخشبي يُطرق بشدة وصوتٌ غليظ ينادي: «مَن كانت فيكما مكشوفة الرأس فلتغطِّه».

ثم فُتح الباب بضربة قدم.

لا أعرف كيف كنت نائمة على ظهري في وسط الدار على الأرض وحسن نائم ولم أفزع حين سمعت صوتهم وكأنني كنت أنتظرهم، وكان فوق رأسي غراب ينعق. حسن الذي كان رضيعًا في لحظة أصبح يتحرك ويسير على قدميه وكأنه ابن خمس سنوات، سحبوني معهم، وأمسكني رجل منهم من

عضدي الأيمن، ملامحهم لم تكن واضحة وكنت أنظر خلفي في هلع خوفًا على حسن الذي كان يمسك في عباءتي من الخلف.

رأيت أهالي البلد كلهم في صفين ينظرون إليَّ ويستغفرون، سمعت صوت رجل منهم: «ربنا يستر على ولايانا»، كنت بملامح الخالة سميرة وحين اكتشفتُ ذلك في الحلم انقبض قلبي، ورأيتُ العصافير التي صنعتها بالطين أنا وعائشة تطير أمامي، وسرب صغير من الفراشات حول رأسي، أصوات الناس تداخلت، ورأيتُ قرب الساحة الشيخ درويش يقف واضعًا يديه خلف ظهره ينتظرني فأسرعت خطوتي إليه، وقفت أمامه وقلت بصوتٍ متوجسٍ: «ماذا سيحدث بي؟».

- قضاء الله.

- قلت إنني سأنجو، أين النجاة الآن؟

- نجاتك من الحياة، لم تقعي في فخها ولم تغرقِ بشهواتها، نحن هنا في اختبار يا آمال.

ورأيت أمي فاطمة ناديتها لكنها لم تسمع، ظللت أنادي حتى وقفتُ جوار النخلة، كما كانت الخالة سميرة تمامًا.

وخرج سعيد العمدة، يضرب الأرض بعصاه، عدل عمَّته بيده وأزاح التلفيعة عن رقبته.

نادى بصوت مرتفع حتى نظرت إلينا الوجوه كلها: «يا ابنة الشيخ جميل، عرف أهل القرية أباكِ، ما كان أبوكِ امرأ سوءٍ، وعرف أهل القرية أمكِ، ما كانت أمكِ بغيًّا، كنتِ يتيمة واعتبرك أهل البلد ابنة لهم، كبرتِ هنا وتزوجتِ أمام الجميع».

قاطعته: «ورفضتك أمام الجميع».

- لا تفصح المرأة الخجول عن رأيها في الزواج يا عديمة الحياء.

- هل ستبدل دين الله؟ الزواج دون رغبتي أبطله ربي.

نظر إلى الرجال ورفع صوته أكثر: «أسألك أمام الجميع، من أين أتى هذا الطفل؟».

- ابني، رزق الله لي، حملته ووضعته بأمر الله.

- ومن أبوه؟

- أبوه تزوجته أمامكم.

لا تكذبي! ذهبنا إلى القاهرة وقلبناها وعرفنا أن صادق أفندي سافر لندن، حتى الست حكمت أخته وجدنا منزلها مغلقًا وعرفنا أنها سافرت لزوجها، يعني تزوجكِ وسافر ولم يأتِ من بعدها، هل سافرتِ لندن إليه!

- أتى من لندن وتزوجني.

- نحن فعلنا ما علينا والله يا أهل البلد، يشهد الله الذي ملَّكني زمامكم أنني أرسلتُ خلف الرجل وقالوا إنه لم يأتِ القاهرة قط، ثم هل هذا كلام يدخل العقل؟ هل سيعود والبلد مشتعلة ولا تعرف مصيرها، هذه المرأة لعوب، أقول لكم وصدقوني، ربما قالت في عقلها أنا في بلدٍ لا يعرفني فيها أحد، أفعل ما بدا لي ولن أُحاسب، ثم حين وقعت الطوبة في المعطوبة، عادت كيلا تُفضح هناك وظنت أن زواجها رخصة، لكنني لن أسكت ما دام هذا حقًّا لكم، هذه شيطان، والله شيطان، هل تعرفون ماذا تقول؟ تقول إن المرأة مثل الرجل تمامًا، استغفر الله العظيم، هذا قولها، تريد أن تخالف أمر الله، منذ متى والنساء لها صوت؟ عرفنا أمهاتنا وبناتنا وزوجاتنا، هل فعل أحدٌ فعلتها؟ هذه شيطان يا أهل البلد، يا رب إذا كنت أفتري عليها يسقط السماء عليِّ وأنا بينكم.

نظر إليَّ: «هل تعرفين حكم مَن يخالف أوامر الله؟ الكفر، إذن أنتِ كافرة، وسأترك هذا الأمر لأهل الدين، أنا عمدة عادل، والشيخ عبد الباسط أمامكم، قل لنا يا شيخ عبد الباسط، مَن يخالف نصًّا صريحًا في القرآن ماذا نقول عليه؟».

ردَّ رجل وجهه ممصوص وذقنه غير مرتبة: «نقول عليه كافر يا عمدة».

رفع سعيد يديه الاثنتين إلى الأعلى وكأنه يبرئ نفسه: «هل هذا قولي؟ هذا قول الشيوخ، لم أقل شيئًا».

قُلت: «لكنني لم أخالف آية في القرآن».

اقترب مني بسرعة: «هل تقولين إنكِ لم تخالفي آية؟ وهل هناك آية أتاحت فجور المرأة وسفورها؟ خروجها من بيتها من دون رجل والعيش في بلدٍ بمفردها ثم تعود وهي حامل، والله لا يكفيني فيكِ رجمك.

اسمعوا يا أهل البلد، هذا بلد شريف، وحين حدث مرة ولعب شيطان في عقل امرأة، وقف لها أبي الله ينوِّر قبره».

قُلت: «والله يذيقه جحيم القبر».

رفع يده ليسقطها على وجهي فأمسكتها ودفعتها بعيدًا.

قلت: «يأخذ منه حق الخالة سميرة، وحق كل مظلوم في هذا البلد، أتقصدها بأن الشيطان لعب في عقلها؟ أي شيطان غير أبيك ؟».

قُلتُ بصوتٍ عالٍ: «الجميع أخطأ في حق الخالة سميرة، لكنه لوى أذرعكم لأن الجَلد كان بموافقة الجميع، خفتم من عقاب الحكومة، ونسيتم رب الحكومة، هددكم أنكم ستُؤخذون في الأقدام، ماتت سميرة ومات العمدة وسأموت وستموتون وسنقابل وجهًا كريمًا.

- اسكتي، قطع الله هذا اللسان.

- مشكلتي معك أكبر من كل ذلك يا سعيد يا ظالم يا ابن الظالم، أنت تريد إعادة التاريخ، السبب نفسه، الظلم نفسه، رجل من صلب الرجل نفسه، وأنا هي المرأة نفسها التي قتلها منذ سنوات، أنا المرأة التي تُضرب كل يوم، وتُهان كل يوم، وتُظلم كل يوم، أنا سميرة، أنا عصمت، أنا عائشة، أنا هدى، وسأستمر بالموت والحياة حتى أجد

حياة لا تقتل ما خلقه الله بي. تقول منذ متى والنساء لها صوت؟ منذ كنا نعلمكم الكلام.

لا أعرف كيف تحولوا غربانًا ما عدا الشيخ درويش، أغلقت عيني وفتحتها فعادوا لصورتهم الطبيعية، ربطني اثنان في النخلة، وكنت أريد أن أتحدث لكنني لم أفعل حين تذكرت الخالة سميرة وصمتها، فهمته، وعرفت أن الصمت أفضل حل حين يكون الحديث لا فائدة منه.

تذكرتُ قول سيدنا موسى: «وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي»، وتنهدتُ بارتياح من دقة الوصف، نظرتُ إلى السماء وابتسمت، ويكفي أن الله عليمٌ بما في قلبي.

أذكر أنني نظرت إلى الشيخ درويش وقلت له ألا يحزن عليَّ، وأن كل تغيير يسبقه ألم وضحايا، لكن ما لا أستطيع تقبله أن أكون أنا الضحية نفسها كل مرة.

اقتربت أمي وهي تصرخ كي تضمني لكنهم أمسكوها، سألتها: «هل عرفتِ يامَّا لِمَ احترق جناح الفراشة؟ ليس لأنها اقتربت من النار، بل لأنها ابتعدت عنها، الخروج عن السرب له ضريبة تُدفع».

صرخ سعيد: «ارجموها، إنها شيطانة، الله لا يرضى عن أفعالها».

ناديتُ حسن وكان قد أصبح شابًّا طويلاً ونحيلاً: «يا حسن، أبوك حيٌّ يا حسن، وأنت ابن حلال لا تصدق حديثهم، أمك حرة، أحبت وتزوجت وأنجبت ولدًا جميلاً اسمه حسن، يا حسن، يا حسن، لا تصدقهم، سيعود أبوك، وحين يعود ستجد الجميع يركض ويقول: «عاد الباشا»، ستُفتح البوابات المُغلقة، سيركض الخدم، وسيفرح الأنفار لأن الأرض ستُزرع بشكل مختلف ويحصلون على مالٍ وفيرٍ ولن يؤخذ منهم ككل مرة.

حين تقترب سترى وجهك به، الملامح نفسها، ستتعرف عليه وهو سيتعرف عليك، لا تحزن إذا أنكرك في البداية، ملامحك ستكذبه.

سيسأل عنك، سيأتي إلى بيتك، يضع يده على وجهك ويقول لك أنت ابن آمال حبيبتي؟ أنت ابني؟

سامحه يا حبيبي إذا أتى».

سقط لساني في حلقي حين جاء أول حجرٍ برأسي، كان من سعيد، رأيت في عينيه حقدًا وبغضًا وكرهًا كأنني قتلت أبناءه، الحجر الذي ألقاه كان له سنٌّ مُدببة، ثم توالت الأحجار، جاء حجر في الرقبة فشعرت بلساني يصل إلى معدتي، لا تنسَ أيها العالم أنني حاولت، حجر بجوار عيني اليمنى، ركض في

عقلي كل شيءٍ تمنيته، وسقطت دمعتان حين اكتشفت أنني لم أتمنَّ الكثير، أمنيات بسيطة ورغم ذلك ضنَّت الحياة. حجر في فكي وبعدها لم أعد أشعر بالألم، تحولت الأحجار لفراشات كثيرة، تدور حول رأسي كما العلم تمامًا، خرجتُ من الأحبال وحلَّقت معها، وحين نظرت إلى الأسفل وجدت جسدي مربوطًا في النخلة ينزف.

***

- اسمعيني يا خالة، سأعطيكِ شيئًا كتبت فيه الحديث بيني وبينك كله، سأكتب فيه رسالة إلى حسن وأتركه معكِ، إذا أتى الله بصادق وقرأ الرسائل سيأتي إلى هنا بحثًا عني وعن ابنه، وقتها أعطي حسن ما سأتركه معكِ. وإذا لم يعد فلا تعطيه شيئًا.

- سأقول له كل شيء أول ما يفهم.

- لا تخبريه شيئًا إلا إذا عاد صادق، لا أريده أن يعيش على أمل أن يأتي ما يقلب حياته، سيموت إن لم يأتِ.

- وهل تريدينه أن يعيش وهو يظن أنه بلا أب؟!

- ولو عرف أن أباه حي، ما الفرق؟

- والله مسكين هذا الولد.

- لا تخافي عليه، الله كتب له حياة وسيحياها كما هي، لا هروب من قدر الله.

أرضعت حسن، ولم أتوقف عن تقبيله، كان قد هدأ وبدأت عيناه تغفوان، لكنه فتحهما باكيًا حين طرق الباب الخشبي بشدة وسمعنا صوتًا غليظًا ينادي: «مَن كانت فيكما مكشوفة الرأس فلتغطِّه».

ثم فُتح الباب بضربة قدم.

***

نور عيني حسن..

إنها من الأشياء العجيبة التي حدثت في حياتي، أن أتمناك لسنواتٍ طويلة، وحين أكفُّ عن الحلم بك تأتي بصورة مباغتة، حكمة الله، لكنني لم أنظر إلى جوانب عدة ومهمة في أمرك، كنتُ أريد طفلاً من رجل أحببته، طفلاً يعزز فيَّ الأمومة كيلا يموت قلبي بنقصٍ ما، والآن اتضحت لي الدروب التي لم يفكر فيها عقلي قط.

إنني يا حبيبي ما زلتُ أقرأ بأصابعي المواقف التي تقابلني، لأن البصر في هذه الأمور غير مهم، ما زلت أقع وأتلعثم وأقف أمام بعض الأمور ولا أدري كيف أتصرف، والآن أصبح عليَّ أن أكون المرشد لك، أن أنبهك، أن أشير لك إلى الطريق الصحيح وأنا لا أعرف الطريق الصحيح.

شاء الله أنه بعد علاقة تسعة أشهر بيننا، لا أمتع عيني بك سوى أسبوعٍ أو أسبوعين، هذا قضاء الله ونحن راضون.

قلت لجدتك هدى إنني لستُ خائفة عليك، لكنني أكتب ويدي ترتجف من الخوف، لم أنم منذ ليلتين، أفكر فيما قد يحدث بك، وأهدئ من نفسي بأنني لستُ أرحم بك من خالقك.

أريدك أن تعرف أن لا شيء في حياتي اخترته بإرادتي، كل موقف وضعت فيه كان فرضًا عليَّ، ولن ألوم نفسي على أي شيءٍ فعلته، فأنا بشر إن أصبت فبفضل من الله عليَّ، وإن أخطأت فجلَّ من لا يُخطئ، لكن يكفي أنني لم أفعل شيئًا إلا وأنا أرجو أن يكون صوابًا.

ستُسحب مني ورقة الحياة، وينتهي اختباري عند هذه النقطة، ولن أخفي عليك أن الرعب يأكل أطرافي، لا أعرف إذا كنت أجبت فيها ما قد يشفع لي، وأخاف أن يسألني الله سؤالاً لا أجد إجابة له.

أنت بين يدي وكنت أتمنى لو تصبح رجلاً أمام عيني وأصف لك خوفي هذا فتضمني.

اسمعني يا حسن..

هذا ما توصلت إليه وأريدك أن تعرفه، إننا لا نبحث هنا عن السعادة، لأنك لن تجدها ، ولو وجدتها ستزول، ولا نبحث عن الراحة الدنيا دار ابتلاء وتعب، افعل ما شئت لكن لا ترسب في اختبارك الذي خُلقت من أجله.

لا تتردد أبدًا في دخول طريق تظن أنه صحيحًا، الحياة لن تُهدَم من اختياراتك، كتب الله لك وقتًا معينًا في الأرض وستعيشه رغمًا عن أنف أخطائك.

كنت أتمنى أن أكون معك وأنت تسير الطرق نفسها، على الأقل ألمح دهشتك وأبتسم، وأقول لنفسي: «لا تخافي عليه يا آمال ستنقذه عناية الله كما أنقذتك».

إذا بقي شيء أقوله لك، سأقول لا تلتفت لمزاعمهم، وصدِّق النور الذي في قلبك، قلبك مصباح كبير خُلق بمعجزات، طهره كي يفهم الإشارة ويرى الحكمة، ثق أن الله لن يضيعك أبدًا، إذا قدَّر أمرًا فهو كفيل به.

إذا قرأت هذه الرسالة يعني أن صادق عاد، لا تذهب إليه، هو سيأتي ويطرق بابك، وسيبكي لأنه لن يصدق أن الحياة بعدما حرمته أعطته فجأة رجلًا كبيرًا وجميلاً مثلك، وإذا ذُكر اسمي بينكما

فاعلم أنني لم أحب أحدًا كما أحببتكما معًا، ولم أتمنَّ شيئًا في هذه الحياة مثلما تمنيت بيتًا صغيرًا أصنع فيه لكما طعامًا وتسعد جدرانه من حديثنا كل مساء ونحن نشرب الشاي وننظر إلى الغد بأعين لامعة.

أمُّك آمال.

***

كان حسن يجلس عند البناء المهدم أو غير المكتمل، قال لجدته هدى أكثر من مرة أن يهد ما بُني ويحاول زراعة الأرض بدلاً من وجودها بلا فائدة، وحين رفضت لم يجادلها لأن العمدة سيأخذها لو زُرعت، هو يتغافل عنها لأنها لا تُزرع.

لكن لها فائدة، يأتي إليها كلما ضاقت، وحين يتوصل عقله إلى أنه يأتي إليها لأن فيها رائحة أمه ينقبض قلبه أكثر.

ماتت وهو ابن اسبوعين لا يعرف كيف يشعر أنه رآها وهي تُسحب أمام الجميع، كأنه حلم بذلك أو رآه حقًّا، كأنه سمعها تناديه بصوتٍ مبحوحٍ وتقول: «يا حسن، أنت ابن حلال يا حسن، أبوك حيٌّ يرزق، ولو أنصفك الزمن سيعود»، وهو يعرف أن الزمن لن ينصفه، كما لم يفعل يومًا، كان رضيعًا ومن الغباء أن يقول إنه يتذكر شيئًا من ملامحها أو صوتها، هو لا يتذكر شيئًا، لكن تلك الحادثة لا تتوقف عن المرور في عقله.

لماذا قتلوها ؟

حين يرى العمدة مارًّا في البلد يخفض بصره، ولا يعرف أيخجل منه أم يمسك في طوق جلبابه ويخنقه حتى تخرج منه روحه.

سمعه مرة واحدة فقط عن قرب، كان يلوِّح بعصاه أمام الفلاحين ويتوعد مَن يُهمل في عمله، ورغم أنه لم يرفع عينيه عن الأرض فإنه شعر أنه يتوعده هو وأنه لا ينظر إلى غيره، وظل فترة طويلة في بداية حياته لا يسلم من

ألسنة أهل البلد، حين يرونه سائرًا يتهامسون ويتلامزون، لكن لكي يكون منصفًا كانت بعض النسوة تحملنه وتقبلنه وكان حبهن خالصًا.

- أنت ابن آمال الله يرحمها؟ السنوات تركض يا أولاد، بالأمس كنت رضيعًا والآن بسم الله ما شاء الله.

لا يصدق أيضًا أنها أنت بفاحشة، لأن طراطيش الكلام التي يسمعها متناقضة، البعض يقول إنها كانت ست كُمَّل، خالته عائشة قالت له:« أمك لا تفعل العيبة لكنه قدرها»، البعض يبصق إذا رآه، ومنذ عامين أولاد الحلال كانوا سيكملون بناء المدرسة وتسميتها مدرسة السيدة آمال، ابتسم بسخرية وهو يكسر غصنًا رفيعًا بيديه، سيجنُّه تناقض هذا المجتمع، كيف يلعنونها ويبجلونها في الوقت ذاته!

كان يظن أن جدته هدى هي أمه، لكنه حين كبر قليلاً وعرف القصة ندم لأنه كبر، لم يتوقف عن الأسئلة إلا حين أدرك أنه لن يحصل على إجابات.

دُفنت ثم انتصرت مصر على الألمان في معركة العلمين، وحين انتشر خبر قتلها وصل أمرٌ من مسؤول كبير بإغلاق القضية، قالوا إن أي محاولة للتشويش على سعادة المصريين غير مقبولة، وقال نصًّا: «امرأة أخطأت ونالت عقوبتها ومشكلات أهل الريف لا تنتهي ولو ركزنا في كل ما يحدث لعاقبنا الجميع».

يُفكر، هل العالم بالفعل قاسٍ على النساء؟ هل رقتهن لا تحتمل التعايش معه؟ لكن الله هو مَن خلق النساء بتلك الرقة، وخلق الرجال وأمرهم بحمايتهن، هل هذا يعني أن هناك جانيًا كان من المفترض أن يحميها لكنه افترسها؟

شعر فجأة أن عقله سيتوقف، كاد يسبُّ اللحظة التي أصبحت فيها أمه وأصبح فيها ابنها.

وقف أمام المدرسة وهمس كعادته: «الله يسامحك يا آمال يا ابنة الشيخ جميل على ذنبك، ولا يسامحك على ذنبي».

الآن وهو شاب في الرابعة عشرة من عمره، لا أم ولا أب ولا شهادة يخرج بها من هذا الجحيم ولا عمل يحصل منه على مالٍ يُرضيه ليعيش حياة أفضل ويتزوج حين يصلح له ذلك، رغم أنه قرر الزواج من حورية ابنة خالته عائشة ويعرف أنهم لن يكلفوه فوق طاقته، فتاة قصيرة بيضاء، لها شفاه بلون الورد، ورأى شعرها مرة حين خرجت دون حجاب وكانت لا تعرف بوجوده، طويلاً يصل إلى منتصف ظهرها أو أسفل قليلاً، ويكفي أنه تربى معها ويعرف عنها كل شيء.

لمح صديقه رمزي من بعيد وهو يركض تجاهه، وقف أمامه وقد استند بيديه إلى ركبتيه ليأخذ نَفسه، قال وهو رئتيه تنتفضان من تتابع دخول الهواء وخروجه: «أنت تجلس هنا والبلد مقلوبة!».

- ماذا حدث؟

- البيه الصغير رجع، رأيتُ سيارته بنفسي والبلد كلها خرجت تستقبله. لا يعرف لِمَ شعر بخوفٍ مفاجئ، كأنه سمع كلمة البيه الصغير من قبل، أحسَّ فجأة أن الحياة ستتغير وأن هذه الجملة التي أخافته ستبدِّل حياته، رفع جلبابه ووضع طرفه في فمه وركض مع رمزي ليرى، وحين وصل أمام البيت الكبير كان بالكاد يرى سيارته من تجمع الناس حولها، اقترب واندس بينهم، فُتحت البوابات المُغلقة منذ زمن بعيد، رأى السائق وهو يدخل بالسيارة، لم يرى وجه البيه الصغير كاملاً، رأى أنفه الطويل، وجانب وجهه الذي أظهر رقة شفتيه ولونه القمحي، نظر إلى جانبه حين سمع الأنفار جواره يهللون فرحًا لأن المال سيزيد، كان ينظر إليهم ولا يعرف ما علاقة عودة هذا الرجل بزيادة المال، لكن أمه قالتها له من قبل، ولا يعرف كيف يذكر ذلك وقد ماتت وهو رضيع.

حين تذكر أمه غاص قلبه بين ضلوعه وشعر بالألم نفسه الذي يزوره كلما أجبرته المواقف أن يتذكرها، كأنها أنبأته أن الرجل سيعود، تحققت النبوءة.

لكن ما علاقة عودة هذا الرجل بمعرفته بوالده؟ قالت له جدته هدى، إنه سيعرف والده حين يعود الباشا، خرج من بينهم كما اندس، وقف جانبًا ينظر إلى خياله على الأرض، إلى أنفه الطويل تحديدًا وشفتيه اللتين تكادان لا تظهران على الأرض من رقتهما، تركهم عائدًا إلى جدته يسألها، غير مهتم بنداء صديقه خلفه، رحل وهو يفكر إذا كان سيستطيع هذا الباشا أن يدله على مكان والده.

***

شيءٌ ناقص كُتب عليه أن يكتمل، ولأن الحياة ليست النهاية فأحيانًا تموت قصصٌ ولا نعرف نهايتها، لأن الدنيا ليست مسؤولة عن الإجابات، وأن يموت الشخص مرتاحًا لأن قصته انتهت بطريقة يرضاها، هل يفرق عن الشخص

الذي يموت وهو لا يعرف الحكمة؟ كلاهما سيكملان الحياة الآخرة، وسيقلقهما الشيء نفسه، وهو ما المصير؟

كان يظن أن أسوأ موقف تعرَّض له هو رفض أبوه أن يحضر جنازته، لا يعرف لماذا رفضه حيًّا ورفضه حين مات، ثم فقد امرأة كان محقًّا حين اسماها المرأة العقاب، بطريقة ما شعر أنها ستعاقبه على ذنبٍ لا يعرفه، لكن الآن وهو يضع قدميه على الأرض خارجًا من السيارة أمام البيت الذي كتب فيه كتابه عليها، عرف أن كل ذنبه أنه نسي الذنب.

زواجه منها كان محاولة لإرضاء والده، وهروبه منها كان محاولة لإرضاء نفسه، لكنه نسي بالفعل أن يطلقها، حين سافر دار مع عجلة الحياة في الخارج، وحين عاد فاجأته بعقابها.

ظن أنه يُعاقبها بسفره إلى لندن حين استيقظ ولم يجدها جواره، انتظرها شهرًا كاملاً ولم تعد، سنوات طويلة لينساها وحين عاد صُدم بالرسائل أسفل بابه، لتضحك في النهاية ويخسر أمامها مرة أخرى.

يقف أمام البيت ويطرق الباب، يدعو الله أن تطل هي، أن تفتح له الباب وتفتح معه ذراعيها كما قالت له مرة.

يتذكر حديثها بعد غيابٍ كعادتها، كذب عليها وأخبرها أنه لم يشعر بألمٍ قط في غيابها.

قالت بثقة: «كاذب؟».

- وما الذي جعلك متأكدة أنني أكذب؟

- لأنني تمنيتُ ألا تكون بخيرٍ مثلي، ودعوت الله بذلك.

سألها مدهوشاً من دعائها عليه: «هل دعوتِ عليَّ حقا؟!».

- أجل فعلت، أمنية شريرة، لكنها منطقية على الأقل بالنسبة إليَّ.

- أنا دَهِش من تفكيرك، المحب لا يتمنى أن يصيب الألم محبوبه.

- اتركنا من حديث الأفلام يا صادق، أنت آلمتني وتمنيتُ لك المثل، هذا لا يجعلني مُخطئة، لستُ حمامة سلام لأجبر على المسامحة.

- وماذا تمنيتِ تحديدًا؟

- اعترف أولاً أن غيابي يؤلمك.

- غيابك يُحرقني والله.

ابتسمت بانتصار وقالت: «تمنيتُ ألا تكون بخيرٍ مثلي، أن تتذكرني ويؤلمك قلبك، أن تمسح على أنفك بسرعة وتوتر كأنك تريد أن تتخلص مني، أن تحرك قدميك بعصبية وتتمنى أن يأخذني الله لتتخلص من ذاكرتك معي، أو يجمعنا لنخلق ذاكرة جديدة».

قال وهو يضحك: «أنتِ شريرة».

- وسأزيدك من الشر بيتًا، الله لا يجعل راحتك إلا معي، تسير الدنيا على قدميك وتأتيني في النهاية تلهث تبحث عن شيء يقتل التعب، تقول بألمٍ: «افتحي ذراعيكِ»، وسأفتحهما يا حبيبي، سأفتحهما.

وبعد سنواتٍ من الهروب، جاءها في النهاية يلهث، يبحث عن شيءٍ يقتل التعب، ويتمنى أن تفي بوعدها وتفتح ذراعيها كما قالت.

فُتح الباب، خرج شابٌ أطول منه، نحيلٌ كأن الأفكار تتغذى عليه كل يوم، شعر أنه يُريد أن يبكي ولا يعرف السبب.

سمع صوتاً أنثوياً يسأل من الداخل: «من بالباب يا حسن؟».

وسمع صوتًا يشبه صوته: «لا أعرف يا خالة عائشة».

ثم سأله: «مَن حضرتك يا أفندي؟».

لا يريد مزيدًا من المفاجآت، كيف يرحل كذا عامٍ ويعود ليجد أن له ابنًا طوله؟

خرج صوته محشرجًا كأن حنجرته تفاجأت أنه سيتحدث: «هل سمَّتك حسن؟».

صورة مُصغرة منه يجلس أمامه، يقول إنها رحلت منذ زمن بعيد، يُعيد نطق الكلمة لعله يفهم معناها، الكلمة صفعة لكنها بدلاً من أن توقظه أسقطته في الظلام.

ذاق هذه اللحظة كثيرًا، عندما قال الطبيب وهو يخرج من غرفة أمه: «البقاء لله»، عندما وصل إليه خبر وفاة أبيه، مرفقا بعبارة: «لا تأتِ لأنه أوصى

بذلك»، هي لحظة واحدة لا يعرف العقل إلى أيهما ينتمي، الحياة أم الموت.

كأنه يسقط تمامًا.

في اللحظة الأولى من سقوطك من حافة العالم، سيعمل عقلك بسرعة فائقة، تفكر أولاً كيف انزلقت قدماي؟ كنت للتوِّ أقف على حافة السعادة.

كيف خانتني المصادفة واختلَّ توازني؟

في اللحظة الثانية، سيحاول جسدك الإمساك بالهواء، ضغط جزيئاته وضحه في رئتيك لعلك تنجو، تحاول رفع رأسك للأعلى لكن انكماش الهواء في رئتيك يجعلك تنظر نحو الهاوية بفزع.

في اللحظة الثالثة، ستستقبل القاع بإجبار، تنظر بسرعة في كل الاتجاهات، ربما يبقى مساحة لعقلك ليتساءل «كنت أراقب العالم من بعيد كعابر، كيف خانني!»، أو ربما يُخلق سؤال آخر من نهج «ما مصير جسدي الآن؟»، وقبل أن تفكر في إجابة مُرضية، ترتطم بوجه القاع، يرتطم وجهك أولاً وكأنه يحاول أن يُوقف كل تلك الحروف التي استيقظتْ فجأة، أو كأنه يُريد أن يقع باقي جسدك في سلام.

ولكن لنفترض أنك لم تقع، ما هي الإجابات التي كنتَ ستضعها لكل الأسئلة التي خفت أن تُظهرها للضوء، بماذا كنت ستجيب العالم، نفسك، الحافة الهواء، القاع وقلبك؟

بأي إجابة ستستر سوأتك؟

رحلت لكنها تركت له شيئًا منهما معًا كأنها ولدته مرة أخرى.

كم هي سخية أرحام النساء، تقرضها شيئًا صغيرًا منك فتُعيده لك جسدًا كاملاً !

يتذكر جلسته في المكان نفسه وهو يمضي عقده عليها مُكرهًا، والآن يجلس باكيًا، ولكي يشتد عليه العقاب أصبحت لا تفارقه، لا في غربته ولا في عودته، هناك كانت حائلاً بينه وبين النساء، وظن أنه حين يعود ويلتقيها سيهدأ، اللقاءات المؤجلة للحياة الآخرة مميتة.

يحرك أصابعه على خطها، هنا بكت هذا اشتكته لله، هنا تاهت بقدميها الصغيرتين في الكون الواسع بحثًا عنه، هنا تعلمت كيف تسير من دونه، هنا تشوشت بسببه، لكن كان العقاب قاسيًا.

كان سيتقبل أي شيء، إلا أن يخلو العالم منها.

***

فُتحت القضية مرة أخرى، طُلب العمدة للاستجواب، لكن لم يكن يعرف أن النطق يعتمد على عدد المعارف، لا على الأدلة والشهود.

هدده سعيد بأنه سيخرج منها كما تخرج الشعرة من العجين ولن يرحم أحدًا وقتها، المناصب الفاسدة التي اعتاد خدمتها طوال أعوام، يضمنهم في جيب جلبابه.

قال أمام ضابط المباحث: «يا سعادة البيه، هذه القرية لم يدخلها القانون قط، نحن هناك أهلٌ وأحباب، وإذا أخطأ منَّا أحدٌ عاقبناه ولا نؤلم رأس أسيادنا بمشكلاتنا، البلد فيها ما يكفيها.

هذه القضية أُغلقت بأمرٍ من فوق، البنت كنا نظنها جاءت بفاحشة، واسأل أهل البلد، لقد سرتُ القاهرة كلها على قدمي أبحث عن سي صادق أفندي ليبرئها ولم أجده، ونطقت كفرًا أمام الجميع».

- ربُطت في النخلة؟

- حدث يا سعادة البيه، ربطتها كي أعاقبها لكن أهل البلد المؤمنون بالله لم يحتملوا ما قالته على دينهم، فرموها بالحجارة.

- مَن رماها ؟

- لا أعرف كيلا يحاسبني الله على شهادتي، لكنني أوقفتهم وقُلت لهم إنني مَن سيُعاقبها، فجأة وجدنا صراخًا بأنها ماتت، جسدها لم يحتمل الشمس، ثم أنك عدم اللامؤاخذة لو أردت معاقبة الفاعل، هل ستسجنون جميع أهل القرية؟ القضية أُغلقت يا بيه، وآمال ماتت وشبعت موتًا.

لم يقبل إغلاق القضية، لكن المأمور قال له بحزنٍ بالغ: «أنا مُقدِّر لِمَا تشعر به، لكنك ترى ما حدث في البلد والعدوان الثلاثي الذي عليها أن تواجهه، البلد مشتعلة ولا نضمن أن نعيش لنأتي بحق امرأة ماتت، لو كانت قضية واضحة لأصدرت الحكم عليها فورًا، العمدة لديه حق، مَن ألقى عليها الحجارة لنحاسبه؟ حتى لو أثبتنا أن العمدة ألقاها بحجارة معهم، أي حجر تسبب في موتها؟ البلد مقلوبة والجميع يبكي الاحتلال الجديد ولا نعرف مصيرنا، آمال ليست الضحية الوحيدة، ماتت منذ أكثر من عشرة أعوام، الآن هناك ضحايا من حقهم علينا أن نحزن عليهم، ولن تجد مسؤولًا واحدًا لديه طاقة لفتح قضية أُغلقت منذ سنوات ونحن في هذه الحال».

وأُغلقت القضية مرة أخرى، كل ما استطاع فعله بسبب معارفه هو جعل العمدة يخسر منصبه، ونزل المأمور بذاته إلى القرية لينصِّبوا عمدة آخر.

ولأن الفلاحين حين نظروا إلى بعضهم بثيابهم الممزقة، لم يجدوا منهم مَن يستحق، أولوه أمرهم حتى يجدوا بديلًا.

تذكر وهو يسير باتجاه المقابر لينقلوا ما تبقى منها في مقابر العائلة، أنه أقسم لها بأنه لن يذهب إلى القرية أبدًا، وحين جثا بركبتيه أمام قبر أبيه تذكر القسم الآخر بعدم زيارة قبره، امرأة واحدة جعلته يحنث بقسمين.

خسر القضية لكنه لم يتألم لذلك كثيرًا، شعر أن لا شيء سيعوِّضه، مَن سيعوِّضه خسارته فيها، ومَن سيعوِّض الحياة فقد فراشة صغيرة أحبتها من قلبها الذي لا يعرف كيف يخون!

كل ما قدمه لها هو بناء المدرسة التي بدأتها، تشوشت مبادئه، لا يعرف تحديدًا ما يرضيه وما يُغضبه، كأنه يسير الطريق مرغمًا لأنه لا بديل لذلك ولأنه لو اعترض لا يعرف على أي شيءٍ سيعترض.

آمال كانت محقة، العالم مجنون والحياة تعبث بنا، ولن تنتهي المسرحية إلا حين يُنفخ في الصور.

آمال يا بكاء الأمسيات لغياب ساهريها، ونزيف قلبٍ لم يجدوا له خنجرًا إلا غيابك، يا تهافت الأمنيات لتعود إلى الحياة مرة أخرى والرغبة التي بدلاً من أن تُنقذ صاحبها قتلته.

***

يسمع صوت هدى من الغرفة المجاورة تسب وتلعن مَن كفَّلها بتغيير ثيابها والاهتمام بها، كل يوم يسمعها تقول: «أتريدين سرقة الهِدمة التي أمتلكها يا كلبة؟».

لكن الفتاة تعوَّدت ولم تعد تشتكي له.

ينظر إلى حسن من الأعلى، يستند بذراعيه إلى سور الشرفة ويراه ذاهبًا ليُكمل الثانوية في مدرسة المركز، بعدما زوَّر ورقًا بأنه أكمل الابتدائية والإعدادية. منعه بالقوة من التفكير في قتل سعيد، أراد أن يخبره أشياء كثيرة، لكنه يعرف أن هناك أشياء لا تُفهم إلا بالتجربة، والحياة خير مُعلم.

طبع حسن لا يُشبهه ولا يُشبه ،آمال، أخذ منها ثورتها وأخذ منه ملامحه، وهو يحاول أن يفكر كما تفكر آمال، لم يكن سيرضيها أن يُغمس بابنها في الدماء.

غدًا يزوجه حورية، ويملأ عليه البيت أطفالاً، يتذكر طلب عائشة له بأن يتزوج، لكنه يشعر بآمال تناديه كل يوم بعد غروب الشمس ليجلس في الحديقة ويشرب معها الشاي، وينزل كل مرة ينتظرها، يشم رائحتها كأنها تتحرك حوله، يشعر بها تصب الشاي فيشم رائحته.

يحاول الإفلات كل مرة، لكنه يجد نفسه يقبِّل صوتها الذي يناديه، يسير مسحورًا وراء الرائحة، كأنها تسكن رئتيه، يجلس مدهوشًا من حضورها الكامل، يحاول أن يوقف الحديث بينهما كيلا يتهمه أحدٌ بالجنون، لكنه يجده حلوًا فيطلب منها ألا تتوقف أبدًا، ألا تحرمه من صوتها كيلا تجف الحياة في عروقه ويموت.

ينظر إلى السماء التي تبتلع دائرة الشمس الكبيرة في بطنها، لتُعيدها صباح كل يوم، يودعها منتظرًا أن تشرق لتغرب مرة أخرى، فيسمع صوت آمال يبعد بيديه حزنه ويناديه: «الشاي يا صادق».

***

تم تجهيز هده النسخة بواسطة:

• mohamed •

• أروى •

• أفنان •

جميع الحقوق محفوظة ©

أمسح الكود وانضم لأسرة ضاد
https://t.me/twinkling4

حنان سعيد

لا خوف اليوم على الفراشات

موت الخالة سميرة، الشبحُ الذي ظلَّ يلاحقني.
نظرتها إلى السماء وابتسامتها الأخيرة. حلمت بها كثيرًا وفي كل مرة أرى وجهي بدلًا من وجهها.
قصة امرأة عاشت وماتت، هذا لو كانت بلا تفاصيل.
والتفاصيل تقتل يا خالة، لذا نهرب منها، نحكي باختصار، نقول وُلدت ثم دُفنت، لو قلنا ما حدث لها بينهما، سنفقد عقولنا